فلسطين
أرض الحضارات

بشار

صور من التراث الحضاري
في فلسطين

د. شوقي شعث



(صور من التراث الحضاري في فلسطين)

فلسطين أرض الحضارات

بقلم الدكتور: شوقي شعث

مدير مركز الآثار والتراث الفلسطيني

رئيس الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار

الطبعة الأولى
١٩٩٤ ـ عدد النسخ ١٠٠٠
تنفيذ دار الطرقجي

تصدير

من حق فلسطين علينا، وطننا السليب، أن نبرز تراثها وحضارتها وأن نبرز جهاد شعبها ونضالاته لتظل حية في النفوس بغية التمسك بأرضها ومقدساتها، وفي هذا الكتاب نقدم أحد عشرة مقالة نشر بعضها في مجلات عربية تعالج قضايا حضارية وتراثية ونضالية تتعلق بفلسطين وأرضها وشعبها وصولاً إلى تأصيل الانتماء الوطني، كيف لا وقد قدمت فلسطين إلى حضارة الوطن العربي القديمة وإلى الحضارة العربية الاسلامية وإلى الحضارة العالمية الكثير من الإسهامات التي نجدها مسجلة بإسمها في المصادر والمراجع، ولا شك أن هذا الابداع الحضاري المستمر هو الذي جعل الشعب الفلسطيني مرتبط بأرضه، أرض الحضارات، في زهو و شموخ، والكاتب يطمع أن يجد القارىء في مقالاته هذه ما يحقق له ما يصبو إليه.

يجد الباحث هنا، من الواجب عليه، أن يقدم الشكر مقروناً بالمحبة إلى الأصدقاء الذين ساعدوه، بشكل أو بآخر، لأن يرى هذا الكتاب النور ويخص منهم الأستاذ الصديق سمير شما المحامي والاختصاصي المشهور بالنقود الاسلامية وإلى الأخ والصديق الأستاذ حمزة البرقاوي. فلولا مؤازرتهما وتشجيعهما لما كان له نصيب في هذا الشرف شرف مخاطبة شعبنا العربي الفلسطيني خاصة والشعب العربي عامة.

الدكتور شوقي شعث

إلى زوجتي أم الهيثم

إلى أبنائي الأعزاء

هيثم، حسن هنادي، جميلة وهالة.

شوقي

المحتوى

* * * * *

فلسطين أرض الحضارات

يتفق رجـال الدين والمؤرخون والباحثون عموماً على أن فلسطين أرض الديانات السماوية التوحيدية، فعلى تخومها الجنوبية ظهرت الديانة اليهودية ونمت وترعرت فوق بطاحها وفي مدنها ظهر السيد المسيح حاملاً رسالة السماء إلى العالم ومنها أسري برسول الانسانية محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيد المرسلين، وهي كذلك باتفاق كثير من علماء الآثار والمؤرخين أرض الحضارات ولاشك أن هذا الأمر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأمر الأول، وما هنا هو القاء الضوء على أصول الحضارات القديمة التي نشأت بفلسطين وكان لفلسطين فضل تصديرها إلى الشمال أو إلى الجنوب وقد ساعدها ذلك موقعها الجغرافي المتميّز.

تؤلف فلسطين القسم الجنوبي الغربي من بلاد الشام مما جعلها موقعها الجغرافي الممتاز.هذا ملتقى قارتي آسيا وأفريقيا هذا إلى جانب وقوعها على ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي منحها فرصة الاتصال بأوروبا أيضاً وهذا الموقع المتميز جعلها محط أنظار الطامعين والطامحين، فكان الصراع على امتلاكها، هذا الصراع الذي استمر حتى يومنا هذا، فعلى بطاحها قامت المعارك التي اشترك فيها عظماء التاريخ الحربي أمثال تحوتمس الثالث وسرجون الاكادي (الأول) وسرجون الآشوري وبختنصر الكلداني وقمبيز الفارسي والاسكندر المكدوني وانطيوخوس السلوقي وبومبي وفسياسان وتيتوس أباطرة روما وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم القادة العظام.

ولا شك أن هذا الصراع له أسباب أخرى غير الأسباب الاستراتيجية فهناك أسباب اقتصادية أيضاً فموقع فلسطين الجغرافي جلب إليها البضائع من سائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً وسارت منها وإليها القوافل محملة بالبضائع المختلفة ناقلة إليها ومنها كل ما يحتاجه البشر وحوّل هذا

هنري برستيد في كتابه العصور القديمة قائلاً: «وقد تسنى لفلسطين أن يجتمع في أسواقها أناس من كل بلاد وأمّة ولسان فكان الواحد يشاهد في تلك الأسواق ما صنعته يد المصري من نفيس الحلي ومختلف الأواني النحاسية والمصنوعات العاجية المختلفة، وفخار جزر ايجة وخزف بلاد الحثيين الأحمر ومنسوجات الصوف البابلية، وكانت وسائل النقل الشائعة الحمير التي كانت تشاهد هنا وهناك وتزعج بأصواتها المرتفعة فوق ضوضاء الأسواق فقد جيء بها من ضفاف النيل والفرات... وحيث أن فلسطين تعتبر مدخل الجسر بين آسيا وأفريقيا فقد امتزجت فيها مدنيات مصر وبابل وفينيقية وبلاد ايجه وآسيا الصغرى بأسلوب لا مثيل لها في الشرق القديم، وكما التقت التجارة التقت الجيوش المتطاحنة على بطاحها....».

كما أن قرب فلسطين من شبه الجزيرة العربية أكسبها ميزة إضافية حيث أخذ أهل الجزيرة يتزلونها من أقدم العصور التاريخية فاستقروا على حدودها أو نزلوها طلباً للاستقرار وبالتالي أنشأوا فيها إمارات ودويلات وظلوا يتدفقون عليها باستمرار ومن هنا جاء اصطباغها بالصبغة العربية.

ويسأل السائلون دوماً من أين جاء اسم فلسطين؟ إن أقدم اسم أطلق على البلاد المسماة فلسطين هو «أرض كنعان» لأنهم أول الشعوب التي استقرت فيها وذلك في الألف الثالث قبل الميلاد. وكان المصريون القدماء يطلقون على القسم الجنوبي من بلاد الشام الذي يضم فلسطين اسم خارو **Kharu**، كما ورد الاسم في رسائل تل العمارنة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسم كيناهي **kinahi** أو كيناهنا **Kinahna** وهي كنعان نسبة إلى الكنعانيين.

وأطلق اسم «فلستيا» على السهل الساحلي الفلسطين الممتد بين جبل الكرمل وغزة ولعل ذلك نسبة إلى أحد فروع شعوب البحر الذي استقر في ذلك السهل وأسس هناك خمس ممالك هي غزة وعسقلان واسدود وجت وعقرون وفيما بعد اللد وصقلغ. ويذكر البعض كذلك أن اسم فلسطين أو

فلستيا ورد في وثيقة مصرية رسمية يعود تاريخها إلى حوالي عام ٧٥٠ ق. م كما ورد في كتابات الجغرافيين الكلاسيكيين باسم **Palestina**.

ويبدو أن هذا الاسم استقر في أواسط القرن الرابع الميلادي إلا أن المناطق التي كان يدل عليها هذا الاسم اختلفت باختلاف العصور اللاحقة ففي حين كانت فلسطين في العصرين الروماني والبيزنطي (مع اختلاف بسيط) تقسم إلى ثلاثة مناطق هي فلسطين الأولى وفلسطين الثانية وفلسطين الثالثة أصبحت هذه المناطق في مطلع العهد العربي الاسلامي تقسم إلى قسمين يسمى كل منهما جنداً وهما جند فلسطين وجند الأردن، ويشمل الأول فلسطين الأولى والثانية وكان مركزه اللد إلى أن جاء سليمان بن عبد الملك فجعل مركزه الرملة أما جند الأردن فشمل سهل مرج بن عامر وشمال الغور وسهل عكا وجعل مركزه طبريا، ولم يركز الجغرافيون العرب لاحقاً على هذه التسمية لاهتمامهم بالمدن والأقاليم المرتبطة بالعمران والخراج. ومع هذا نجد بعض الاشارات لدى بعض الجغرافيين العرب حول التسمية، فيذكر ياقوت في معجم البلدان حول ذلك «إنما سميت فلسطين بفليشين بن كسلوحيم من بني يافث بن نوح...» ويقول عبد الرحمن الزجّاجي النحوي (٣٣٩ هـ / ٩٤٩م) «سميت بفلسطين بن كلتوم من ولد فلان بن نوح»، وبعد نحو ثلاثمائة سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م يأتي عبد الواحد بن إبراهيم الفقيه ويقول «سميت بفلسطين بن كسلوحيم بن صدقيا بن كنعان بن حام بن نوح». أما مجير الدين الحنبلي المتوفى عام ٩٢٧هـ / ١٥٢٦م فيذكر في كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل «وسميت بذلك لأن أول من نزلها فلسطين بن كيسوجين بن يقطين بن يونان بن باخشين بن نوح». كما أشير إلى فلسطين في بعض الكتب التاريخية بأرض الحثيين. وعندما قسم العثمانيون بلاد الشام إلى ايالات صارت فلسطين تابعة إلى ولاية عكا تارة، وتارة أخرى إلى دمشق أو غزة أو نابلس، وبعد تنظيم الولايات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت فلسطين إدارياً تقسم إلى قسمين: الأول متصرفية القدس

وتشمل تقريباً النصف الجنوبي من البلاد. أما القسم الثاني فقد وزع بين متصرفيتي نابلس وعكا اللتان كانتا تتبعان ولاية بيروت. وبعد الحرب العالمية الأولى جعلت فلسطين بحدودها الحالية لتتفق مع صك الانتداب البريطاني ومع سياسات الدول الكبرى آنذاك.

بعد هذه المقدمة حول الموقع الجغرافي والاسم، نعود إلى الحديث عن ظهور الحضارات فوق الأرض الفلسطينية منذ استيطان الانسان فوقها، إذ تذكر بعض المراجع التاريخية أن الانسان استوطن بفلسطين منذ نصف مليون سنة تقريباً وتاريخه فيها يعتبر أكثر غنى من تاريخه بالمناطق الأخرى في الشرق العربي ذلك لأن فلسطين بلاد صغيرة وهي بمثابة الجسر بين آسيا وأفريقيا فقد جاء الناس إليها من الشمال والجنوب ومن كل الجهات وسكنوا الكهوف وشواطىء الأنهار والبحيرات التي كانت كثيرة لأن المنطقة كانت أكثر مطراً مما هي عليه الآن، وترجع أقدم بقايا الهياكل العظيمة البشرية في الشرق الأدنى إلى كهفين من كهوف جبل الكرمل بفلسطين وهما كهف الطابون وكهف السخول، هذا ما أكدته تنقيبات الانسة جارد، وتنقيبات ريتة نوفيل في كهف يقع إلى الجنوب من الناصرة في جبل القفزة، وكذلك في مغارة الزطية في شمال غرب بحيرة طبرية، وتشكل هذه الاكتشافات حدثاً بالغ الأهمية في تاريخ الشرق الأدنى، ويقدر العلماء أنها تعود إلى فترة ما قبل مائة ألف سنة ونيف، ومما يلفت النظر في هذه الهياكل خاصة تلك التي عثر عليها في جبل الكرمل أنها تحمل صفات تشريحية تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة لدى الانسان الحديث، وإلى جانب هذا الانسان عاش الغزال والضبع المرقط والدب والجمل وخنزير النهر والوعل وفرس النهر والكركدن. وفي مغارة الأميره قرب بحيرة طبرية عثر على بقايا تعود إلى الدور الأخير من العصر الحجري القديم، واكتشف ما يماثلها في كهوف انطلياس ونهر الكلب بلبنان، وفي مغارة الطابون شكل ١) اكتشفت بعض قطع الفحم في الطبقات الدنيا التي تعود إلى نهاية الدور الأول للعصر الحجري القديم أي قبل نحو ١٥٠,٠٠٠

سنة، واكتشف كذلك في مغارة الوادي قرب الطرف الغربي لجبل الكرمل قطع أخرى متفحمة تعود إلى أشجار السنديان والطرفاء والزيتون والكرمة. ويعيد بعض الباحثين إلى انسان فلسطين الأول هذا فضل اختراع النار الذي بفضله بدأ انقلاب من أعظم الانقلابات في تاريخ البشرية ومسيرتها في طريق التقدم حيث بفضل هذه النار أعد الانسان طعامه ووقى نفسه من البرد وجعلها وسيلة لصيد طرائده (شكل ٢)

وتميز العصر الحجري الوسيط بعدة ميزات بفلسطين منها أن انسان فلسطين طور صناعة صقل الصوان والبازلت والمعدات والأسلحة الحجرية حيث أصبحت أكثر فاعلية مما كانت عليه سابقاتها، ومنها أنه أصبح قادراً على استغلال موارد محيطة لدرجة تستحق الاعجاب وتعرف هذه المرحلة بالمرحلة النطوفية نسبة إلى وادي النطوف الواقع في الشمال الغربي من مدينة القدس، فقد عثرت الآنسة جارد عام ١٩٢٨ في كهف الشقبة على بقايا تلك الحضارة، وفيما بعد عثر عليها في مغارة الواد وغيرها من المواقع، ويمكن القول إن هذه الحضارة بدأت أولاً بفلسطين في أوائل العصر الحجري الوسيط ودامت حتى الألف السادس وانتقلت من فلسطين إلى شمالي مصر وإلى شمالي سوريا والفرات الأوسط.

يتحدث جاك كوفان في كتابه الذي عربه قاسم طوير تحت عنوان الوحدة الحضارية في بلاد الشام في الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد أن الحضارة النطوفية حضارة فلسطينية بحتة لأن القسم الأعظم من خصائصها يظهر في الشواهد المكتشفة بفلسطين خاصة في كهوف وملاجيء وادي النطوف المار ذكره، ومع أن هذه الحضارة كان لها مميزات اقليمية في البدء إلا أنها أخذت تكتسب مميزات جديدة في مواطنها الجديدة في حوض الفرات وشمال وادي النيل وتظهر الخصائص الرئيسة لتلك الحضارة في وجود الأدوات ذات الأشكال الهندسية وفي هيمنة الشظايا الصوانية مثل النصال المحدب

والمنقاش الدقيق ونصال المناجل والمكاشط والمخارز والمثاقب المسننة (شكل ٣).

لقد كان العصر النطوفي بحق بمثابة ثورة حقيقية في الحياة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية بفلسطين حيث تم في هذا العصر انتقال الانسان من الكهف إلى العراء حيث الهواء الطلق، وقد اكتشفت بعض المواطن الجديدة التي تعود إلى العصر النطوفي بفلسطين في عين الملاحة حيث ظهر فيها قرابة عشرين كوخاً مستديراً وقد بلغت مساحة الموقع نحو ألفي متر مربع، كما عثر عليها في موقع رأس زين بالنقب على مساحة تقرب من تسعمائة متر مربع وقد أمكن التعرف على خمسة أكواخ بيضوية الشكل نتيجة للتنقيبات الأثرية التي جرت في هذا الموقع، وعثر عليها أيضاً في موقع ثالث هو رأس حريسة بالنقب تبلغ مساحته نحو ثلاثة آلاف متر مربع إلا أن التنقيبات الأثرية هناك أظهرت فقط بيتين لا غير، هذا وقد تم التعرف في الآونة الأخيرة على مواقع جديدة للحضارة النطوفية خارج فلسطين في موقعي أبو هريرة والمريبط بسوريا.

دجّن الانسان في هذا الدور الحيوان، فقد اكتشفت في وادي مغارة الواد جمجمة كلب، وهناك أدلة على تدجين الماشية وغيرها وهذا يدل على أن الانسان بفلسطين أخذ يسير نحو الحياة المتمدنة. كما اكتشفت أشكال نذرية (دمى) من الطين تمثل حيوانات داجنة كالبقر والماعز والغنم والخنازير في معبد في أريحا يعود إلى أواخر الألف السادس قبل الميلاد.

وتدلي المناجل الصوانية التي خلفها النطوفيون بكميات كبيرة على أنهم أول من مارس شكلاً من أشكال الزراعة في الشرق الأدنى وهكذا أصبح جامع الغذاء منتجاً له وليس هناك ما يشير إلى ممارسة الزراعة قبل ذلك (شكل ٤) .

لا شك أن العصر النطوفي بفلسطين شهد انتقال الانسان البدائي من الكهف إلى العراء كما أسلفنا، وبالتالي شهد تأسيس القرية، وكان هذا أوّل

حدث في التاريخ العمراني بالشرق كله وربما في العالم كله، ولقد ساعد على ذلك تطور الزراعة التي تتطلب الاستقرار فأخذ بهجر الملاجيء والكهوف الصخرية تدريجياً، وظهرت ملكية الأرض والحياة الاجتماعية، وفي أريحا الفلسطينية عثر على أقدم مساكن بدائية في أقدم الطبقات السكنية التي ترجع إلى نحو خمسة آلاف عام قبل الميلاد وربما كان لاريحا هذه أقدم تاريخ متواصل من أي مدينة في العالم.

يعتقد عالم الآثار غارستانغ الذي نقب في اريحا أن الفخار اخترع في هذه المدينة صاحبة التاريخ العمراني الموغل في القدم. ومن صناعة الفخار انتقل الانسان بفلسطين إلى صناعة الأواني المعدنية فقد عرف الانسان أول ما عرف النحاس واستعمله في صناعة أدواته على نطاق ضيق وعليه فإن الأواني النحاسية والأواني الحجرية تعايشتا ومن هنا جاءت تسمية هذا الدور بالعصر الحجري النحاسي وقد عثر على مخلفات هذه الحضارة النحاسية الحجرية بكثرة في تليلات الغسول التي اكتشفت فيها أقدم الأدوات المعدنية التي اكتشفت في فلسطين ومما ساعد على استخدام النحاس على نطاق واسع بفلسطين هو اكتشاف خاماته جنوبي البحر الميت وشرقيه. وقد أدت معرفة صناعة الفخار والنحاس بفلسطين منذ آواخر العصر الحجري النحاسي إلى ظهور حرف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن فقد ازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت وبدأت التجارة تأخذ شكلها العالمي وبذلك توسعت الاتصالات التجارية والثقافية بين فلسطين وجاراتها (شكل ٥ و شكل ٦).

وفي منتصف الألف الثالث جاءت الموجات العربية القديمة من شبه الجزيرة العربية لتستقر في فلسطين وبلاد الشام الأخرى فجاء العموريون وبعدهم الكنعانيون الذين أعطوا البلاد اسم بلاد كنعان فأقاموا المؤسسات السياسية (دويلات المدن) ولكنهم لم يتمكنوا من إقامة دولة «وحدة» ولا نعرف سبب ذلك، ولكننا نجد وحدة هذه الشعوب في ديانتها وثقافتها ولغتها. وما أن حل

الألف الثاني حتى أصبحت فلسطين تعج بدويلات المدن المحصنة بالأسوار والأبراج والخنادق وغيرها وحل السلم والسلام في فلسطين فتطورت الزراعة والصناعة و لم يعكر صفو هذا الهدوء إلا الشعوب الغازية، فقد جاء الفلستين من الغرب وجاء العبرانيون من الجنوب والشرق. وتؤكد المكتشفات الأثرية تطور صناعة الفخار بعد اختراع دولاب الخزّاق وتجاوز التقاليد الصناعية المحلية إلى ادخال التقاليد والتقنيات الجديدة التي نقلها سكان فلسطين من بلاد ما بين النهرين وبلاد اليونان، كما عرفوا طريقة مزج المعادن ليستخلصوا منها معادن جديدة كمزج القصدير مع النحاس لصنع البرونز كما عرفوا صناعة السكاكين ورؤوس الحراب والفؤوس الحربية والمخارز والملاقط بواسطة القوالب الطينية.

أطمع هذا الثراء والتقدم الحضاري الشعوب المغامرة التي تسعى للاستفادة مما أنجزه الآخرون فجاء الهكسوس والخابيروو أخيراً في نهاية الألف الثاني جاءت شعوب البحر والقبائل العبريه البدوية من الشرق والجنوب التي أشرنا إليها سابقاً. وتتحدث الكتب التاريخية أن الفلستر (الفلستين) جاؤوا يحملون حضارتهم واستقروا في النهاية في السهل الذي حمل اسمهم سهل «فلستيا» وأسسوا المدن وانتشرت مخلفاتهم الحضارية في سائر مدن فلسطين ولكن هؤلاء مع الزمن اندمجوا في السكان المحليين. أما القبائل الاسرائيلية البدوية فجاءت لا تحمل أية حضارة وعاشت على هامش المدن الكنعانية فأخذت حضارتها ولغتها وتؤيد المكتشفات الأثرية هذا الأمر ومع الزمن قويت شوكتها ورأت بعض القوى الكبرى المتنافسة على امتلاك فلسطين آنذاك، والاستفادة منها فحمتها ومكنتها من إقامة تجمعات لها سخرتها في خدمة أغراضها و لم يتمكن الاسرائيلون القدماء من إقامة تجمعاتهم ذات الطابع الديني العنصري إلا بعد ضعف الفلستين ومع ذلك سرعان ما انقسموا على أنفسهم وتحاربوا فذهبت ريحهم بعد أن ضلّوا سواء السبيل على حد تعبير أنبيائهم.

لم تكن لهؤلاء العبريين حضارة، كما أسلفنا، فقد استعاروا من الكنعانين سكان البلاد، الزراعة واقتبسوا الطقوس والمشاهد والمراسم المرتبطة بالخصب والانصاب وعبادة الحية والعجل الذهبي والأضاحي، حتى أن رقصة داوود أمام تابوت العهد كانت رقصة كنعانية. وفي مجال الفن أخذ العبريون الفن والعمارة من الكنعانين حتى أن الهيكل المعروف بهيكل سليمان وهو البناء الأثري الديني الوحيد عند العبرانيين القدماء شاده معماريون صوريون وخطط وفقاً لمعبد كنعاني وكانت زخرفته أيضاً كنعانية، كما أن القصر المعروف بالقصر الملكي كان من عمل البتائين الفنيقيين، ولما كانت طقوس الهيكل تستدعي العزف على الآلات الموسيقية كان الموسيقيون الذين يعزفون على تلك الآلات والمغنون كنعانيون حتى أنه عندما حاول داوود ومن بعده سليمان إيجاد موسيقى عبرية مقدسة لم يكن أمامهما سوى النموذج الكنعاني وقد ظلت هذه الموسيقى الكنعانية مستخدمة إلى فترات متأخرة و لم ينكر ذلك المشتغلون بالموسيقا من العبريين وكانوا يتحدثون بزهو بأن موسيقاهم ذات أصول كنعانية وتعدى ذلك إلى الآلات الموسيقية ومما يبرهن على ذلك رسم المرأة التي عثر عليه في مجدو وتلعب على العود، وإن ذلك العود كان معروفاً بفلسطين قبل أيام داوود بنحو ألفي عام.

وتجاوز التأثير الكنعاني عند العبرانيين ذلك إلى الأفكار العامة حول الحياة الدنيا والآخرة وإلى عادات الدفن واللباس والحلي والأزياء.

لعبت فلسطين دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية والسياسية إبان فترات الحكم الفارسي والهلنيستي والروماني وأخيراً الفترة البيزنطية فنضجت الأفكار وظهر البلغاء وتطورت العلوم ومن الأمثلة على ذلك مدينة غزة التي احتفظت إبان العصرين الهلنيستي والروماني بشعلتها الفكرية حيث ازدهرت فيها مدرسة البلاغة التي تأثرت بجو مدرسة الاسكندرية العلمي وكانت بين الحين والآخر تتبادل المعلمين والطلاب مع قيساريا وغيرها من مراكز العلم الأخرى. واستمر ذلك في العهد البيزنطي، كما أن جنوب فلسطين خاصة في

الفترة النبطية التي عاصرت الفترتين الهلنيستية والرومانية كانت تعج بالمراكز التجاريه، وخاصة مدينة غزة، التي أثرى أهلها ثراء فاحشاً حيث كانت غزة في تلك الفترة ميناء العرب المحبب، وقد دلت البحوث الأثرية الحديثة التي جرت في منطقة النقب على وجود مراكز بشرية نبطية متطورة جمعت بين الحياة العربية البدوية والحياة اليونانية الرومانية. كما دلت التنقيبات الأثرية في جنوب اليمن (حصن الغراب) على أن فخار فلسطين ونبيذها ومحصولاتها الأخرى كانت تصل إلى هناك كما تشير الكتابات اليمنية القديمة التي عثر عليها في معين أن تجاراً معينيين تزوجوا من فتيات غزيات من فلسطين.

حرر العرب المسلمون فلسطين على يد عمرو بن العاص، وأخذت القدس صلحاً وجاء الخليفة عمر بن الخطاب إلى القدس ليتسلمها، لقد احترم العرب المسلمون الشعائر الدينية لدى جميع أصحاب الديانات التوحيدية وأحبها قادة المسلمون وكذلك بعض خلفائهم واتخذوها دار إقامة لهم مثل الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي اتخذ من مدينة الرملة بفلسطين مسكناً له، ومع أن فلسطين عموماً والقدس خصوصاً لقيت بعض الاهمال في مطلع العهد العباسي إلا أنه عندما استتب الأمر لهم أعاروهما اهتمامهم ورمموا في عهد الخليفة الأمين قبة الصخرة المشرقة والمسجد الأقصى وغيره من المعالم الدينية وفي العصور اللاحقة شهدت مدينة القدس اهتماماً خاصاً لقدسيتها في عهد الأيوبيين والمماليك والعثمانيين فازدهرت العمارة والفنون الأخرى كما ازدهرت التجارة والزراعة.

ختاماً نقول إن فلسطين يمكن اعتبارها بحق أرض الحضارات فقد شهدت بطاحها ظهور الانسان الأول، وشهدت اختراع النار وعرفت القرية وحياة الاستقرار والعمل الجماعي واختراع الفخار والحياة المدنية والسياسية في أشكال مختلفة، ناهيك عن أنها الأرض المقدسة عند أصحاب الديانات السماوية الثلاث، وهي بذلك جمعت فضائل أرض الديانات وفضائل أرض الحضارات.

أولاً - المراجع العربية

١ ــ تاريخ فلسطين: المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، المجلد الثالث ط ط١، ١٩٨٣ الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك.

٢ ــ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين: فيليب حتي، الجزء الأول، دار الثقافة ١٩٥٨.

٣ ــ دراسات في تاريخ وآثار فلسطين: بحوث الندوة العالمية للآثار الفلسطينية تحرير: شوقي شعث ٣ مجلدات ١٩٨١ جامعة حلب.

٤ ــ جنوب بلاد الشام: محمد خير ياسين منشورات لجنة تاريخ الأردن ــ عمان، ١٩٩١.

٥ ــ قضايا عربية معاصرة: إسحق موسى الحسيني، دار القدس ١٩٧٨.

٦ ــ بلادنا فلسطين: مصطفى الدباغ، ج١، ق١، دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٢.

٧ ــ الموسوعة الفلسطينية: القسم الأول عدد من الباحثين ١٩٨٤، هيئة الموسوعة الفلسطينية.

٨ ـ المؤابيون: فان زيل ترجمة محمد خير ياسين عمان ١٩٩٠.

٩ ــ قاموس الكتاب المقدس: مجموع كنائس الشرق الأدنى بيروت ١٩٧١ تحرير: بطرس عودة وآخرون.

١٠ ـ المسكن في فلسطين وسوريا عبر العصور: شوقي شعث، مجلة الثقافة التي تصدرها أدارة الثقافة في المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، تونس ١٩٨٦.

ثانياً - المراجع الأجنبية

11 - Archaeology of palestine, penguin W.F. Albright.

12 - Archaeology of Bible land , Kathleen kaenyon G.B. 1979 4 th edition

13 - The holyland An Archaeological Guide from Earliest times to 1700.

14 - The Phillistines and their material culture 1982 Trude Dothan .

15 - The Timeless holy land, ASSADOUR AUTREASSIAN Jorusalem 1979.

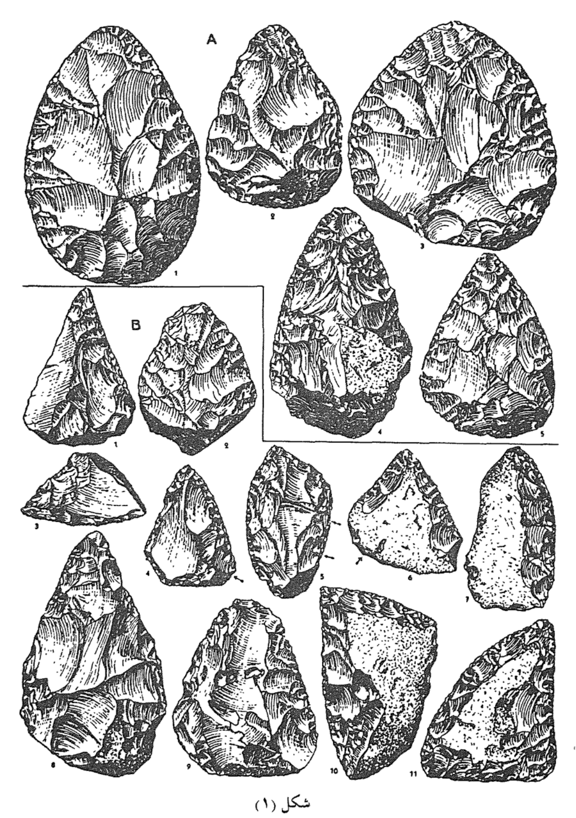
16 - From Hunter, Farmer and Trader, Jerusalem M.W PRAUSNITZ.

قائمة ببعض مواقع العصر البرونزي الباكر بفلسطين

(شكل ٧)

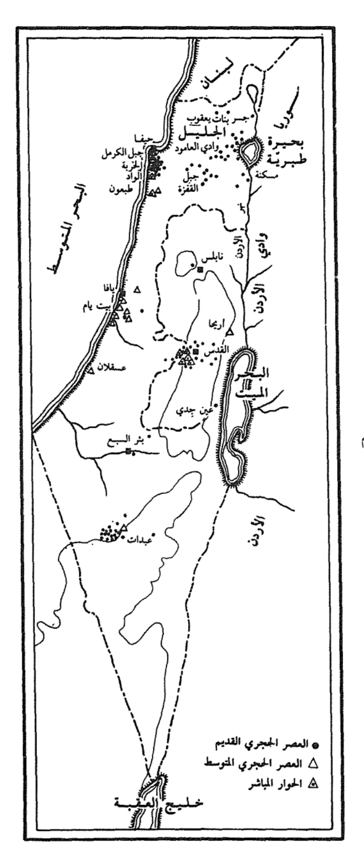
أبو السوس - تل أرطال ـ بيسان ـ خربة الكرك (بيت يراح) ـ تل الدياية ـ عين بيضة ـ تل الحمة ـ تل الحولو ـ تل حوجا ـ تل الجمعان ـ أريحا ـ تل كربس - تل عريمة ـ خربة المخروق ـ تل نمرود ـ تل رقاط ـ تل رويح ـ تل قطف - تل الشيخ دهيب ـ تبل سميد ـ تل زهرا ـ تل زان ـ خربة زوان ـ تل انفا - بيت معخا ـ تل بيت أخو ـ خربة دعا ـ تل دان ـ خربة عين زغات ـ حازور ـ جساس ـ تل نعمة ـ تل قوساب ـ تل رومان ـ تل رون ـ خربة السمان - شحف - شامير ـ شيخ محمد ـ تل أبو الزريق ـ عفولة ـ عين عراعر - عين رز ـ غبة التحتة ـ جعفات الموساد ـ جيشان ـ حنين ـ بجلو ـ عوز مدراخ - تل كشاش - تل قري ـ تل رسم ـ تل صيفان ـ تل ساريد ـ تل شام - شيخ حسن ـ تل شمرون ـ تل تعنك ـ عين يزراعيل ـ يوكنعام ـ زبوبة ـ خربة أو شقير - تل أو الزرد - عنبتا - تل عرا ـ تل البزرية ـ خربة بيت حسن ـ خربة البويضة ـ تل دوثان ـ خلت المصري (تل عيران) فهيم ـ فارعة (حفتلك) ـ تل الفارعة ـ جفعات مشعل ـ جفعات نوح جوعرة) ـ جبل الحاروفيم - جبل قيرة - الحورة ـ خربة بلام ـ خربة جرش ـ قصر محرون ـ بير الخرجة - تل المخفر ـ خربة المحنة الفوقة ـ خربة مرجمة ـ خربة الشيخ مزار ـ خربة المغارة - تل مسكة ـ نبي ياروب ـ خربة نجار ـ خربة نخل ـ تل بارور ـ قرقف ـ قبر الفارس ـ خان القط ، خان الرفيد ـ مغارة ركفيت ـ سالم ـ سيلون (شيلوح) - خربة الست ليلة ـ صورة ـ تل صوص ـ خربة التل ـ وادي البير ـ خربة وادي فارعة ـ زاوية خربة زيتة ـ أبو غوش ـ أبو مسرة ـ بير مدكور - تل أقرع - عاي - خربة بيت علام ـ تل بيت مرسم ـ بيت ساحور ـ ديو بير العسل ـ دير الدوما ـ خربة عين الفارعة ـ حزر ـ (أبو شوشة) تل جوديدة ـ الحداب ـ تل حليف ـ خربة هشام ـ خربة الكوم ـ الكرم ـ تل

الدوير (الخيش) تل محاز ــ خربة معيان ــ خربة ملول ــ تل سندهانة ــ مذبح سالم ـ تل الراس ــ خربة ردانة ــ خربة الراس ــ راس الطاحونة ــ تل الصافي ــ تل يرموث ــ أبو الدهب ــ تل كوردانة ــ بيت هاعمك ــ خربة جليل ــ تل كابري ـ كفر عطا ـ تل كيسان ــ تل حريج ــ خربة عيسى ــ جعفات ــ خربة ينون ـ تل افك ـ تل اسدود ـ مجدل عسقلان ــ برقت ــ بيت نحميا ــ بير قملة ــ تل داليت ــ نبع دور ــ عين هبسور ــ تل عيراني ــ تل جرشة ــ تل الحسي ــ جلوليا ـ جات ـ مجال ـ تل مجاديم ـ تل مقنع ــ المغارة ــ تل نجيلة ــ نسانيم ــ تل بارون ــ خربة رفعة ــ خربة الرجم ــ تل الصافي ــ قلقيلية ــ تل ايبب ــ طول كرم ـ تل الطرمس ـ عراد ــ خربة عارا ــ منحطة ــ خربة سمر ــ خربة توف ــ بيرة ـ خربة الدامية ـ تل البدوية ــ جبل العين ــ كفر تافور ــ مشد ــ تل متجام ـ شيخ مزيت ـ خربة ناصر الدين ــ قرن حطين ــ خربة قسطل ــ تل قشيون ــ رأس علي ــ تل رخيش ــ خربة صفصفوت ــ تل سلموت ــ تل شبانا ــ تل ينعام ــ راس النافورة ــ شراف ــ خربة الرويسة ــ تل قادس ــ خربة نيرتين ــ خربة كركرة ــ بير السبع.

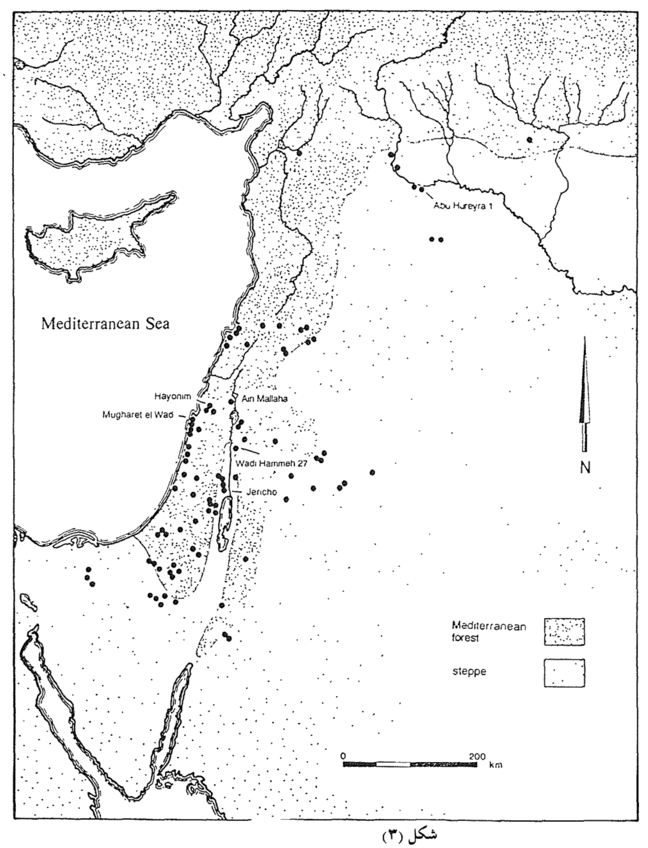


شكل (١)

أدوات حجرية مصنعة (الصناعة الأشولية) من مغارة الطابون الطبقات F و Ea، تعود هذه الأدوات للمرحلة الثانية من العصر الحجري القديم

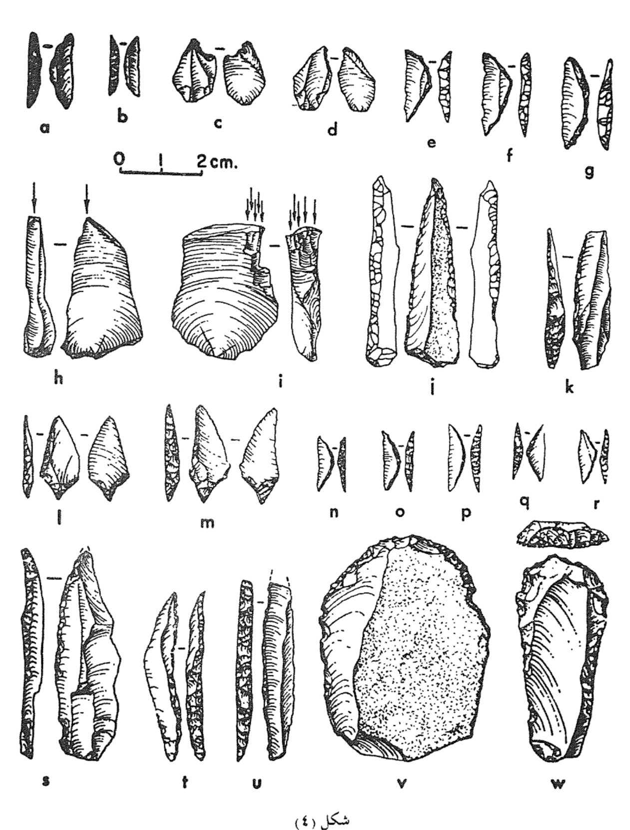


شكل (٢)
المواقع الأثرية للعصرين الحجري القديم



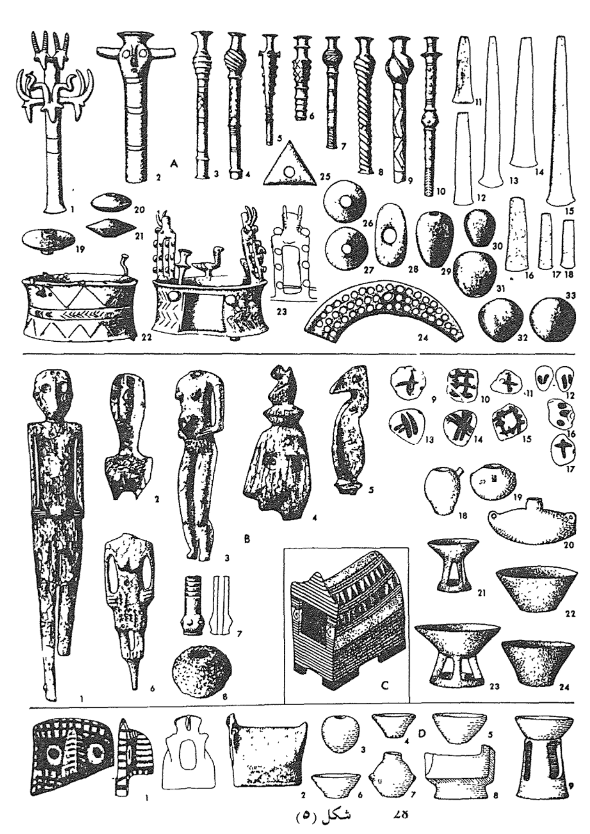
شكل (٣)

مواقع العصر الحجري القديم الأدنى (١٢٥٠٠ ـ ١٠٠٠٠) في شرق البحر المتوسط



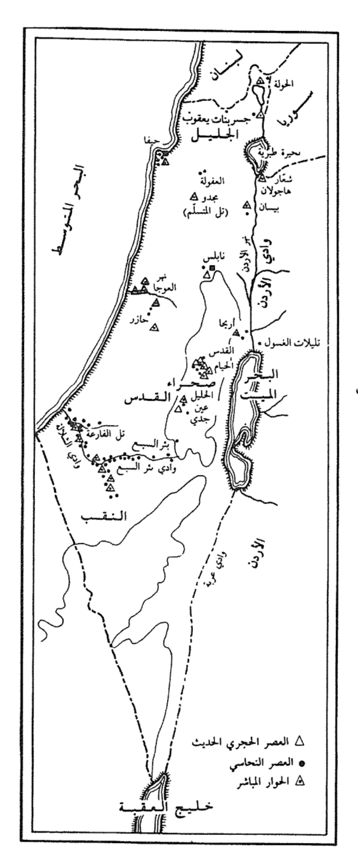
شكل (٤)

أدوات صوانية تمثل صناعة الفترة النطوفية من منطقة النقب بفلسطين



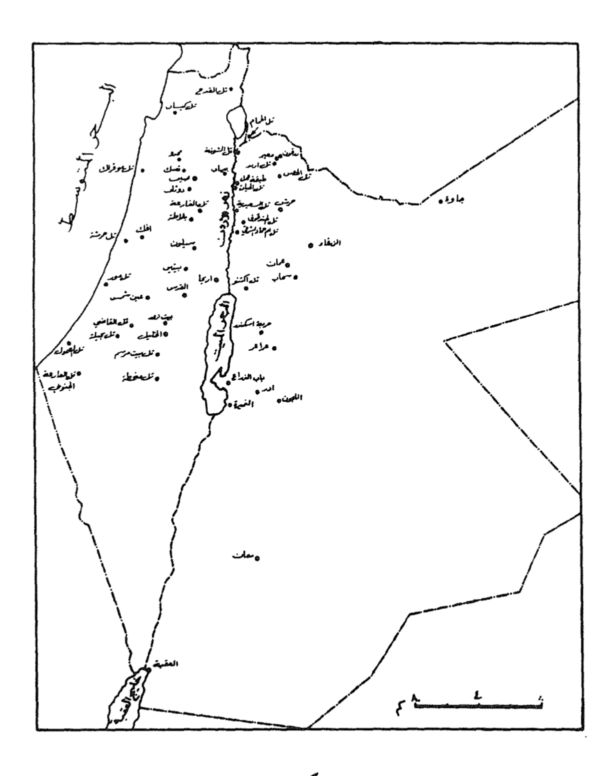
شكل (٥)   28

أدوات نحاسية وعظمية وأواني فخارية وصوانية وتماثيل ورؤوس دبسات وثقالات نسيج من مواقع متعددة في فلسطين تمثل حضارة العصر الحجري النحاسي



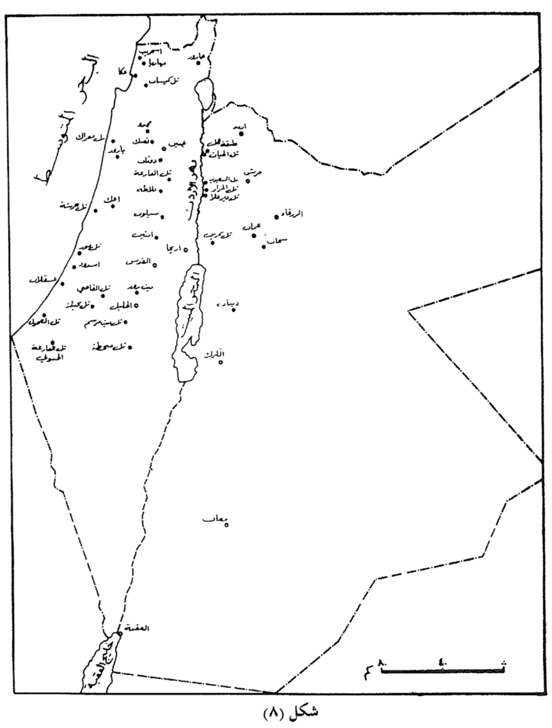
شكل (٦)

المواقع الأثرية في العصر الحجري الحديث
والعصر الحجري النحاسي بفلسطين



شكل (٧)

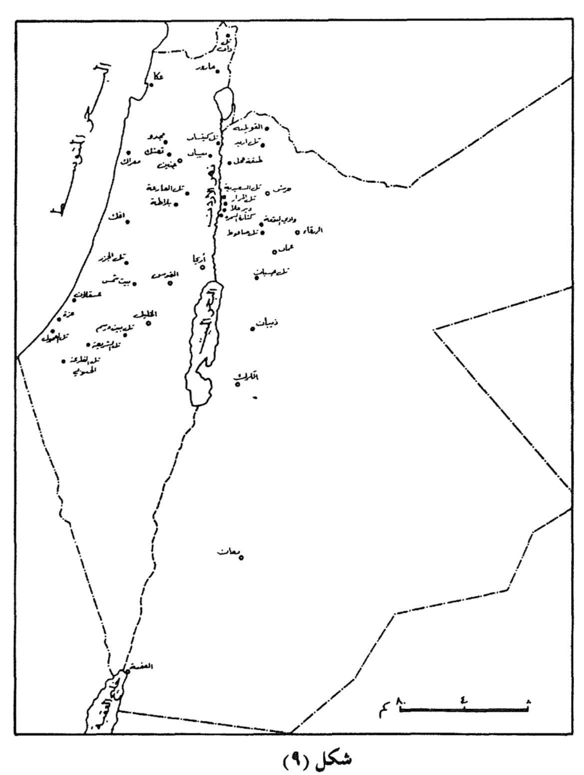
مواقع من العصر البرونزي الباكر (قائمة السماء)



شكل (٨)

مواقع من العصر البرونزي المتوسط (قائمة السماء)

شكل (٢٥)



شكل (٩)

مواقع من العصر البرونزي الحديث (قائمة السماء)

العالم العربي والحروب مع الإفرنج الصليبيين

كان المشرق العربي في القرن الحادي عشر الميلادي منقسماً على نفسه إلى عدة دويلات صغيرة، بعد ضعف الخلافة العباسية في بغداد، متناحرة، متنافرة يكيد بعضها لبعض، ونجد الأمر نفسه في مغرب العالم العربي أيضاً، ففي الشرق كان السلاجقة الأتابكة والفاطميون والاقطاعيات الأخرى، وفي المغرب كان المرابطون وجاء بعدهم الموحدون. هذا التردي في العالم العربي الاسلامي هو الذي أطمع الأفرنج الصليبين في الشرق. يقول المؤرخ الانكليزي فيشر صاحب كتاب تاريخ أوربا في العصور الوسطى «إن محاولة الافرنج الصليبين تأسيس دولة صليبية على نمط أوربي تحت سماء شرقية لافحة، لم تلق ما لقيت من التوفيق إلا بسبب ما تردت فيه القوى الاسلامية وقتذاك».

إن هذه الأوضاع السيئة لم ترق لبعض القادة المخلصين في المشرق العربي، وعلى رأسهم عماد الدين زنكي أتابك الموصل (١١٤٦م ــ ١١٢٧) فجاء ردة فعله بأخذه عام ١١٢٨ حلب وتحرير مدينة الرّها عام ١١٤٤م التي كان الافرنج قد أسسوا فيها إمارة مستقلة. مدشناً بذلك حرباً مقدسة من أجل استعادة وحدة آسيا الغربية، ضد الأمراء والحكام بالمسلمين وضد الأفريج، تابعها بعده نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والملك العادل والملك الكامل والملك الظاهر بيبرس والملك قلاوون وابنه الأشرف خليل الذي كان للأخير شرف تخليص بلاد العرب المشرقية من آخر جندي افرنجي صليبي.

بعد موت عماد الدين تابع نور الدين محمود ولده مسيرة التحرير فأخذ دمشق عام ١١٥٤م وامتد نفوذه إلى القاهرة عام ١١٦٨م، وعندما آل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبي ناصب الافرنج حرباً لم تهدأ نارها إلا بعد ظفره بهم في وقعة حطين واستردا د القدس الشريف الذي أدى إلى سقوط مملكة بيت المقدس اللاتينية، وقد كان ذلك أي انتصار حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧ م واسترداد القدس ليس انتصاراً عادياً، ولكنه كان في الواقع نهاية للنجاح، الافرنجي الصليبي في هذه البلاد وإن تأخر طردهم قرناً وبعض القرن من الزمان.

إن الدويلات الصليبية لم تكن لتعمر طويلاً في بلاد المشرف العربي لولا تفرق كلمة العرب المسلمين كما ألمحنا، و لم تكن لتعمر أيضاً إلا باهتمام الجمهوريات الايطالية الكبرى بنشر تجارتها في الشرق، فقد اشتركت أساطيل «البندقية» و«بيزا» في حصار الموانيء السورية وكذلك اشتركت في نقل الجنود الصليبين مقابل أجر، كما أنها وظفت نفسها في بعض الأحيان لخدمة المسلمين والمتاجرة معهم، وهذا ما حدا ببعض المؤرخين القول: «إن أهم النتائج التي أسفرت عن الحركة الصليبية الهائلة، التي اختلطت فيها المغامرة بالتقوى وحب الاستطلاع بالأطماع، لم يكن ازدياد معرفة الانسان بربه، بل تأسيس امبراطورية البندقية في البحر الأبيض المتوسط».

وكما كان الحال في المشرق كان الحال في المغرب، فقد ارتفعت صيحات المسلمين هنا للتمسك بأهداف الدين الحنيف والدعوة للجهاد في سبيل الله ضد الافرنج الأوربيين في الأندلس والمشرق، ونجد هذه الروح عند المرابطين ومن بعدهم الموحدين،فدولة المرابطين (١٠٥٣-١١٤٧م) كانت أصلاً دينية سلفية تطهيرية بزعامة عبد الله بن

(ياسين) وجاءت بعدهم دولة الموحدين (١١٣٠-١٢٦٩م) وهي أيضاً قامت على حركة دينية اصلاحية بدأها ابن تومرت، وكان ابن تومرت هذا قد درس في الأندلس والمشرق وساءته أحوالهما، وهذا ما حدا به أن يأخذ نفسه بدعوة التوحيد.

توسعت ممتلكات هذه الدولة في عهد، خلفه فضم مراكش والجزائر وتونس وليبيا، وأعاد جزءاً من الأندلس إلى سلطانه، ولعلها المرة الأولى التي يتوحد فيها المغرب العربي وليبيا في دولة واحده، ومما زاد في قوة الموحدين وجعلهم «قوة عالمية» الأسطول الكبير الذي كانوا يملكونه في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وهذا ما يسّر للمغرب حماية لتجارته وازدهاراً لأسفار أبنائه وأسواقاً لمصنوعاته.ومع أن المشرق العربي استطاع في النهاية أن يطرد الافرنج من بلاده نجد الممتلكات العربية الاسلامية تتراجع في الأندلس بالتوسع الاسباني وانسحاب العرب المسلمين أمامه حتى تم الخروج نهائياً عام ١٤٩٣م من الأندلس، بعد ذلك شهد المغرب قيام ثلاث دول متعاصرة هي دولة المرينيين في فاس ودلة الزيّانيين في تلمسان ودولة الحفصيين في تونس.

هذه حال المشرق العربي والمغرب العربي، انقسام ثم يقظة للتوحيد وثورة يعقبها ضعف وانحلال، ومع أن الافرنج الأوروبيين حاولوا أن يحافظوا على انقسامات العالم العربي وضعفه بالضغط المستمر عليه شرقاً وغرباً، إلا أن ذلك لم يمنع أن يقوم المشرق بنجدة /المغرب/ أو أن يقوم المغرب بنجدة المشرق، وما دمنا بالمغرب العربي فإننا سنحاول إعطاء صورة لنجدات المغرب العربي إلى المشرق ثم نتحدث عن الهجمات الصليبية على المغرب بسبب مساعدته لاخوانه في المشرق.

أخذت النجدات المغربية إلى المشرق مظهرين: مظهر شعبي وآخر رسمي، فقد حمل المغاربة عبء الجهاد زمن الحروب الصليبية على

جبهتين جبهة الأندلس وجبهة الديار المقدسة، فكان المغاربة يفدون كل عام إلى فلسطين للجهاد في سبيل تخليص القدس الشريف من أيدي الافرنج الكفار لتعود إلى أهلها، وكي تصبح طريق الحج إلى الديار المقدسة (فلسطين والحجاز) آمنة. ولهذا تميزت فترة الحروب الصليبية بظاهرة المجاهدين المغاربة وكان كثير منهم يقع بالأسر ولا يجد من يفك أسره لأنهم على حد تعبير البعض غرباء عن الديار فمن أجل ذلك ظهرت الأوقاف الخاصة بفك أسرى المسلمين المغاربة، وفي هذا يقول الرحالة ابن جبير «ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين إنما كان يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنه لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل....». وهناك حادثة تروى مفادها أن نور الدين نذر وفي مكان آخر صلاح الدين، أنه إذا شفي من مرضة أصابته أن ينفق اثني عشر ألف دينار في فك أسرى المغاربة، فلما شفي من مرضه أرسل في فدائهم، فسيق بينهم نفر ليسوا من المغاربة فكانوا من حماة فأمر بصرفهم وإخراج عنهم من المغاربة وقال: «هؤلاء يفتككهم أهلوهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم».

وقد شاركه في هذه المكرمة الطيبة تاجران دمشقيان هما: نصر الدين ابن قوام، وأبو الدر ياقوت مولى العطّافي، فغدا المرء لايكاد يجد مغربياً قد فك أسره إلا على يديهما.

وهناك صاحب أربل المعظّم مظفر الدين الذي كان يسيّر أبناءه كل عام مرتين إلى سواحل بلاد الشام وهم يحملون الأموال لفكاك الأسرى المسلمين خاصة الأسرى المغاربة من أيدي الافرنج، حيث كانوا (أي الاسري) يحضرون إلى دمشق وهي مركز العمليات الحربية آنذاك ضد الأفرنج في المشرق وهناك يكسون ويطعمون ويوسع عليهم في رزقهم، ولا ريب أن كثرة الأسرى المغاربة تدل على الأعداد الوفيره من

المجاهدين الذين كانوا يوفدون إلى المشرق العربي مجاهدين في سبيل تحرير الأرض المقدسة وتحرير المسلمين من سيطرة الافرنج المعتدين. وبالطبع لم يقتصر الفداء على المتطوعين بل تعداهم إلى المقاتلين الذين كانوا يرسلون من قبل الملوك المغاربة كنجدات لاخوانهم عرب المشرق بناء على طلب من سلاطينهم. فيحدثنا جمال الدين الشيال نقلاً عن القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى جـ٢ ص٤٩٦، ١٩٥٧ (القاهرة) أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أرسل إلى الخليفة الموحدي المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن سلطان المغرب سنة ٥٨٥هـ يستجيشه الجيوش على الافرنج أثناء قتاله معهم حول عكا حيث خاطبه بالقول «فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين وسيد العالمين»..إلى أن يصل بقوله... وكان من أوائل وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا..(يعني الموحدي) ويتابع القول إلى أن يصل قوله...«وما رأينا أهلاً لهذه العزمة إلا حضرة سيدنا آدام الله صدق صحبة الخير فيه...» «..أعز الله الاسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها فيما عليها من ظلمها وما يسكنه من حرزها فيما يبسط على الأعداء بها من بأسها وينزل بهم من رجزها وبما يجرده من سيوفها التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها».

وفي رسالة أخرى لصلاح الدين الأيوبي يوجهها لسفيره سيف الدولة عبد الرحمن بن منقذ إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ٥٨٦هـ (الروضتين جـ٢ ص١٧٠ – ص١٧١) يستنجد به فيها (أي بالملك المغربي) ويطلب منه المعاونة في إرسال قسم من أسطوله لرفع حصار الافرنج عن عكا، ويعلم صلاح الدين الملك المغربي بانتصاره العظيم في حطين على الافرنج ويعلمه كذلك بفتح القدس الشريف ويطلب منه «إذا كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسره والعدة فيها متوفرة والرجال في اللقاء فارهة وللميسر غير كارهة

فالبدار البدار..وإذا تعذر ذلك فالمساعدة تكون تارة بالرجال وتارة بالمال....».

ونجد أيضاً في هذه الرسالة أن صلاح الدين الأيوبي يطلب من سفيره المار ذكره أن يعتذر من الملك المغربي عن الأعمال التي قام بها المملوكان يوزبا وقراقوش ويقول عنهما أنهما من تفايات الرجال وهما ليسا من وجوه المماليك، وكان هذا المملوكان قد اعتديا ببعض أعمال النهب على حدود الدولة الموحدية الشرقية، وربما كان ذلك في ليبيا، حيث كانت ليبيا آنذاك من ممتلكات الموحدين كما مر معنا، ونجد في رسالة أخرى لصلاح الدين، يذكرها ابن واصل صاحب كتاب معرج القلوب يحث فيها الملك الموحدي على إرسال المدد قائلاً له إنه يتوقع أن يمد (غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين..). وبسبب دعم المغرب العربي للمشرق العربي ونجدته له ضد الافرنج الصليبين تعرض لهجمات الأساطيل الافرنجية وإلى حملات منظمة ضده، ففي عهد المنصور الموحدي تعرضت شواطىء جليقية في الأندلس الاسلامية، وكانت لا تزال عربية اسلامية لغزو أسطول صليبي مؤلف من ستين سفينة يحمل على متنه جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل من ولايات الرين الألمانية واللورين وهو في طريقة إلى المشرق وذلك بحجة زيارة قبر أحد القديسين ولكن السكان، وقد توجسوا شراً، تصدوا لهم فحدثت بين الفريقين معركة سال فيها الدم من الجانبين وأجبر الافرنج نتيجتها على التراجع والعودة إلى سفنهم. وفي نفس الوقت قام أسطول آخر من بلاد الانجليز والفلاندرز بغزوة مشتركة مع ملك البرتغال (سانشو) أو (شانجو الأول) إلى لشبونة ولكن تلك الغزوة فشلت. وكما تعرض المغرب الأقصى والأندلس العربية الاسلامية تعرض المغرب الأدنى (تونس) إلى غارات لويس التاسع الذي هزم في دمياط مصر وأسر فيها في الحملة السابعه ودفع فدية كبيرة حتى

فك أسره، فعندما سمع هذا الملك أن العرب المسلمين استردوا انطاكية بالشرق عام ١٢٦٨م ثارت ثائرته وعقد النية على قيادة حملة صليبية جديدة للانتقام مما حدث في انطاكية مجرباً حظه مرة ثانية محاولاً استرداد الأرض المقدسة عن طريق تونس، فقد أقنعه أخوه ملك الصقلتين، مملكة نابولي وجزيرة صقلية، آنذاك شارل انجو أو شارل كونت انجو بالتوجه إلى تونس بدلاً من الشام، وقد كان بنو حفص يحكمون تونس وكانوا يدفعون جزية سنوية لملوك جزيرة صقلية، ولكن عندما عين البابا أربان الرابع «شارل انجو» ملكاً على صقلية امتنع السلطان الحفصي المستنصر عن دفع تلك الجزية، ومن هنا جاء حماسه إلى الحملة التي عرفت فيما بعد بالحملة الثامنة لأنه كان يهدف إلى تأديب السلطان الحفصي من وراء تلك الحملة على حد زعمه، وقاده حقده على السلطان الحفصي إلى أن يكذب على أخيه بقوله إن سلطان الحفصيين يحب النصرانية ويتمنى اعتناقها لكنه يخاف حاشيته إلى جانب أنه قدم معلومات مضللة عن مدينة تونس بأنها مدينة اسلامية يسهل الاستيلاء عليها لخلوها من الأبراج المحصنة والقلاع المنيعة وأنها تزخر بالكنوز الثمينة مما يساعد على تخليص الأراضي المقدسة من أيدي العرب المسلمين، في حين أن سلطان الحفصيين كان مؤمناً متحمساً ودفعه حماسه إلى تقوية مملكته وتوسيع ممتلكاتها مما دفع أهل مكة عام ٦٥٧ هـ إلى ارسال بيعتهم له فاحتفل بتلاوتها في يوم مشهود ولقب نفسه بأمير المؤمنين.

وصل الملك الافرنسي بأسطوله قادماً من جزيرة سردينيا إلى سواحل تونس فحاصرها وكان ذلك الأسطول يضم ستين ألف مقاتل، وحدثت بينه وبين التوانسة العرب عدة معارك قتل فيها خلق كثير من الطرفين، و لم يستطع الافرنسيون النيل من تونس و قد استعمل العرب آلات حربية جديدة تعمل على اثارة العواصف الرملية التي عصفت

بخيام الفرنسيين وأفسدت عليهم عيشهم وقضّت مضاجعهم، ومما زاد الأمر تعقيداً تفشي الأمراض ومنها مرض الطاعون وربما الكوليرا في معسكر الفرنسيين لقذارتهم وأخذت تحصد العساكر حصداً حتى أن الطاعون وصل إلى ملكهم وقضى عليه قبل أن تكتحل عيناه بذهب تونس. وبسبب المساعدة التي قدمها السلطان الظاهر بيبرس سلطان مصر إلى المستنصر الحفصي صمدت تونس و لم يتمكن الافرنج من الاستيلاء عليها على الرغم من تمكنهم من قلعة قرطاجة القديمة، وعندما تأكدوا من عدم استطاعتهم دخول مدينة تونس فاوضوا على مبلغ من المال يدفعونه لأهل جنوة أصحاب السفن التي كانت تقلهم.

ومرة ثانية نجد تونس تتعرض للحملات الصليبية في عام ١٣٩٠ م حين قام لويس الثاني دوبوربون بحملة ضد المهدية في تونس وكانت نتيجتها فاجعة له ولجنده. و لم تكن الجزائر أو ليبيا في منأى عما حدث في المغرب أو في تونس، فقد تعرضت هي الأخرى لغارات أساطيل الأفرنج الذين نهبوا الكثير من مدنها، فنجد الحملة الصليبية التي عرفت بحملة الأطفال التي قادها فريق من الأشقياء تسير إلى مدن الجزائر ومدن شواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية وتنهبها وانتهى بهم المطاف إلى الاسكندرية حيث باعوا الأطفال هناك، وقيل إنه حينما وقع فريدريك الثاني مع الملك الكامل الهدنة التي عرفت بالمعاهدة الفردريكية الكاملية عام ١٢٢٩م والتي يقارنها بعض الباحثين المحدثين بمعاهدة كمب ديفيد المصريه الاسرائيلية كان من أحد بنودها إعطاء الحرية لأولئك الأطفال بعد أن أصبحوا شباباً وقتذاك فمنح سلطان مصر سبعمائة منهم الحرية.

بعد أن تمكن السلطان الأشرف خليل من تحرير عكا وكانت آخر معقل للافرنج بفلسطين والشرق عامة، أصبحت قبرص معقلاً من المعاقل الصليبية تنطلق منها الغارات ضد بلاد العرب المسلمين، فقد

رحب هنري الثاني ملك قبرص بالصليبيين المطرودين من البلاد العربية، كما سمح للبندقية وجنوة وبيزا ومرسيليا بانشاء و/كالات/ ومؤسسات تجارية، إلا أن المصالح التجارية لقبرص فرضت على ملكها عقد معاهدة سلمية مع آخر سلاطين الدولة المملوكية قضت بإعطائها حق المتاجرة مع مصر والشام وإرسال القناصل إلى الاسكندرية والرملة لرعاية شؤون القبارصة وتنظيم سفر الحجاج إلى بيت المقدس كما أعطت الحق للدولة المملوكية بإرسال القناصل إلى قبرص وبذلك عاد السلام بينهما.

إلا أننا نجد ملك قبرص بطرس الأول (١٣٥٩ـــ ١٣٦٩م.) ينشيء من أجل فلسطين طائفة يطلق عليها اسم «طائفة السيف» لتخليص الأراضي المقدّسة من قبضة المماليك، ودعا ملوك أوربا لمساعدته في مشروعه المتضمن غزو الديار المصرية والشامية، إلا أن الاستجابة العملية من جانب أوربا لتلك الدعوة كانت ضعيفة.

و لم تثن سلبية أوربا لدعوة بطرس ملك قبرص عن عزمه بغزو بلاد المسلمين، فمهّد لغزوته باستدعاء القبارصة من سوريا ومنعهم من المتاجرة معها. وفي عام ١٣٦٥ م خرج على رأس أسطول قبرصي ومعه أساطيل جمهوريات جنوة والبندقية ورودس في أعداد بالغة من السفن المزودة بالرجال والخيول متوجهاً إلى الاسكندرية واستولى عليها مقترفاً بذلك مذبحة شبيهة بمذبحة يوم بيت المقدس عام ١٠٩٩ التي قام بها الافرنج عند اغتصابهم القدس، وتم نهب المساجد والكنائس وأسر عدد كبير من الناس من مختلف الجنسيات وأقلع بهم عائداً إلى قبرص.

تعتبر حادثة الاسكندرية هذه محاولة صليبية للنيل من مصر المملوكية وتحطيم قوتها تمهيداً للسيطرة على العالم العربي الاسلامي في الشرق

الأدنى وبالتالي استرجاع بيت المقدس إلاّ أن هذه الحادثة أيقظت التضامن العربي الاسلامي مع مصر فأغلق العرب سبل التجارة الدولية في وجه الأوروبيين فركدت تجارتهم وأصابهم الضرر، ومن الدلائل على ذلك أنه عندما قصد بعض تجار البندقية و/جنوه/ العراق للتجارة معه كعادتهم منعهم سلطان بغداد من دخولها والاتجار بها قائلاً لهم «إرجعوا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتم في الاسكندرية وأتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته، وحينئذ تبيعون ببلدي وتبتاعون منه». تكررت بعد ذلك حوادث السطو والغزو والنهب بالثغور الشامية والمصرية من قبل الافرنج الصليبيين المنطلقين من جزيرة قبرص، إلا أن هذه الجزيرة لم تفلت من العقاب. فقام السلطان برسباي بثلاث حملات عليها في أعوام ١٤٢٤ و١٤٢٥ و ١٤٢٦م. اشتركت في الحملة الثانية منها قوات السلطان الحفصي صاحب تونس واشتركت في الحملة الثالثة القوات الشامية إلى جانب القوات المصرية حيث تمكنت القوات العربية في هذه الحملة من الاستيلاء على قبرص وأسر ملكها «جانوس الثاني» واحتفل بالقاهرة بذلك النصر بحضور رسول السلطان العثماني مراد الثاني، وأمراء التركمان، وممثلوا القبائل العربية، وشريف مكة، وسلطان تونس وغيرهم، وبقيت قبرص بيد المماليك حتى أخذها منهم العثمانيون عام ١٥١٧م. وتتشابه الأحداث التاريخية فنجد التشابه كبيراً بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية فقد اتخذت الأولى من الدين شعاراً لها في حين أنها كانت تخفي وراء ذلك الشعار أهدافاً سياسية واقتصادية، واتخذت الحركة الثانية الدين أيضاً شعاراً لها مخفية الأسباب الحقيقية وراء عدوانها، وكما حدث في الأولى استغلت الجماهير الشعبية المؤمنة لتدفع من قوتها نفقات أعمال طائشة غير واضحة الأهداف، ولتندفع متطوعة في صفوف مقاتليها تماماً، حدث في الحركة الصهيونة فالدين وأرض الميعاد والتوارة ألهبت

حماس الجماهير الشعبية اليهودية فاندفعت بعفوية لتدفع من مالها ودمها من أجل إقامة دولة إسرائيل التي ابتدعتها أفكار المغامرين الذين أرادوا دولة /على نمط أوروبي/ في الشرق لتخدم أهوائهم ولتخدم مصالح الاستعمار الحديث على حساب الشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى.

لقد كان العالم العربي الاسلامي مستهدفاً في الحالتين وتعرضت بلاده إلى الاعتداءات هنا وهناك، ومع أن العالم الاسلامي لم يكن موحداً تماماً إلا أنه ظهرت حركات توحيدية رائدة هي التي دفعت باتجاه تحرير الأرض والانسان كتلك التي قادها صلاح الدين الأيوبي. فرغم المعاهدات السلمية المعاهدة الكاملية ـ الفرد ريكية، ورغم جنوح بعض العرب المسلمين آنذاك إلى السلم والمصالحه فلم يحسم ذلك الصراع في خاتم ةالمطاف الذي استمر إلى ما يزيد عن ثلاثة قرون إلا السيف والقوة. وهكذا بدأت الحروب الصليبية بالسيف بسيطرة العالم الغربي الافرنجي الصليبي على الشرق العربي المسلم، وانتهت بالسيف باستيلاء الشرق الاسلامي على جزء هام من الغرب المسيحي، وعليه لابد أن ندرك أن ما أخذ بقوة السلاح لا يمكن أن يسترد إلا بالسلاح وهذه حقيقة تؤكدها الأحداث التاريخية.

ختاماً يمكن القول إن العالم العربي الإسلامي تعرض عبر تاريخه إلى عدوان شامل من أوربا زمن الحروب الصليبية، وعندما وقفت كل الأقطار العربية متضامنة لصد ذلك العدوان نجحت، واليوم يتعرض العالم العربي إلى عدوان شامل من الصهيونية العالمية، عدوان يأخذ عدة أشكال مدعوماً من الغرب الأوربي والولايات المتحدة الأميركية، وفي بعض الأحيان يبدو نائبا عنه، وتشير الحوادث التي حدثت مؤخراً إلى

ذلك. فاستراتيجية الصهيونية قائمة على اضعاف العرب جميعاً، أينما كانوا، لتأكدها من أن قوة المغرب العربي قوة للعرب جميعاً وقوة بغداد أو دمشق أو الرياض أو دول الخليج قوة للعرب جميعاً، فقد تعرضت دمشق وبغداد وتونس الجزائر وطرابلس الغرب وغيرها من البلدان العربية إلى اعتداءات الصهيونية العالمية وربيبتها اسرائيل كما تعرضت في الماضي إبان الحروب الصليبية والأمل يدفعنا إلى القول أنه كما نجح السلف في صد العدوان ابان الحروب الصليبية سينجح الخلف اليوم في صد العدوان الخارجي بشتى اشكاله بالقوة والوحدة هدفاً ومصيراً. فنحن بحاجة إلى وقعة تقلب الموازين وتقرر مصير العدوان، كوقعة حطين تمهد الطريق إلى تحرير القدس وطرد الصهاينة من البلاد.



المصادر والمراجع

١- ابن الأثير:الكامل في التاريخ.

٢- ابن تغرى بردى جمال الدين أبي المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٦/١٩٨٧ .

٣- ابن جبير: الرحلة (رحلة ابن جبير) دار صادر ودار بيروت /بيروت ١٩٥٩ .

٤- ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. نشره الدكتور جمال الدين الشيال ١٩٥٧ / القاهرة.

٥- أشباخ يوسف: تاريخ الأندلس في عهد الرابطين والموحدين. ترجمة عبد الله عنان القاهرة ١٩٤٠ .

٦- بوند اريفسكي: الغرب ضد العالم الاسلامي من الحملات الصليبية حتى أيامنا دار التقدم موسكو ١٩٨٥ .

٧- التميمي رفيق: الحروب الصليبية، ط١ مطبعة اللواء، القدس ١٩٤٥ .

٨- حتى فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ٢، ترجمة الدكتور كمال يازجي دار الثقافة ١٩٥٩ موسسة فرانكلين.

٩- الحموي أبو الفضال محمد بن علي بن نظيف: التاريخ المنصور تحقيق الدكتور أبو العيد دودو ومراجعة الدكتور عدنان درويش مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٠- الدباغ مصطفى: في بيت المقدس - بلادنا فلسطين، دار الطليعة بيروت ١٩٧٥ .

١١- رانسيمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ٣أجزاء، دار الثقافة بيروت.

١٢- زابوروف ميخائيل: الصليبيون، دار التقدم موسكو ١٩٨٦ .

١٣- زكار سهيل: مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس دمشق ١٩٨٤.

١٤- زيادة نقولا: الرحالة العرب، ألف كتاب، دار الهلال ١٩٥٦ .

١٥ـ سعداوي نظير حسان: جيش مصر في أيام صلاح الدين النهضة المصرية ط٢، ١٩٥٩ .
١٦ـ سعداوي نظير حسان: الحرب واسلام زمن العدوان الصليبي القاهرة١٩٦٧
١٧ـ سميل ر.سي: فن الحرب عند الصليبين، دار طلاس ط١٩٨٥ .
١٨ـ طرخان إبراهيم علي: مصر في عصر دول المماليك الشراكسة.
١٩ـ فيشر هـ. : تاريخ أوربا العصور الوسطى، القسم الأول عربّة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية.
٢٠ـ المقريزي تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ / ص١ القاهرة ١٩٤٣، صححه ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة.

* * * * *

الجيش العربي الإسلامي في عصر موقعة حطين ووسائل الإسناد الأخرى

مقدمة:

ورث صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية بمصر والدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة التي كانت إسميًا تابعة للخلافة العباسية في بغداد، وكان صلاح الدين أحد القادة البارزين فيها، فمن الطبيعي إذن أن تستمد الدولة الناشئة، أعني الصلاحية، نظمها العسكرية من المصدرين المشار إليهما آنفاً، إلاأن النظام العباسي النوري كان أكثر شيوعاً في جيش صلاح الدين بحكم أنه، أي صلاح الدين كان أحد أركانه، وعليه فمن المؤكد أن تنسجم التقاليد العسكرية في جيشه مع التقاليد التي شب عليها وآمن بها. وعليه فإن من أراد البحث في النظام العسكري الصلاحي أي الجيش العربي في عصر موقعة حطين لا غنى له عن مراجعة النظم العسكرية في الجيش الفاطمي والدولة الزنكية والسلجوقية والعباسية.

لم يكن الجيش النوري الذي كان يقوده أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين والذي قدم به إلى مصر، وهو الجيش الذي آلت قيادته إلى صلاح الدين، لم يكن يزيد عدده عن ثمانية آلاف رجل، وعندما أصبح صلاح الدين بعد موت عمه وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي،عاد قسم من تلك القوة إلى بلاد الشام نظراً لأنه لم تعد الحاجة إليه قائمة بعد أن أصبح بإمكانه استعمال جنود الدولة الفاطمية، و لم تبق بشكل فعلي إلا الفرقة الأسدية التي حملت اسم أسد الدين شيركوه، والتي لم يكن يتجاوز عدد أفرادها الخمسمائة رجل ولكن صلاح الدين عمد بعد

ذلك إلى تكوين فرقة جديدة سماها «الصلاحية» التي تقدر المصادر عددها بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وقد ضمت هذه الفرقة فرساناً منوعة وفرسان القبائل ويبدو أنها أصبحت نواة للجيش النظامي الصلاحي فيما بعد.

أقام صلاح الدين مؤسسة عسكرية حقيقية وسهر على تنميتها باستمرار وقد كلفه ذلك الأمر نفقات باهظة ومن أجل تأمين تلك النفقات، وجه كل شيء نحو الجهاد في سبيل تحرير الأرض فتحول من أجل ذلك اقتصاد الدولة الصلاحية إلى «اقتصاد حربي» وقد ظهر ذلك جلياً في الفن والثقافة والعمارة.

العناصر المكونة للجيش الصلاحي:

كان الجيش العربي الاسلامي قبل عهد صلاح الدين يتألف من عدة عناصر من المسلمين من أهمها: العرب، الأكراد، الأتراك، والتركمان وغيرها من العناصر التي تسكن في إطار الدولة العباسية، وغالباً ما كانت هذه العناصر، التي تسكن في إطار الدولة العباسية تكون الفرق العسكرية في الجيش الاسلامي، وحيث أنه لم يكن آنذاك نظام للخدمة العسكرية المتعارف عليه لدى الدول الحديثة فإنه كان يتوجب على الولاية أن تقدم الفرق العسكرية المؤلفة للجيش وفي بادىء الأمر كان أمير الولاية هو قائد الجند الذين يجمعهم من ولايته، إلا أن ذلك لم يكن عملياً وقد أثبتت التجربة وهن ذلك الجيش فكان في واقع الأمر عبارة عن تحالف من عدة أمراء لا سلطان للسلطان عليهم وكانوا كثيراً ما يقتتلون حول اقتسام الغنائم إلا أن هذه الحال تغيرت بعد عام ١١٢٨ م بوصول الاتابك عماد الدين زنكي إلى مسرح الأحداث الذي حاول أن يسيطر على مقدرات الجيش ويجعل قيادته مركزية، إلا أن هذه

السلطة المركزية أخذت بالتراجع بعد موت نور الدين بن عماد الدين، وفي عهد صلاح الدين عاد الأمر إلى الانتعاش ولكن بأسلوب آخر فنما الجيش وكثر عدده، فكان هناك جيش مصري وآخر سوري ومن أهم فرقه فرقة حلب، ففي خلال عامي ١١٨٢ و ١١٨٣ أصبح جيش السلطان صلاح الدين الأيوبي جيشاً قادراً متفوقاً نسبياً، وهذا ما جعله يحقق الانتصار تلو الانتصار وأهم تلك الانتصارات، انتصار حطين العظيم، ووقف بعد ذلك كالطود الشامخ في وجه الصليبيين.

كانت العناصر المكونة للجيش على نوعين: منها العناصر الدائمة وهي العناصر التي تأخذ راتباً من الدولة وتقع على عاتقها المهمات القتالية بشكل أساسي، أما النوع الثاني فكان من المتطوعين وهؤلاء كانوا يلتحقون بالجيش وقت الحرب، وكانت عائلاتهم تمنح مخصصات إما عيناً أو نقداً، وكان يطلق على هذا النوع من المتطوعة اسم «الأحداث» لحداثة دخولهم في الجيش وكان لهم رئيس يطلق عليه اسم «مقدم الأحداث» أو «رئيس الأحداث» وكان لهؤلاء أي الأحداث نفوذ كبير في المدن العربية الكبرى كدمشق وحلب وحمص، وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم «المتطوعة» في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، في العهد الصلاحي،وعلى كل حال هم فرق غير نظامية باستطاعة أفرادها العودة إلى أوطانهم متى شاؤوا، ومعظمهم من الفقهاء والصوفية وأصحاب العمائم وأبنائهم، ويقدر ابن الجوزي عدد الذين حضروا فتح بيت المقدس من المتطوعة مع صلاح الدين في الثاني من تشرين الأول ١١٨٧ بزهاء عشرة آلاف من جميع الأجناس وقد لفتت كثرة عددهم ستانلي لين بول يوم حطين، في كتابه الذي كتبه عن صلاح الدين.

- تشكيلات الجيش في عهد صلاح الدين:

تشكل الجيش العربي في عهد صلاح الدين من طوائف حملت كل طائفة منها اسم السلطان أو القائد الذي أسسها أو قادها مثل: الطائفة النورية نسبة إلى نور الدين، أو الطائفة الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه، أو الطائفة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي، وكان يسمى قادة تلك الطوائف مقدموا المماليك السلطانية، وكانت هذه الطوائف تتألف غالباً من عنصرين هامين هما:

١- الأمراء.

٢- الأجناد.

يتألف الأمراء من أربع درجات:أمراء الطبقة الأولى: وهم،أمراء المئات، مقدموا الآلوف وعدة كل واحد منهم مئة فارس وعددهم عشرون مقدماً، ورتبة «أمير مائة» رتبة حربية خاصة بأرباب السيوف.

- *أمراء الطبقة الثانية:* وهم أمراء الأربعين ويسمون أحياناً أمراء الطبلخانة لاحقيتهم في دق الطبول على أبوابهم، عدة كل منهم أربعون فارساً وينقص عددهم ويزيد تبعاً للظروف أو الحاجة.

- *أمراء الطبقة الثالثة:* وهم أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فرسان وعددهم غير محدد ويؤخذون من صغار الولاة.

- *أمراء الطبقة الرابعة:* وهم أمراء الخمسات وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين ويعتبرون من أكابر الجند وعددهم غير محدود.

٢- الأجناد ويتألفون من:

- المماليك السلطانية: وهم أعظم الأجناد شأناً ومنزلة عند السلطان وأوفرهم اقطاعاً يعين عددهم تبعاً للحاجة، أغلب هؤلاء من الترك والكرد والشركس.

أجناد الحلقة: وهم أخلاط كان لكل أربعين عنصراً منهم مقدم منهم لا يحكم عليهم إلا إذا خرجوا للقتال.

وإلى جانب العسكر والجند والمتطوعة هناك فرقة النشابين الذين يرمون النشاب، والنفاطين الذين يرمون النفط لاحراق حصون الأعداء والمنجنيقيين رماة المنجنيق، والعيارين وهم رماة الحجارة وكانوا يملؤون مخالي الخيل بها، وهناك أتباع العسكر أو الأوباش ويسمون سوقه أو حواش.

أسلحة الجيش:

كانت أسلحة جيش صلاح الدين لا تختلف كثيراً عن أسلحة الجيوش الاسلامية المعاصرة أو جيوش الصليبين المعاصرة فكانت تتألف من الرماح والسيوف والتروس والسهام والفؤوس، وكان الجند يلبسون الخوذ والدروع، إضافة إلى ذلك كان الجند الذين يستعملون النفط يلبسون لباساً خاصاً، والمنجنيقات والمقاليع وغيرها من أسلحة العصر، ومن الأسلحة الهامة أيضاً كانت الدبابات التي تقوم بثقب الأسوار والأبراج وعلى وجه العموم يمكن القول أن عهد صلاح الدين شهد تطوراً كبيراً في جميع الميادين خاصة ميدان العلوم العسكرية ومنها فنون القتال فقد جرى تحسين وتطوير الأسلحة خاصة الأسلحة النارية وتم رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية.

وكان الفرسان في الجيش الصلاحي متسلحون بالدروع والسيوف والرماح في حين كان الرجالة (المشاة) يتسلحون بالدروع والحراب والأقواس والسهام.

وكان لباس الجيش الصلاحي يختلف باختلاف الفرق والأسلحة فجنود المماليك السلطانية وجنود الحلقة كانوا يلبسون على رؤوسهم الطواقي الصفراء دون عمامة كما كانوا يلبسون على أبدنهم أقبية بيضاء، ضيقة الأكمام من القطن البعلبكي، وفي بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء ويشدون على أوساطهم أحزمة من القطن، ونظراً لأن

الفرقة المعروفة بفرقة الأجانب كانت تأخذ رواتب عالية كان لباسها أجمل وأفخم لباس.

قيادة الجيش الصلاحي:

كانت القيادة في الجيش العربي في عهد صلاح الدين له دون منازع فهو القائد الاستراتيجي الناجح وهو القائد الفذ الذي حقق الانتصار تلو الانتصار على الافرنج فكانت شخصية صلاح الدين ونجاحاته الحربية هي التي أعطت له الوزن العسكري في أعين القادة الآخرين خاصة أمراء الاقطاعات والجند.

كان يعاون صلاح الدين مجلس يسمى «المجلس الحربي» ويضم في عضويته الملك العادل أبو بكر أخي صلاح الدين وأولاد صلاح الدين وأولاد عمه والرفاق القدامى والأتباع الجدد والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وبهاء الدين بن شداد، وكان لهؤلاء الأعضاء حق إبداء الرأي بكل صراحة ولكن لم يحصل أن تجاوز أحد الأعضاء حدوده في حضرة السلطان صلاح الدين.

كان المجلس ينعقد بدعوة من صلاح الدين كلما دعت الضرورة، كأن تحدث أحداث حسام كتلك التي أوجبت اجتماعة لمناقشة وضع مدينة صور التي كانت يحتلها الافرنج بعد أن استعصت على صلاح الدين وقد قال صلاح الدين فيها «هذا بلد حصين، ثلاثة أرباعه في البحر، ومن أحكام العزم تكميل الآلات وتركيب الأبراج والدبابات واستحضار كل ما يراد للحصار».

وعند حصار الافرنج لعكا دعى صلاح الدين المجلس الحربي للاجتماع واستهل الاجتماع (رمضان ٥٨٥/١٢ تشرين أول ١١٨٩) «بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا أن عدو الله

وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطىء أرض الإسلام وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليست وراءنا نجدة ننتظرها، سوى الملك العادل، وهو واصل، والرأي عندي مناجزة العدو قبل أن يفتح البحر فليخبرنا كل منكم بما عنده»، وقد انقسم أعضاء المجلس الحربي بهذا الخصوص فمنهم من كان يرى رأي السلطان بالاستمرار بالقتال ومنهم من رأى غير ذلك وبعد المناقشة المستفيضة وتقليب الأمر على وجوه عدة أخذ برأي المعارضين، فتأثر السلطان تأثراً بالغاً وأصابته حمى على حد قول ابن شداد وأثبتت الأيام فيما بعد صحة رأي السلطان، فضاعت عكا في النهاية بعد حصار عامين كاملين.

وفي مرة أخرى نجد المعارضة تتكرر للسلطان صلاح الدين في المجلس الحربي عندما قال بعض أعضاء المجلس بتخريب مدينة عسقلان حيث صعب الدفاع عنها وكان يتطلب حامية كبيرة وجهداً فائقاً ورغم أن السلطان صلاح الدين في اجتماع المجلس الحربي، في ١٠ سبتمر عام ١١٩١، عارض ذلك وقبّحه وطلب من بعض الأمراء التحصن فيها والدفاع عنها، إلا أنهم امتنعوا خوفاً من تمثيل الافرنج بأهل المدينة وحاميتها عند سقوطها، كما فعلوا في عكا، وقال المعارضون للسطان «إذا أردت حفظها فأدخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا». فرضخ السلطان الرأي المعارضين القائلين بتخريب المدينة وخربت حتى لا يستفيد العدو الافرنجي منها، ولكنه حزن حزناً شديداً وعبر عن ذلك بقوله للقاضي ابن شداد «وا لله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أهدم حجراً واحداً منها».

ومع أن حوادث المعارضة تكررت في المجلس الحربي للسلطان، إلا أنه كان يسمع لأعضائه ويناقشهم فرادى ومجتمعين،وكان في أغلب الأحيان يحسم الأمر لصالح القرار الملائم.

المعسكر الاسلامي في عهد صلاح الدين: (الشكل ١٠)

كانت هناك شروط أساسية لاقامة المعسكرات في عهد صلاح الدين، وكانت تلك الشروط الأساسية موجودة في المعسكرات التي سبقت عهد صلاح الدين أو التي جاءت بعده ومن أهم تلك الشروط:

١ـ سهولة الوصول إلى الماء وذلك لحاجة المعسكر للماء لسقاية الجند والبهائم وإلى الاستعمالات اليومية الأخرى.

٢ـ سهولة الحصول على الأزواد والكلأ وذلك لضمان الحصول على طعام للجند وعلف اللبهائم التي يعتمد عليها في الجيش في القتال ونقل العدد والتجهيزات الأخرى.

٣ـ سهولة الدفاع عنه إذا ما هوجم كأن يكون في موقع استراتيجي حصين.

بعد أن تنتقى البقعة التي تتوفر فيها الشروط آنفة الذكر، تقام أول ما تقام خيمة السلطان في وسط المعسكر وتعتبر بمثابة المركز في المعسكر، ثم يتحلق حوله أمراء الجيش وأهلهم والخصيان ومطابخهم وشرابهم ورباط خيل أهل النوبة. ومن أجل الترفيه عن الجند كان يضم المعسكر كل وسائل الراحة والحاجات اليومية والأنشطة التجارية والصناعية. يصف الرحالة عبد الطيف البغدادي معسكر صلاح الدين وصفاً ممتعاً بعد أن زاره عام ٥٨٧هـ /١١٩١م فيقول «كان السوق الذي في

عسكر السلطان على عكا عظيماً، ذا مساحة فسيحة فيه مئة وأربعون دكان، وعدَدْتُ عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً كل قدر تسع رأس غنم، وكنت احفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق وأظنها سبعة آلاف دكان وهي ليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مائة دكان لأن الحوائج في الأعدال الجوالقات... وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يبهر العقل، وكان في المعسكر أكثر من ألف حمام وكان أكثر ما يتولاه المغاربة...

ـ نظام العسكر الاسلامي في عهد صلاح الدين:

لم يكن يختلف نظام العسكر في عهد صلاح الدين عن سابقة على وجه العموم، فقد سبق أن أشرنا إلى أن صلاح الدين قد ورث التقاليد العسكرية التي كانت سائدة في العهدين النوري والفاطمي وسار على نهجها فنجد هناك السلطان وقد توسط العسكر وعسكر المقدمة وعسكر الميمنة وعسكر الميسرة وعسكر الساقة أو عسكر الخلف ويكون السلطان بمثابة القلب لهذه الأجنحة الأربع وينقسم كل جناح إلى ذراعين فيما عدا عسكر المؤخرة فهو يضم المطابخ والخزينة وأدوات القتال والدواليب والفائض من الخيول والمال والأسرى والجرحى.

كان لكل عسكر قائد يسمى «المقدم» فهناك مقدم الميمنة ومقدم الميسرة ومقدم الساقة وهكذا، أما القلب فكان بقيادة صلاح الدين نفسه يحيط به الأطباء والفلكيون والعلماء ورماة المزاريق والأخصاء وأمامه يقف حاملو الأعلام والموسيقيون.

وفي مجال الحرب اتبع صلاح الدين أسلوب الحرب الكلاسيكية المعاصرة، ولكن ذلك لم يمنعه من أتباع الأساليب الحربية التي تضمن له

النصر إذا رأى أن في ذلك فائدة للمسلمين، ومن تلك الأساليب «الحرب الخاطفة» فقد كان يباغب عسكر الافرنج قبل أن يستجمع قواه بعد معركة ساخنة لا يتوقع العدو أن يقوم بها. ومن أمثلة ذلك بعد انتصاره بموقعة حطين عام ١١٨٧م قام بمهاجمة عكا وصفورية وقيسارية وغزة ونابلس وحين استعصت عليه مدينة صور تركها وعاد إلى مهاجمة بيت المقدس واستولى عليها ولم يعتبر صلاح الدين الحرب الخاطفة قاعدة لا يمكن الخروج عنها فكان إذا رأى أن ذلك غير مجد تحول إلى أسلوب تكتيكي آخر.

ومن الأساليب الأخرى التي اتبعها في الحرب، سلاح الخديعة وسلاح الكمائن وهذا ما حدث في منطقة تبنين، فقد أوهم الافرنج أنه هزم ولكن في الحقيقة قادهم إلى كمين حيث قضى عليهم،ومن الكمائن المشهورة الكمين الذي نصبه للملك ريتشارد قلب الأسد عندما خرج للصيد والاحتطاب وقد كبدت هذه الكمائن العدو كثيراً من الخسائر.

ويذكر بعض المؤرخين أن نظام الكمائن نظام سلجوقي قد نقله منهم صلاح الدين والذي ساعد على تطبيقه بنجاح تضاريس بلاد الشام التي جمعت بين الأودية والجبال والهضاب.

ومن الأساليب التي كانت تسبق المعارك والحرب عند صلاح الدين أسلوب **«الاستكشاف»** فقد جرت العادة أن يقوم «اليزك» أي الطلائع بالاستطلاع وجلب الأخبار عن معسكرات العدو وكان هؤلاء، أي اليزك يتمرنون تمريناً خاصاً على الأعمال التي يكلفون بها، وقد نجح هؤلاء نجاحاً باهراً في أداء مهمتهم الاخبارية الاستطلاعية، وبناء على تقارير «اليزك» استعد صلاح الدين عسكرياً للدفاع عن

بيت المقدس، هـذا وكـانت تعهـد إلى الـيزك في بعـض الأحيـان، مهمـة مناوشـة العـدو أو استدراجه إلى كمين أو إلى معسكر اسـلامي.

وهنـاك نظـام «**التجسـس الحربي**» الـذي اسـتخدم فيـه صـلاح الديـن بعض المستأمنين الافرنـج والأسرى الافرنـج، حيث أملوه بتفـاصيل دقيقـة عـن حالـة جيوش الأعـداء المعنوية والمادية ويدخل في هـذا البـاب العيـون التي كـان يبثهـا مـن الفلاحين المسلمين بين المعسـكر الافرنجـي في صـورة باعـة متجولين للفاكهـة واللحوم والخبز وكـان رئيس هـذا الجهـاز القـاضي الفـاضل عبـد الرحيم البيساني الـذي كـان بـدوره يبلـغ السـلطان يوميـاً بمشاهداتهم، ومـن الأسـاليب الأخرى التي استعملها المسـلمون في العصـر الأيوبـي اسـتخدام **الاشـارات الضوئيـة** والنـار في عمليـة نقـل الأخبـار وابلاغهـا أو التعـارف فيمـا بينهـم، **والحمـام الزاجـل** وقـد اسـتخدمه نـور الدين قبـل صـلاح الديـن، فاسـتخدم الحمـام الزاجـل سـنة ١١٧١ حـين رتـب في كـل ثغر رجـالاً ومعهـم الحمـام بحيث إذا نـزل الافرنـج أحـد الثغـور وصـل الخبر إلى السـلطان في يومـه، فقـد حـدث عـام ١١٧٤ وهـو في بلدة فـاقوس بمصر أن ورد إليـه خبر مع الحمام الزاجل بأن الافرنـج قـد وصلـوا الاسكندرية ودميـاط فاستعد لهم وكسـرهم، وإلى جـانب الحمـام الزاجـل اسـتخدم صـلاح الديـن **الـبريد المـائي** حيث اسـتخدم أمهـر السباحين الذيـن يحملون الكتب والنفقـات والمؤن على ظهورهـم.

وكـان مـن عمـل **الطواشي** في جيش صـلاح الدين نقـل الأخبـار إلى جميع وحدات الجيش وملاحظة كـل فـرد في مكانـه وإلا تعرض للمـوت، يعاونـه في أداء مهمـة الجـاويش فضـلاً عـن المنـاداة بـالبوق ايذانـاً ببـدء المعركة أو التجمـع حـول خيمـة السـلطان، ومـن العنـاصر الـتي قدمت خدمات كبيرة لجيش صـلاح الدين، البـدو الأعـراب فقد أبلـوا بـلاء حسنـاً

في المعارك وحرب العصابات والاستطلاع والغارات الليلية والكمائن والدلالة والارشاد إلى الطرق والمسالك، إلا أن الأمر لم يخل من وجود عناصر منهم تعاونت مع الافرنج الذين أغروهم بالمال فيقول ابن جبير أنه لولا البدو ما استطاع ملك الانجليز ريتشارد، قلب الأسد، أن يتعرف على خبر قافلة التموين المصرية الذاهبة إلى بيت المقدس وينزل بها الأضرار إذ اسفرت عن أسر خمسمائة أسير من العرب المسلمين وأخذ ثلاثة آلاف جمل على حد قول أبي شامة.

ـ التوجيه والارشاد في الجيش الصلاحي:

على الرغم من أن الجيش في عهد صلاح الدين كان يتألف من أجناس شتى من العرب والمغاربة والأكراد والترك والسودانين. وعلى الرغم من أن التفاهم لم يكن قائماً بينهم إلا في حدود ضيقة، حتى أن التفاهم بينهم وبين السلطان صلاح الدين كان يتم بواسطة تراجمة في بعض الأحيان، إلا أن هناك هدفاً واحداً كانوا يرغبون في تحقيقه هو الجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض من يد الافرنج الكفار، لذلك فالحرب والاستشهاد أمر واجب ومرغوب فيه لدى العرب المسلمين في ذلك الوقت، ونجد الأمر نفسه أيضاً عند الافرنج، فقد كانت تعبئة العسكر، وبث الحماس في نفوس المقاتلين عن طريق الوعظ وترديد الآيات القرآنية التي تحض على الحرب وعدم الفرار أمر مرغوب فيه فنجد أحياناً صلاح الدين وبين يديه جماعة من القراء والصلحاء يتلون كتاب الله ويحذرون من الفرار ويذكرونهم بما أعد الله للشهداء في الجنة مستشهدين بالآيات الواردة بسورة الأنفال والأحزاب ومعظمها ضد الفرار الذي هو إحدى الكبائر الخمسة إضافة إلى ما سبق كان هناك التهليل والتكبير لتقوية الروح المعنوية والقيام بالصلاة في أوقاتها.

ـ الترفيه والترويح في الجيش الصلاحي:

حرص السلطان صلاح الدين على توفير وسائل الترفيه المسموح بها في عصره إلى الجيش في معسكراته مدخلاً بذلك السرور إلى نفوس القادة والجند، فكان مثلاً يستقبل قادة الجيش عند باب سرادقه بالاحترام والتبجيل باسطاً لهم أفخر الأبسطة والثياب مقدماً لهم أطيب اللطائف وأطيب التحف وأشهى الأطعمة وألذها ثم بعد ذلك يعرض لهم ألواناً من الرقص والغناء والضرب على المزامير والطبول والدفوف.

ـ ديوان الأسرى:

كان هناك ديوان في الدولة الصلاحية، وهو ديوان نجده قبل صلاح الدين في الدولة الاسلامية، وهو ديوان الأسرى، فكان هذا الديوان يمسك سجلات تدون فيها أسماء الأسرى من المسلمين والافرنج وطريقة فكَ أسراهم، فقد كان صلاح الدين يحرص على فكاك الأسرى المسلمين وخاصة المغاربة منهم لأنهم غرباء على أهلهم، وفي إحدى المرات مرض صلاح الدين ونذر أن شفي من مرضه لينفقن اثني عشر ألف دينار لفداء الأسرى المغاربة، وقد شاركه في هذه الصفة الطيبة تاجران دمشقيان من مياسر التجار هما: نصر الدين بن قوام وأبو الدر ياقوت، ولا يكاد مغربي تخلص من الأسر إلا على يديهما، ويقول ابن جبير في رحلته أن ظاهرة فكاك أسرى المسلمين من المغاربة قد عمت حتى لا تكاد تجد وصية تخلو من تخصيص مبلغ من المال لفداء الأسرى المغاربة لبعدهم عن بلادهم، كما مر معنا.

وكان ديوان الأسرى يبادل الأسرى الافرنج الذين عنده أو أسرهم بالأسرى المسلمين، ففي عام ١١٨٧م وهي عام التوفيقات الصلاحية قد خلص أكثر من عشرين ألف أسير، هذا إلى جانب ما كان يقوم به من جهد في شراء الأسرى المسلمين من تجار الافرنج مقابل عمولة

مناسبة لهم حيث كان الافرنج يبيعون أسرى المسلمين الذين لم يفك أسرهم.

الخدمات الطبية في الجيش الصلاحي:

تطورت الخدمات الطبية في عصر نور الدين زنكي وبالتالي في عصر صلاح الدين فنجد هناك البيمارستانات في دمشق وحلب والقاهرة والاسكندرية، وقد انشئت لمعالجة الجرحى والمرضى وجهزت بالمعدات اللازمة وزودت بالأطباء الاختصاصين ومن هذه البيمارستانات ما أمر بانشائه صلاح الدين عام ١١٨١في مصر والشام وأوقف عليها الأوقاف وجعل العلاج بها مجاناً، ويصف لنا ابن جبير إحداها بعد أن زاره بمصر في أواخر عام ١١٨٢ فقد رأى مائة من خزائن العقاقير وأنواع الأشربة وأسرة المرضى كما أمر بانشاء بيمارستان في الاسكندرية خصصه لمعالجة الغرباء وكانت كل هذه البيمارستانات تحول إلى مستشفيات عسكرية زمن الحرب لاستقبال الجرحى والمرضى من الجنود، ناهيك عن المستشفيات الميدانية العسكرية التي كانت ترافق الجيوش أثناء المعارك.

- دور المرأة العربية في عصر حطين:

لم تكن التقاليد الاجتماعية والدينية تسمح للمرأة بالظهور على مسرح العمليات الحربية، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تقوم بدورها في الجهاد والتحرير قدر استطاعتها خاصة في الخدمات الطبية في المستشفيات الميدانية، ويورد بعض المؤرخين المعاصرين أن عصمت الدين بنت معين الدين أنر أرملة السلطان نور الدين وزوجة السلطان صلاح الدين من بعده كانت تقف في مؤخرة العسكر لمداواة الجرحى وتضميد الجراح، وكذلك كانت تفعل ست الشام بنت أيوب أخت

صلاح الدين، ويقال إنها صنعت الأدوية والمعاجين والعقاقير وفرقتها على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين.

كما أن هناك من النسوة من كن يثرن حماسة الجند في القتال مثل أم علي تقية بنت أبي الفرح غيث بن عبد السلام بن محمد الارمنازي التي نظمت قصيدة حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف وأهدتها إلى الملك المظفر بن أخي صلاح الدين. على العموم يمكن القول أن المرأة العربية، في العصر الأيوبي، شاركت الرجل في كل الميادين التي كانت تسمح بها تقاليد العصر ومنها ميادين القتال.

خلاصة القول هذا هو الجيش الذي حارب به صلاح الدين، والذي به انتصر على الأعداء والذي لم يكن متفوقاً تفوقاً ظاهراً على جيش الافرنج وبه قرر مصير الهجمة الاستيطانية التي تعرض لها وطننا العربي إبان العصور الوسطى، وبهذا الجيش حقق الوحدة بين مصر وسوريا التي كانت أساساً هاماً في كسب الانتصارات، هذا إذا أضفنا إلى ذلك الاستراتجية الفذة التي تبعها صلاح الدين في حربه مع الافرنج وتكتيكه المرن الحازق.

واليوم ونحن نواجه هجمة جديدة تشبه هجمة الافرنج في عصر الحروب الصليبية وهي الهجمة الصهيونية فكلا الهجمتين رفعت شعار الدين وتحرير الأرض المقدسة ورغبت في الاستيطان فيها، من أجل استغلال عواطف الجماهير المؤمنة، وكما أنجز العرب مشروعهم القائم على طرد الافرنج من بلادهم سينجزون اليوم أومستقبلاً. ولا شك، مشروعهم في تحرير الأرض والانسان، ولعل وحدة الهدف والمصير ووضوح السبيل إلى تحقيقهما، واستراتيجية كاستراتيجية صلاح الدين وعزماً كعزمه وقومة واحدة تقوم بها الأمة العربية، تكفل كلها تخليص

البـلاد مـن خطـر الصهيونيـة الجـاثم فــوق الأرض العربيــة وتحقــق الحلــم في إعـادة الأرض إلى أهلهــا وإقامــة دولتهــم المســتقلة فــوق تــراب وطنهــم الحـرب.



بعض المصادر والمراجع التي نهل منها الباحث

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ جـ ١٠.

٢ ـ ابن تغرى بردى، النحوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة جـ٦/١٩٨٧.

٣ ـ ابن جبير، الرحلة، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٩ .

٤ ـ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدوليتين.

5 ـ ابن شداد القاضي بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

٦ـ ابن خلكـان، وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان.

٧ ـ ابن واصل القاضي جمال الدين، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ١٩٤٣.

٨ ـ ابن منقذ أسامة، الاعتبار.

٩ ـ أبو الفداء اسماعيل،المختصر.

١٠ ـ جب، صلاح الدين الأيوبي.

١١ ـ حتى فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ٢ دار الثقافة ١٩٥٩

١٢ ـ الدباغ مصطفى، في تاريخ بيت المقدس، بلادنا فلسطين دار الطليعة بيروت ١٩٧٥ .

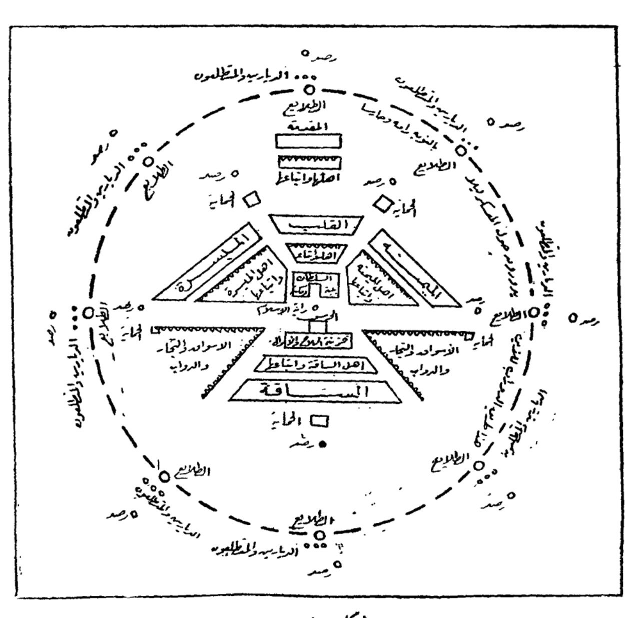
١٣ ـ رانسيمان س. تاريخ الحروب الصليبية ثلاثة أجزاء دار الثقافة ١٩٨٦.

١٤ـ زابورروف ميخائيل، الصليبيون في الشرق دار التقدم موسكو ١٩٨٦

١٥ ـ زكار سهيل، مسيرة التحرير من دمشق القدس، دمشق، ١٩٨٤.

١٦ ـ زكار سهيل، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، جزءان، دمشق ١٩٨٤.

١١ ـ سعداوي نظير حسان، جيش مصر من أيام صلاح الدين، القاهرة، ط٢ ـ ١٩٥٩
١٨ـ سعداوي، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة، ١٩٦٧ .
١٩ـالعريني السيد الباز: الشرق االعربي في العصور الوسطى (١) الأيوبيون، دار النهضة العربي.
٢٠ـالمقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك.



شكل (١٠)

المعسكر الاسلامي في عهد صلاح الدين

قلعة القدس

القلعة رمز السلطة والقوة وقد حرص الحكام في كل زمان ومكان أن تكون لهم القلاع والحصون في قواعد ملكهم يحتمون بها ويخيفون الناس بمنعتها، وأصبح المرء في الغالب لا يرى مدينة دون حصن أو قلعة، هذا ما نجده منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في كثير من ممالك المدن واستمر ذلك خلال الألف الثاني وبعده واصبحنا نجد مدناً محصنة (المدن ـ القلاع ـ المدن ـ الدول) بالاسوار والابراج والخنادق والبوابات ووسائل التحصين الاخرى. كانت القلعة أو القصر القلعة في وسط المدينة أولا وفيما بعد اتخذت الحصون والقلاع مواضع وأشكالاً متعددة حسب طبيعة موقعها الجغرافي ولكن الوظيفة بقيت في الغالب كما هي، وعموماً يمكن القول إن حالة نهوض القلاع وتطورها ارتبطت بالحالة الامنية السائدة في المحيط فإذا كان الامن مستتباً تنتفي الحاجة إلى الحصون والقلاع ووسائل الدفاع الاخرى، أما اذا كانت الحالة الامنية مضطربة تكون الاسوار والحصون والقلاع ووسائل التحصين والدفاع المتنوعة لازمة بل ضرورية.

ومن العصور التي اضطرب حبل الأمن فيها وبالتالي نمت فيها القلاع والحصون وتطورت وزيد الاهتمام بها كان عصر الحروب العربية الاسلامية الافرنجية الصليبية فقد نقل الافرنج تقاليدهم في بناء القلاع إلى المشرق ونقل العرب المسلمون تلك التقاليد وأضافوها لتقاليدهم وأصبحت لا ترى مدينة هامة من مدن المشرق العربي الاسلامي أو موقعاً استراتيجياً إلا وقامت فوقه قلعة حصينة، فكانت هناك قلاع القاهرة ودمشق وحلب و حمص وحماة والقدس والكرك والشوبك

وعتليت وحيفا ويافا والحصن والمرقب (بانياس) وبانياس الشام والصبيبة والشقيف وغيرها مما يصعب حصره هنا، وقد شهدت هذه القلاع ملاحم بطولية سطّرها العرب المسلمون في سبيل تحرير بلادهم من المغتصب والدفاع عنها من أجل وحدتها وحريتها.

وكما انتهت الحركة الصليبية الاستيطانية بالاندحار ستنتهي الحركة الصهيونية الاستيطانية وتبقى قلاع العرب لهم، وهنا في هذه المقالة القصيرة سنحصر حديثنا حول قلعة القدس الشريف وتاريخها.

تقع قلعة القدس بين باب الخليل وباب النبي داوود، وهي تقوم على نشر صخرى يشرف على القسم الغربي والجنوبي من مروج القدس (العابدي ص١١٤) وتعتبر أضخم بناء بالقدس وهي مع تحصيناتها وعناصرها الدفاعية كالأسوار والأبراج تؤلف أثراً فريداً (Assadour، p.46). ويعتقد بعض الباحثين أنه كان يقوم مكان القلعة حصن قديم تحول إلى قلعة زمن الامبراطور الروماني هادريان ثم تخرب منه شيء كثير في الحروب المتتالية ولم يقم على هيئته الحالية إلا في القرن الرابع عشر الميلادي، إلا الزاوية السفلى الشرقية فيعتقد أنها تعود إلى العصر الروماني من أعمال هادريان (الدباغ، بيت المقدس ١/ط٦١؛ الحنبلي، ص٥٥؛ العابدي ص١١٥)، كان يحيط بالقلعة خندق طمرت الآن أجزاء منه (العابدي ص١١٥) خاصة القسم الذي يمتد بين البرج الشمالي الغربي وباب الخليل، أثناء زيارة امبراطور ألمانيا غليوم الثاني لفلسطين عام ١٣٦١هـ / ١٨١٨م، كما هدم بتلك المناسبة السور الذي كان يصل الأبراج، من أجل فتح منفذ للدخول إلى المدينة القديمة، وكان يدخل إليها من الشارع العام بواسطة جسر خشبي متحرك يمتد فوق الخندق (العابدي ص١١٤).

في ذلك الوقت كبيرة وتؤيد الواقعة التي تتحدث عن اتخاذها مأوى لآلاف الافرنج أثناء حصار صلاح الدين للمدينة (جونز ١٦٤)، هجرت القلعة بعد احتلال صلاح الدين الأيوبي لها وتركت تتخرب مادام الافرنج الصليبيون موجودين بالساحل ويتحينون الفرصة لاستعادة القدس وكانت تلك سياسة صلاح الدين وخلفائه.

استعاد الافرنج مدينة القدس وقلعتها بموجب المعاهدة الكاملية الفردريكية وعندما زار الامبراطور فردريك القلعة عام ١٢٢٩م وجدها مخرّبة فأمر بإعادة تحصينها، ومرة أخرى أصبحت القلعة ملجأً للافرنج للاحتماء بها من هجمات السكان العرب المسلمين الذين لم ترق لهم المعاهدة الكاملية الفردريكية آنفة الذكر. وفي هذه المرة لم تستمر القلعة بيد الافرنج سوى مدة قصيرة بلغت العشرة أعوام حيث تمكن في عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م، الملك الناصر داوود صاحب الكرك من تحرير القلعة بعد هزيمة الافرنج في غَزّة وبعد حصار لها دام إحدى وعشرين يوماً (جونز ص١٦٦) ولكنه خربها (الحنبلي ص٥) حتى لا تسقط في يد الافرنج مرة ثانية.

وعندما آلت الأمور إلى المماليك ساروا على نفس السياسة التي كان يسير عليها الأيوبيون، فيما يتعلق بسياستهم في عدم ترميم وتحصين قلعة القدس، في حين أنهم أصلحوا وحسنوا القلاع الأخرى التي وقعت بأيديهم إلا أنه بعد زوال الخطر الافرنج عن البلاد عدلوا عن تلك السياسة حيث نجد أن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي قام بالحملة الأخيرة ضد الافرنج يأمر عام ٧١٠هـ / ١٣٧٠م بترميم قلعة القدس، ويقول كامل العسلي في كتابه «من آثارنا في بيت المقدس ص١٥٠» إن سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة امتدت من ٧٤١ ٧٠٩

، ١٣٤١ ١٣١٠م، وإن الذي قام بترميم القلعة بالقدس وتجديدها وتحصينها في عهد الملك الناصر هو الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار كافل المملكة الشريفة الشامية، وتشير إلى هذه الواقعة كتابة كانت موجودة على مدخل القلعة عام ١٣١١هـ / ١٨٩٤م وهي مفقودة الآن، ويفسر البعض أن ترميم القلعة كان بسبب المنازعات العائلية حيث رأى الملك الناصر أنه من المناسب أن تكون حامية في قلعة القدس لضمان حكم فلسطين خاصة بعد الثورة التي قام بها ضد السلطان بيبرس الثاني، وقد يعود الجزء الأعظم من أبنية القلعة إلى عصره، وتصف روايات الحجاج الأوربيون، الذي بدؤوا يتوافدون على فلسطين في منتصف القرن الرابع عشر مرة أخرى، الحالة الجيدة التي كانت عليها قلعة القدس في زمانهم، فقد ذكر الحاج الالماني بريتنباج Breitenbach عام ١٤٨٣م وصفاً للأبراج الشرقية الحالية تتطابق مع حالتها الحاضرة ونجد في رواية معاصرة يرويها الدومينيكاني فلكس فابري Felix Fabri الذي قال عن مدخل القلعة عندما زارها بناء على دعوة أحد سكان القلعة، فقد ذكر أنه عبر الجسر الخشبي الذي كان موجوداً فوق الخندق بالقرب من المدخل حيث كان يرفع وينزل بواسطة سلاسل ثم يذكر وجود بابين حديدين يؤدّيان إلى الساحة الداخلية للقلعة وإلى أعلى الأسوار والأبراج وكافة الغرف المحيطة، ونجده يتعجّب من سماكة الأسوار وجدران الأبراج القائمة عليها والتي تحيط بالقلعة.

ويخلص إلى القول أنه لا يوجد مكان أمنع وأكثر تحصيناً من القلعة في كل مدينة القدس. وفي هذا العصر أي العصر المملوكي زاد الاهتمام بالقلعة وأصبح لها نائب مستقل عن نائب المدينة وهي في ذلك تتشابه مع سائر القلاع في المدن الهامة كمدينة دمشق وحلب والقاهرة

وغيرها، ومن المرجح أن نائب السلطنة بالقدس كان يتخذ من قلعة القدس داراً للنيابة في العهد المملوكي بعد عام ٨٩٢/١٤٨٦م قبل أن يصبح للقلعة نائب مستقل، وبعد ذلك انتقل إلى المدرسة الجاولية بالمدينة وتأتي مرتبة نائب القلعة بعد نائب السلطنة، وكان في البدء يولّى من قبل نائب السلطنة بدمشق ثم عندما أصبح للقدس نائب صار هو الذي يعين نائب القلعة (الإمام ص٩٨/٩٩).

يصف مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (جـ٢، ص٥٥) قلعة القدس بقوله «حصن عظيم البناء بجهة الغرب من بيت المقدس» وفي عصر الحنبلي يذكر أنه قل اهتمام الدولة المملوكية بقلعة القدس وبالتالي بواليها فتلاشت أحوالها وتخربت وبطل دق الطبلخانة وصار نائبها مثل كل الناس بسبب انتشار الفوضى وعدم إقامة النظام (الحنبلي ص٥٥؛ الإمام ص١٠٠).

رممت القلعة وحسنت بعد الفتح العثماني لها عام (١٥١٧م)، فقد أمر السلطان العثماني سليمان القانوني بترميم القلعة واستبدال الجسر الخشبي المتحرك بجسر حجري ثابت وأقام المحراب الحجري في المسجد وذلك عام ٩٣٨هـ /١٥٣١ ١٥٣٢م، تشير إلى ذلك الكتابة العربية الموجودة على الباب الخارجي التي هي عبارة عن عدة أبيات من الشعر تذكر باسم سليمان الثاني وتأتي على القابه، عموماً يمكن القول بأن قلعة القدس أخذت شكلها الحالي في عهده. أعيد ترميم القلعة عام ١٠٦٥هـ / ١٧٣١م ثم أهملت في أواخر العصر العثماني وأصبحت مستودعاً للذخيرة. شكل (١٢)

يمكن القول في نهاية عرضنا لتاريخ القلعة أن حالتها اليوم، بوجه الاجمال في خطوطها العامة مقبولة إلا أنه لابد من إجراء بعض الترميمات في مدخلها الرئيس لجهة صيانة حجارتها وتنظيفها وصيانة الكتابة الموجودة فوقه وكذلك صيانة الأبواب المعدنية (كنوز القدس ص١٢٨).

المعالم الأثرية بالقلعة

الأسوار الأمامية:

تمتد نحو الجنوب من قاعدة البرج الشمالي الشرقي على محاذاة المدخل الرئيس وهي منفصلة عن سور القلعة في نقطتين تحملان الرقمين ٥ و ٧ على المخطط (شكل رقم(١١) (Johns p.173) بواسطة خندق ولكن المتراس مستمر من زاوية البرج الشرقي إلى متراس الحارس الذي يعلو التحصينات المائلة أمام البرج وهي محصنة من كلا جانبي الجسر.

المدخل الرئيس:

للقلعة مدخل ملتو على غرار ما هو مألوف في كثير من القلاع وهو مزدوج الالتواء عليه كتابة باسم الملك الناصر محمد يعود تاريخها إلى عام ١٣١٠ / ١٣١١م (انظر .(Johns p.173).

البرج الشمالي الشرقي: وهو يتألف من طابق واحد أقيم على قاعدة مصمتة قديمة.

المدخل الأول (الباب الخارجي):

أقيم هذا المدخل زمن السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣١ / ١٥٣٢م وهو عبارة عن مدخل بسيط ذي بابين (Twin doors) كانت عليه تحصينات دفاعية مثل فتحات السهام الشاقولية والسقاطات.

مسجد القلعة:

أنشأه السلطان الناصر بين قلاوون (٧٤١ ٧٠٩ هـ/١٣٤٠ ١٣٠٩ م) داخل القلعة الجنوبيةالغربية في عهد سلطنته الثالثة عام ٧١٠هـ/١٣١٠ م (الدباغ في بلادنا ص٢٦٦)، وتشير إلى ذلك كتابة

موجودة في المسجد، ويتألف المسجد من بيت للصلاة ذي سقف مقبب، له محراب مزين جميل الشكل يقع في جدار القبلية الجنوبي لبيت الصلاة يحيط به من الجانبين عمودان مقبيان قائمان (كنوز القدس ص١٧٢).

أعيد ترميم المسجد في مطلع العهد العثماني وأقيم المحراب الحجري الجميل الذي تحدثنا عنه أعلاه في عهد السلطان القانوني ٩٣٨هـ ١٥٣١ ١٥٣٢م أما المئذنة فقد أقيمت عام ١٠٦٥هـ/١٦٥٥ م في عهد السلطان محمد الرابع. أهمل المسجد وتوقفت فيه الصلاة في أواخر العهد العثماني وتحول إلى مستودع للذخائر والمهمات الحربية إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨) (العارف ص٣٠٦ وص٤٠٦).

مئذنة مسجد القلعة:

عندما جددت القلعة في العصر العثماني كما أسلفنا أقيمت المئذنة الدائرية، تتكون هذه المئذنة من أربعة طوابق حجرية أولها: القاعدة المربعة، ثانيها: قسم أسطواني، أما الثالث فهو أسطواني أيضاً ولكنه أقصر من سابقه، ويشكل القسم الرابع رأس المئذنة المقبب، يزين بدن المئذنة المستدير سبعة أسورة حجرية، ستة منها تشكل ثلاثة أزواج، لا تقوم اليوم المئذنة بوظيفتها (كنوز القدس ص٣٣٣).

الخندق:

يحيط الخندق بقلعة القدس من الجهات وقد جدد في عهد السلطان محمود الأول عام ١٧٣١ (العارف ص٣٠٦) وردم قسم الخندق الممتد بين البرج الشمالي الغربي وباب الخليل أثناء زيارة امبراطور ألمانيا غليوم الثاني لفلسطين عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨ م كما أشرنا سابقاً، وبهذه

المناسبة هدم جزء السور الذي كان يصل الأبراج بعضها ببعض لفتح منفذ للدخول إلى المدينة القديمة.

الكتابات:

توجد عدة كتابات تدشينية في القلعة تعود في غالبيتها إلى العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية.

الكتابات الأيوبية:

هناك كتابه من هذا العهد تعود إلى الملك المعظم عيسى، بمناسبة إقامته بعض الأبنية في القلعة مثل البرج الحربي جميل الشكل في وسط القلعة، ونص الكتابة كالآتي «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله، أم من أسس بنيانه على تقوى، نصر من الله وفتح قريب، عمل هذه البرج المبارك مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين عيسى بن الملك العادل بن يوسف بن أبي بكر بن محمد أيوب شادي خلّد الله دولته وتولى عمارته عز الدين وعمر عمارته بأرض فلسطين في شهور ستة عشر وستماية ٦١٠هـ-١٢٣١ م» (العابدي ص١١٦).

الكتابات المملوكية:

هناك عدة كتابات تدشينية تعود إلى العهد المملوكي إلا أنها مفقودة اليوم فقد كانت هناك كتابة تعود إلى السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان قلاوون بمناسبة ترميم القلعة وهي مفقودة الآن بعد أن كانت موجودة على مدخل القلعة عام ١٨٩٤م وهناك كتابه ثانيه تعود إلى نفس السلطان محمد بالمسجد الموجود في البرج الجنوبي الغربي تشير إلى تأسيس المسجد في نفس السنة أي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠-١٣١١م.

الكتابات العثمانية:

يمكن أن تكون الكتابات التي تعود إلى العصر التركي العثماني من أكثر الكتابات وجوداً وتعرف أربعة منها هي:

أولاً: كتابة موجودة على لوح حجري فوق قوس المدخل نصها «أمر بترميم الحصنة الشريفة السلطان الأعظم والخاقان المعظم مالك رقاب الأمم مستخدم أرباب السيف والقلم خادم الحرمين والبقعة الأقدسية قدس الله أرواح آبائه المقدسة منح الأمن والإيمان والأماني السلطان ابن عثمان سليمان الثاني مد الله بقاءه مادامت القبة على صخرة في سنة حصل خير ٩٣٨هـ/١٥٣١م. (العارف ص٣٠٥)

وهناك كتابة ثانية على البرج الواقع إلى يمين الداخل إلى المدينة بين باب الخليل والسور تقول «رسم بإنشاء هذا البرج من حمى ديرة الإسلام بشوكته وطوله ومحى جائرة الأصنام بوقته وحوله من خصه الله بأرقاب الملوك في الآفاق وتملك سرير الخلافة بالاستحقاق السلطان ابن السلطان ابن السلطان سليمان».

أما الكتابة الثالثة فنجدها على المئذنة التي بناها سلحدار القلعة زمن السلطان محمد الرابع (١٠٦٥هـ/١٦٥٥م) وقد كتبت هذه الكتابة بالخط المعلق وبالتركية.

صاحب خير وحسنات وسخا   مظهر إنعام ورضاي هذا
خوب حاصلات وعمل يسند   يعني سلحدار محمد باشا
حضرت داود مقاشده   ايلدي بر مأذنة خوش بنا
تاريخي منارة زيارة   بأيدي سلحدار محمد باشا

(العارف ص٣٠٥)

وتوجد كتابة رابعة في القلعة موجودة في جدار البرج القائم على يسار الداخل إلى القلعة من بابها الشرقي وقد كتبت تلك الكتابة بالخط النسخي العثماني «جدد بناء حائط هذا الخندق بعد انهدامه في خلافة سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفر والمشركين السلطان محمود بن المرحوم السلطان مصطفى خان من آل عثمان أيد الله ملكه، بعرض وأعلام من حضرة الدستور المكرم عبد الله باشا محافظ الشام وأمير الحاج الشريف، حين زار القدس، وجاء الفرمان خطابا لمتسلمه الحاج مصطفى آغا براونه زاده، فباشرها بنفسه، وأتم عمارتها، جزاه الله خيراً في شهور سنة أربعة وأربعين ومائة وألف (١٧٣١م)» (العارف ص٣٠٦)

التنقيبات الأثرية في القلعة:

بدأت أعمال التنقيب الأثري المنهجي في قلعة القدس منذ عام ١٩٣٤ بإدارة السيد جونز وبإشراف دائرة الآثار الفلسطينية، وكان الهدف من تلك التنقيبات التعرف على الطبقات السكنية في القلعة وبالتالي التعرف على التاريخ المعماري لها، وتعتبر قلعة القدس نسخة مطابقة لقلاع القاهرة أو دمشق أو حلب في كثير من الجوانب التي تعود إلى العصر المملوكي من القرن الرابع عشر، وقد أظهرت تلك التنقيبات الأثرية بقايا كثيرة من الأبنية فقد تم التعرف على عدة طبقات سكنية تعود إلى عصور أقدم من العصور الوسطى (Assadour p Johns 47،pp.46-)، إلى جانب نماذج كثيرة من الكسر الفخارية من بقايا المباني التي تعود إلى العهدين المملوكي والعثماني، أو من خزانات المياه أو الخندق، ومن بين تلك الكسر كسر من الخزف المعروف بخزف عتليت الذي يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي مستوردة من إسبانيا وإيطاليا وبقايا من الخزف الأيوبي والمملوكي والتركي والخزف المحلي،

إلى جانب بقايا من الخزف Johns p.188 pls.LXI1 and LX111 الأسلامي الباكر من العهود الأموية والعباسية مثل كسر الخزف الأبيض المزجج والترابي الصفراوي Sandy-Yellow، والبني المزجج (أواني الطبخ) (Johns p.121)خلاصة القول إنه من خلال التنقيبات الأثرية هذه تم التعرف على تاريخ القلعة وعلى الأدوار التاريخية التي مرت فيها، كما تم التعرف على الصلات الحضارية بين القدس وفلسطين من جهة وبين أقطار الوطن العربي الاخرى وأوربا Johns p.121 and . p.188.

وفي الفترة ما بين عامي ١٩٦٨ـ١٩٦٩ قامت السلطات الإسرائيلية بإجراء تنقيبات أثرية في.قلعة القدس بعد اغتصابها عام ١٩٦٧ في محاولة للعثور على شواهد أثرية تدل على وجود الإسرائيلين القدماء المزعوم جرياً على عادتهم في تبرير اغتصاب الأرض العربية.

Jerusalem Reveald (Archaeologycity) 1968-1974، pp.52-55

كما أن السلطان الإسرائيلية عاودت التنقيب في قلعة القدس المغتصبة في الفترة ما بين أعوام ١٩٧٥ـ١٩٧٨ على طول السور الغربي حيث تم اكتشاف جزء من قناة صرف يبلغ طوله ١٦ م إلى الجنوب من تحصينات القلعة الماثلة كما اكتشف جزء من هذه القناة عام ١٩٨٢ إلى الشرق من سور المدينة وبقايا من العصر الحديدي والبيزنطي.

Excavations and Surveys in Israel vol.2 (1983) p.52

هذا وفي خلال عامي ٨٣ و١٩٨٤ واصلت السلطات الأثرية الإسرائيلية أعمال التنقيب في أربعة مناطق من مناطق القلعة بحجة المساعدة على ترميم القلعة وذلك في إطار مشروع تزعم تلك السلطات أنه يهدف إلى تطويز القلعة وذلك بإشراف مديرية الآثار وبمساعدة صندوق القدس الصهيوني وسلطة تطوير القدس الشرقية

(؟!)، وقد عثر في هذه التنقيبات على بقايا من العهدين البيزنطي والعربي الإسلامي.

Excavations and Surveys in Israel 1984، vol. 3

العناصر التحصينية:

إذا أمعنا النظر في تحصينات قلعة القدس الشريف نجد أنها لا تختلف كثيراً عن العناصر التحصينية الموجودة في القلاع العربية الإسلامية المعاصرة لها، مثل قلعة القاهرة والكرك ودمشق وحلب وغيرها، فهناك الأبراج والأسوار والمداخل الملتوية والسقاطات وفتحات السهام والتحصينات المائلة والخندق والشرفات والممرات السرية وإذا أردنا عقد المقارنات مع القلاع الأخرى نجدها تقريباً على النحو المبين أدناه، وهي لاشك عناصر أثبتت فعاليتها في ذلك العصر.

العنصر التحصيني	دمشق	حلب	القدس	بصرى	شيزر
الخندق	×	×	×	×	×
التحصينات المائلة	؟!	×	×	×	×
الأسوار	×	×	×	×	×
الأبراج	×	×	×	×	×
الجسور المتحركة	×	×	×	×	×
السقاطات	×	×	×	×	×
المرامي	×	×	×	×	×
الشرفات	×	×	×	×	×
المداخل	×	×	×	×	×
الممرات السرية	×	×	×	×	×

هذه قلعة القدس عبر العصور التاريخية التي مرت على القدس وفلسطين وقد بلغت ذروة عزها وشموخها في العصوز العربية الإسلامية ووقفت صامدة في وجه كل عدوان وذهب المعتدون وبقيت تحكي تاريخها المشرف للأجيال اللاحقة وهي تقف اليوم صامدة بصمود أبنائها، وأبناؤها صامدون بصمودها، فقد علمتهم مواجهة المخاطر بعزم وقوة، وستظل قلعة القدس صامدة وفيّة بعهدها الذي قطعته على نفسها بمواصلة النضال إلى أن تحرر من رجس كل غاز معتد ودخيل وسيكون الصهاينة، بعون الله، آخر الغزاة والدخلاء.



المراجع

١ ـ الحنبلي مجير الدين: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان ١٩٧٣ .

٢ ـ الإمام رشاد: مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٦٧٦ .

٣ ـ نجم رائف وآخرون: كنوز القدس ،منظمة المدن العربية، الكويت، ١٩٨٣ .

٤ ـ عابدي محمود: الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، عمان، ١٩٧٣ .

٥ ـ الدباغ مصطفى مراد: بلادنا فلسطين (بيت المقدس)، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٥ .

٦ ـ العارف عارف: المفصل في تاريخ القدس، القدس، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

٧ ـ العسلي كامل: من آثارنا في بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢ .

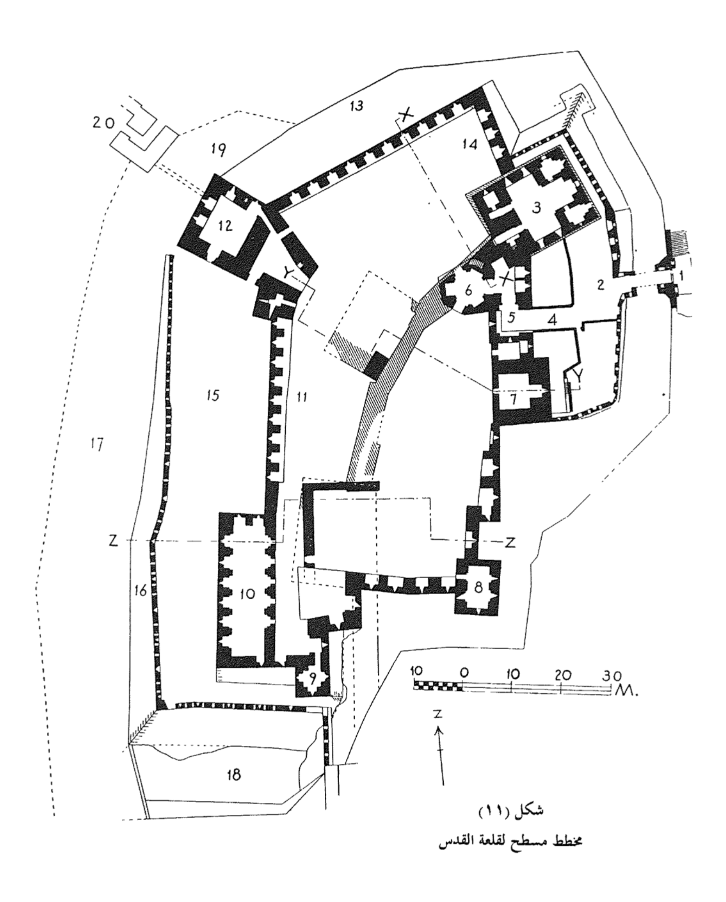
٨ ـ جونز: دليل قلعة القدس، مطبعة حكومية، فلسطين، ١٩٤٥ .

9 - JOHNS، C.N، The citadel of Jerusalem :a summary of work since 1934. QDAP Vol. XIV (1950).

10 - ASSADOUR A., The Timeless Holyland Jerusalem 1979.

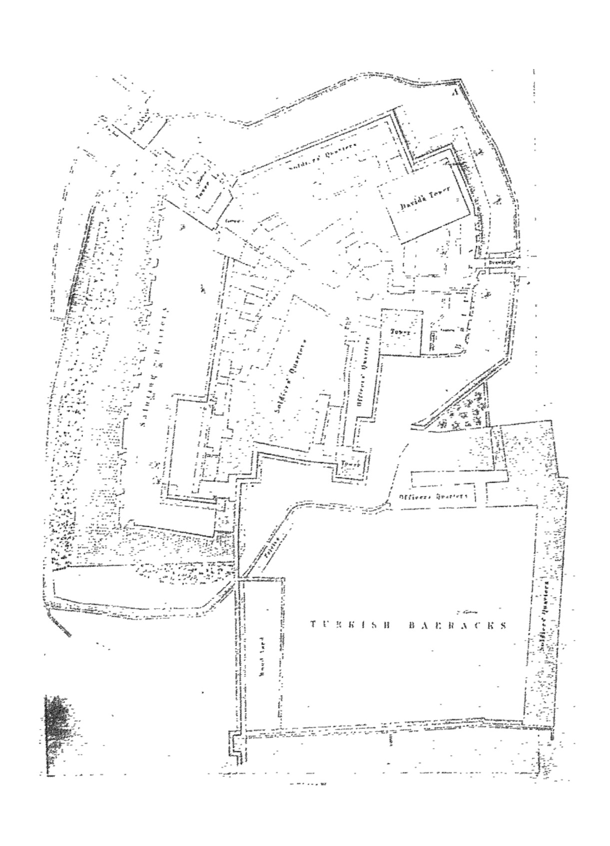
11 - JEROME E., An Archaeological guide from earliest time to 1700, oxford 1980.

12 - Excavations and Surveys، Vol. 2 (1983) and Vol. 3(1984).



شكل (١١)

مخطط مسطح لقلعة القدس



شكل (١٢) قلعة القدس عام ١٨٦٥

صيانة المعالم التاريخية في القدس العربية

مكانة القدس:

مدينة القدس بلد مقدس عند أصحاب الديانات السماوية، وخاصة عند أصحاب الديانة الإسلامية، فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة وفي أحاديث الصحابة والأئمة، ففي القرآن الكريم ورد قوله عز وجل «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله..» وورد في الحديث الشريف «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث:المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى».

وروي عن الإمام علي بن أبي طالب قوله «وسط الأرضين أرض بيت المقدس وأرفع الأرض كلها إلى السماء بيت المقدس».

وكذلك روي عن أبي هريرة أنه قال «من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء»، وروي عنه كذلك أنه سمع رسول الله يقول «أربع من مدائن الجنة: مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس».

من هذا كله يتبين لنا حرص المسلمين على مدينة القدس الشريف والتمسك بها وإعمارها وصيانتها عبر العصور لأنها من البقاع الأقدس في العالم الإسلامي.

لم يقفل المسلمون أبواب المدينة المقدسة أمام أفواج الحجاج من أصحاب الديانتين التوحيدتين الآخريين، بل قدّموا التسهيلات الممكنة كي يمارسوا طقوسهم الدينية بحرية وأمان وحرصوا على مقدساتهم على اعتبار أنها مقدسات، حتى أن مفاتيح كنيسة القيامة ظلت في أيدي أسرة إسلامية برضى الطوائف المسيحية كلها حتى يومنا هذا،

وكم من مرة خلّص المسلمون الكنس اليهودية من الدمار عندما قام فريق من اليهود ببيعها أو رهنها سداداً لدين.

واليوم يزداد حرص المسلمين على صيانة مقدسات القدس الشريف وحمايتها وترميمها درءً للأخطار المتمثلة في التعصب القاتل ونظرة الكراهية لكافة المقدسات التي يمارسها الصهاينة اليوم في القدس الشريف المغتصب.

التراث المعماري في مدينة القدس الشريف:

تعج المدينة المقدسة بالمعالم التاريخية التي ارتبط وجودها بالإحداث الجسام في تاريخ الإسلام ونجدها اليوم في داخل المدينة المسوره وفي خارجها وهي تتمثل في المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة والمساجد والمدارس والخانات والأضرحة والأسبلة والتكايا والزوايا والقباب.. الخ. وعلى الرغم من أن مدينة القدس لم تكن يوماً عاصمة لمملكة كبيرة أو ذات أهمية اقتصادية خاصة إلا أنه حظيت باهتمام سلاطين وملوك الإسلام على الدوام نظراً لأهميتها الدينية، فأقاموا فيها المدارس والخانات والحمامات والآبار والأسبلة.. تقرباً إلى الله و ابتغاء مرضاته، حتى أن كثيراً من أولئك أوصى بأن يدفن بعد موته بالقدس الشريف للغرض نفسه.

والناظر لعمائر بيت القدس الإسلامية يجدها لا تختلف كثيراً عن عمائر المدن الإسلامية خاصة في الشام ومصر، مثل مدن حلب ودمشق والقاهرة، فقد قاسمت تلك المدن مدينة القدس الشريف رغد العيش وشظفه في العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية عندما كانت تخضع في الغالب لسلطة سياسية واحدة.

بنيت جميع الأبنية بالقدس من الحجر واستعمل الجير كمونة للبناء. كما أقيمت القباب والعقود لتكون بمثابة سقوف لتلك الأبنية، وقد استخدم في بنائها الحجر والجير والطين، ومما يلفت النظر أن أبنية القدس متلاصقة حتى ليخيل للمرء أن المدينة عبارة عن كتلة معمارية واحدة متشابكة الأجزاء مكونة لنسيج عمراني جميل منسجم متوافق مع الوظيفة المطلوبة منه ومرتبطة بعادات سكانها العرب المسلمين وتقاليدهم وثقافتهم. ومن مكونات القدس الأحياء السكنية والأسواق والمساجد والملاعب والمدارس.

الأخطار التي تتعرض لها مدينة القدس:

تتعرض مدينة القدس العربية الإسلامية لكثير من المخاطر التي تهدد أبنيتها المعمارية ونسيجها العمراني، ومن تلك المخاطر:

الإهمال:

يمكن أن نصف هذه الإهمال (بالإهمال القسري) إذ أن غياب السلطة الوطنية التي ترعى التراث المعماري سبب إهمال الصيانة والترميم، وبذلك بدأت بعض الأبنية بسبب ذلك الإهمال تتصدع لتعرضها للعوامل الطبيعية (الأمطار، والزلازل ...الخ)، وللإهمال جانب آخر يتلخص في أن كثيراً من أصحاب الدور الذي نزحوا عن المدينة قاموا بتأجير بيوتهم إلى سكان عرب غالباً ما قدموا من الريف وهم من الطبقة الفقيرة، فهؤلاء المستأجرون لم يتمكنوا من القيام بإجراءات الصيانة اللازمة لمساكنهم بسبب ضيق ذات اليد مما جعل البيوت تتعرض لخطر الانهيار في بعض الأحيان. هذا بالإضافة إلى أن السلطات البلدية الاسرائيلية تمنع السكان من إجراء الترميمات اللازمة رغبة في نزوحهم عنها ومن ثم تقوم هي بهدمها.

التعديـات:

عندمـا احتلـت مدينـة القـدس عـام ١٩٦٧ مـن قبـل السـلطات الاسـرائيلية سـارعت تلـك السلطات إلى إقامـة مؤسسـة خاصـة بطويـر مدينـة القـدس على حـد قولهـم...؟ ولكـن في الحقيقـة كـان هـدف تلـك المؤسسـة العمـل على إزالـة كـل أثـر عربـي إسـلامي يعطـي المدينـة المقدسـة عراقتهـا وهويتهـا الإسـلامية تمهيداً لتحويلهـا إلى مدينـة يهوديـة صهيونيـة ومن أهـم تلـك التعديـات:

- إزالـة حـارة المغاربـة وغيرهـا مـن الحـارات لعمـل موقـف للسـيارات ولأغـراض أخـرى.
- إقامـة المسـتوطنات الإسـرائيلية داخـل مدينـة القـدس ممـا يدخـل في إجـراءات العـدو لتغيـير البيئـة التاريخيـة للمدينـة المقدسـة وصـولاً إلى تهويدهـا.
- إجـراء تنقيبـات أثريـة ممـا سبب تصدعـاً لجـدران بعـض الأبنيـة التاريخيـة ومنها جـدران الحـرم المقـدس الشـريف.

كـل تلـك التعديـات كـانت تهـدف إلى تغيـير البيئـة التاريخيـة العربيـة الإسـلامية وجعلهـا مدينـة تتوافـق مـع مخططـاتهم العدوانيـة الـتي تخـدم مصالحهـا السياسـية كمـا أنهـا تهـدف إلى الحصـول علـى وثـائق تؤكـد شـرعية ادعـاءاتهم بـأن المدينـة كـانت يومـاً مـا مدينـة عبريـة علـى حـد تعبيرهـم. وعندمـا لم تُجْـد تلـك الوسـائل لجؤوا إلى الأعمـال التخريبيـة فعمـدوا إلى حـرق المسـجد الأقصـى(١) كمـا عمـدوا إلى إطـلاق النـار علـى المصلـين أثنـاء الصـلاة وأرسـلوا بعـض جنودهـم للاعتـداء علـى المسـلمين ومنعهـم مـن إقامـة الصـلاة وإجبـار السـكان علـى تـرك منـازلهم لتصبـح بعـد وقـت مهجـورة ثـم يجـري هدمهـا بحجـة أنهـا آيلـة للسـقوط

لتقام في مكانها أبنية إسرائيلية، كما عمدوا إلى تغيير أسماء الحارات والشوارع والأزقة لتصبح مع الزمن يهودية خالصة طرازها المعماري مستورد وأسماء الشوارع والحارات فيها مستورده.

لقد شجعت السلطات السياسية الإسرائيلية والجمعيات الصهيونية في إسرائيل على تغيير طابع القدس المعماري والعمراني، وفي سبيل ذلك قامت كثير من الدراسات التي تخدم الغرض الصهيوني.

الصيانة في مدينة القدس:

صيانة وترميم المقدسات الإسلامية عمل بدأ باكراً وهو مستمر حتى وقتنا الحاضر، ولكنه عندما بدأ كان منصباً على المؤسسات الإسلامية في الحرم القدسي الشريف ومنها المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، واشتركت في ذلك دول وشعوب إسلامية كثيرة عبر تقديم الدعم الفني والمادي للقيام بذلك العمل، وظلت الحال كذلك حتى قامت لجنة (إعمار المسجد الأقصى والصخرة المشرفة) التي تقوم بعملها اليوم بكفاءة تحت مظلة الأوقاف الإسلامية.

بعد اغتصاب المدينة المقدسة من قبل الصهاينة عام ١٩٦٧ أصبحت الحاجة ملحة إلى شمول المباني التاريخية الإسلامية بالرعاية والصيانة بعد أن تعذر قيام ذلك عن طريق مؤسسات وطنية للوقوف أمام الخطر الصهيوني الداهم الذي يقوم يومياً بقضم المدينة المقدسة فتنادي العرب والمسلمون إلى إنقاذ مدينة القدس وحمايتها وصيانتها وترميمها، وساعدت في ذلك بعض المدارس الأثرية الموجودة بالقدس فقامت بإجراء مسح إحصائي توثيقي لمعظم المعالم التاريخية ووضع دارسات معمارية متعاونة في ذلك مع إدارة الأوقاف الإسلامية التي تعود معظم المعالم التاريخية بالمدينة لملكيتها، فمعظم المدارس الأثرية والخانات والحمامات والمساجد والقباب والمقابر تعود ملكيتها إلى الأوقاف

الإسلامية، ومن أجل ذلك قامت الجامعة العربية (مجلس وزراء الإسكان العرب) بإقامة (مركز ترميم وتوثيق وصيانة القدس الشريف) للمساعدة على ترميم المعالم التاريخية وصيانة التراث الأدبي في القدس والشريف وذلك بمساعدة الهيئات الفلسطينية والأردنية المختصة، وقد اقتصر عمل المركز على تقديم المشورة الفنية عن طريق دراسة مشاريع الترميم وإبداء الرأي فيها، وتقديم الدعم المالي لتنفيذ تلك المشاريع بتعاون وثيق مع وزارة الأوقاف الأردنية، وحتى الآن جرت دراسة عدة مشاريع لترميم معالم تاريخية كرباط الكرد، المدرسة السلامية، المدرسة الزهرية، التربة الكيلانية وغيرها من المعالم، كما ساعد المركز على تدريب بعض الكوادر الفنية وتزويد جهات التنفيذ بالوسائل اللازمة.

كما أعد خططاً للتوثيق المعماري للمعالم التاريخية كالرفع الهندسي والتصوير العادي والتصوير الفوتوغرافي، وقد جرت اتصالات مع جهات الاختصاص الدولية بهذا الشأن.

وهناك اللجنة الملكية الأردنية التي تركز جل اهتمامها على فضح التعديات الصهيونية على القدس الشريف وسبل مواجهتها، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وغيرها.

لجنة أعمار المسجد الأقصى:

تشكلت هذه اللجنة بعد الحريق الذي أصاب المسجد الأقصى وعهد إليها بإصلاح ما أتلفه الحريق فقامت اللجنة خلال الفترة ما بين ١٩٦٩ ــ ١٩٨٢ بأعمال كثيرة منها: ترميم الأجزاء المحترقة وإزالة آثار الحريق، بناء الجدران وإقامة الأعمدة بدلاً من التالفة، إصلاح واجهة جامع عمر ومحراب زكريا. تصفيح المسجد بالرخام من الداخل، ترميم

الخشبيات وترميم زخارف القبة الخشبيه، إصلاح التمديدات الكهربائية الداخلية وغيرها.



منذ اللحظات الأولى للاحتلال الإسرائيلي بدأت سلطات الاحتلال بوضع الخطط للعدوان على المدينة المقدسة وتغيير معالم بنيتها التاريخية، فتنادت عدة مظمات وطنية وعربية ودولية للوقوف أمام ذلك العدوان، فأصدرت كثيراً من التوصيات والقرارات والنداءات إلا أن ذلك ظل حبراً على ورق، وظلت السلطات الصهيونية تواصل تعدياتها، ومن تلك الهيئات:

الجامعة العربية:

أصدرت الجامعة العربية عدة قرارات وتوجهت إلى هيئة الأمم والمنظمات التابعة لها والمنظمات الإسلامية طالبة المساعدة في حماية مدينة القدس، وقد تكلل مسعاها الأدبي بكثير من النجاح، كما قامت الجامعة العربية عبر منظماتها المتخصصة بخطوات عملية كإحداث مركز صيانة القدس الذي اشرنا إليه سابقاً والانفاق عليه وإصدار الدراسات والنشرات التي تعرف بالقدس وتركز على أهميتها الروحية والتاريخة والمعمارية.

هيئة الأمم المتحدة:

قامت هيئة الأمم المتحدة بعدة قرارات وتوصيات بناء على طلب الدول العربية أو الدول الإسلامية أو بجموعة دول عدم الانحياز مطالبة الدولة الاسرائيلية بالتوقف عن الاجراءات التهويدية التي تقوم بها في القدس الشريف والتوقف عن إجراء الهدم والتنقيبات الأثرية.

منظمة اليونسكو:

قامت الجمعية العمومية لمنظمة اليونسكو ومجلسها التنفيذي بإصدار عدة قرارات تهدف إلى الوقوف في وجه التعديات الصهيونية، ومن أهم تلك القرارات القرار الذي اتخذته لجنة التراث العالمي بتسجيل مدينة القدس في سجل المدن المهددة بالخطر الواجب إنقاذها (٣٧١٢) كما قامت بتقديم عون مالي للمساعدة على صيانة مدينة القدس.

إلى جانب ذلك كانت منظمة اليونسكو قد عينت قيماً على التراث في فلسطين المحتلة ومن ضمنه تراث مدينة القدس، كما أوفدت عدة خبراء ومبعوثين وممثلين للمدير العام لليونسكو لتفقد حالة القدس ومدى التزام السلطات الاسرائيلية بالقرارات الدولية. هذا إلى جانب ما قام به المركز الدولي لترميم الممتلكات الثقافية (الايكروم) من مساعدة في ترميم خشبيات المسجد الأقصى وتقديم المشورة والخبرة الفنية للعاملين في حقل الترميم بالقدس.

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو):

قامت المنظمة العربية بدعم مشاريع صيانة وترميم وثائق ومخطوطات القدس، كما قامت مؤخراً بدعم مركز ترميم وصيانة القدس أدبياً ومالياً، كما ساعدت على تدريب بعض الكوادر الوطنية في ترميم المحفوظات والوثائق.

منظمة المؤتمر الإسلامي:

تقوم عدة هيئات متخصصة منبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي بالمساعدة على صيانة مدينة القدس بتقديم العون المادي للجهات التي تتصدى لصيانة القدس أو القيام مباشرة بذلك، ومن تلك الأجهزة المتخصصة: اللجنة الدولية لحماية التراث الإسلامي، الأسيسكو، البنك

الإسـلامي، صنـدوق القـــدس، مركــز اســتانبول لأبحــاث التــاريخ والفنــون والثقافـة الإسـلامية.

منظمة المدن العربية:

تقوم منظمة المدن العربية منذ تأسيسها على مساعدة مدينة القدس الشريف وذلك بتخصيص المساعدات المادية لدعم مشاريعها وطباعة الكتب(٢) والمنشورات التي تهدف التعريف بالمدينة وبالمحنة التي ألمت بها كما ساعدت على إقامة تآخ بينها وبين عدد من العواصم العربية الأجنبية.

والسؤال الذي يبرز إلى الذهن، هل ما تم إنجازه حتى الآن في مضمار صيانة القدس كاف؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نعترف أن ماتم إنجازه حتى الآن دون حجم التحديات التي تواجهها مدينة القدس بكثير. فالمطلوب جهد عربي إسلامي عالمي مشترك لإنقاذ مدينة الديانات الثلاث من عبث العابثين وحفظها لأصحابها وللأجيال القادمة(٣). إن عملاً يستمد قوته من جهد جماعي يقوم على أسس علمية أكاديمية يهدف إلى دراسة المدينة المقدسة وتوثيقها توثيقاً يصل إلى كل مظهر من مظاهرها الحضارية لقادر أن يجنب المدينة المقدسة المخاطر التي تتربص بها، وفي تصوري أن أحداث مركز دولي للقدس الشريف منضو تحت إحدى الجامعات العربية الإسلامية يزود بالكوادر الفنية عالية التأهيل والإمكانات المادية لقادر على الإسهام إسهاماً فعالاً في صيانة المدينة المقدسة وحمايتها.

تكون من مهام ذلك المركز:

1) المحافظة على وضع المدينة الراهن وخاصة النسيج العمراني.
2) توثيق ودراسة المباني التاريخية والزخارف والكتابات.
3) ربط المدينة بالحياة الاقتصادية للضفة الغربية لضمان بقاء السكان فيها.

4) إدخال وسائل الراحة المتوفرة في البيوت الحديثة إلى مساكن المدينة القديمة مع المحافظة على المعالم الأساسية للمباني الأثرية وإصلاح الوسائل القديمة (المجاري التمديدات الكهربائية، التمديدات الهاتفية، الطرق المعبدة).

الهوامش

(١) ورد في إعلان الحكومة الاسرائيلية المحتلة لمدينة القدس أن شخصاً مختل العقل اسمه روهان قد أحرق المسجد الأقصى المبارك بتاريخ ١٩٦٩/٨/٢١ ولكن الدلائل تشير إلى أن روهان كان مدفوعاً لذلك العمل التخريبي، وقد بلغ الجزء المحترق من المسجد (١٥٠٠) متر مربع من أصل (٤٤٠٠) متر مربع وقد شمل الحريق منبر صلاح الدين الأيوبي ومسجد عمر ومحراب زكريا ومقام الأربعين وثلاثة أروقة ممتدة من الجنوب شمالاً مع الأعمدة والأقواس والزخرفة والسقف وأجزاء من القبة الخشبية المزخرفة والمحراب والجدار الجنوبي وتصفيح الرخام و٤٨ شباكاً من الجبص والزجاج الملون والسجاد وكثير من الزخارف والآيات القرآنية.

(٢) من الكتب الهامة التي أصدرتها المنظمة العربية كتاب كنوز القدس الشريف باللغة العربية وقد علمت أن النية متجهة إلى ترجمة بعض مواده إلى اللغات الأجنبية.

(٣) أنشأ العدو صندوقاً للقدس ووضع في هذا الصندوق مبلغ ملياري دولار، كما قامت مؤسسات صهيونية أخرى بتخصيص مبالغ كافية بالتعاون مع بعض الجامعات الأميركية لتطوير مدينة القدس باتجاه تحويلها إلى مدينة يهودية صهيونية في حين أن منظمة المؤتمر الإسلامي أقامت صندوقاً للقدس لم يجتمع فيه المبلغ المقترح وقدره مئة وعشرون مليون دولار صرف قسم كبير منه في غير الأغراض التي أنشىء الصندوق من أجلها.

المراجع العربيـة:

١- كولار بـول، عبد الحق سليم، ديللون أرمانود. .
سـوريا: قضايا حفـظ المواقـع الأثريـة والأوابـد التاريخيـة والاستفادة منهـا.
تقريـر وضـع في إطـار لجنـة اليونيسـكو المؤلفـة مـن السـادة المذكـورة أسماؤهم أعـلاه المرسلة إلى سوريا عـام ١٩٥٣ ص؟_ ص٢٣

٢- بهنسـي عفيـف: مشـكلة المدينـة القديمـة في البـلاد العربيـة، الحوليـات الأثريـة العربيـة السـورية عـدد ٢٤ ص ـ٩/ ص٣٣ .

٣- بهنسـي عفيـف: المدينـة العربيـة الإسـلامية ونموذجهـا دمشـق القديمـة الحوليـات الأثريـة العربيـة السـورية عـدد ٢٦ ج١ + ج٢ (١٩٧٦) ص ١٠-ص٢٦.

٤ ـ وبـيرا أوزيـل: فـن تخطيـط المـدن ترجمـة بهيـج شـعبان ومراجعـة هـنري زغيب منشـورات عويـدات بـيروت لبنـان.

٥ ـ ريحـاوي عبـد القـادر: المبـاني التاريخيـة حمايتهـا وطـرق صيانتهـا، منشـورات المديريـة العامـة للآثـار والمتـاحف بالجمهوريـة العربيـة السـورية دمشـق ١٩٧٢ ص ٥١/ص٥٤ .

٦ ـ الأحمد نجيب الأحمد: تقريـر عـن أوضـاع مدينـة القـدس العربيـة تحـت الاحتـلال الصهيونـي.

٧ ـ الأحمد نجيب الأحمد: تهويـد القـدس، منظمـة التحريـر الفلسـطينية، دائرة الأعـلام والتوجيـه القومـي.

٨ ـ قاسميـة خيريـة: قضيـة القـدس، دار القـدس، بـيروت الطبعـة الأولى ١٩٧٩ ص٦٨ ـ ٤٧ .

٩ ـ ذو الفقـار سـعيد: التقريـر النهـائي للمؤتمـر الثـامن للآثـار بـالبلاد العربيـة المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلـوم/، مراكـش ١٩٧٧ ص٥١ـ ص٥٩.

١٠ ـ نجم رائف وآخرون: كنوز القدس ط١(١٩٨٣) مطبوعات منظمة المدن العربية ومؤسسة آل البيت بالاردن.
١١ ـ نجم رائف: القدس الشريف خلال فترة الاحتلال الاسرائيلي ٦٧ ـ ١٩٧٨. منشورات المركز الثقافي الاسلامي ١٩٨٨.
١٢ ـ شعث شوقي: القدس الشريف مطبوعات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة الرباط ١٩٨٨.
١٣ ـ العابدي محمود: الآثار الاسلامية في فلسطين والأردن عمان ١٩٧٣.
١٤ ـ الخطيب روحي: تهويد القدس جـ ٢ ط ١ ـ ١٩٧١.
15 - Duncan A.,The Noble Sanctuary 1972.
16 - Shaath Sh., **Threats** facing Jerusalem, Arts of 'Islamic World vol.4 no.3 1987.

المتاحف الفلسطينية

بمدينة القدس العربية

عندما بدأت الشعوب تعي أهمية تراثها أخذت تحافظ عليه بإنشاء دورٍ لحفظه فيها وجعلت من الأبنية التاريخية أمكنة له، فمن المتاحف التي نشأت باكراً في بلاد الشام، المتحف الوطني بدمشق الذي تأسس عام ١٩١٩ إبان الحكم العربي. ومتحف الآثار الإسلامية بالقدس الشريف الذي تأسس في عام ١٩٢٣ ، ومتحف الآثار الفلسطيني الذي وضع حجر أساسه عام ١٩٢٧ وأنجز ومن ثم افتتح للجمهور عام ١٩٣٨ . وحيث أننا نود أن نقصر حديثنا هنا على متاحف القدس الشريف فإننا سنتحدث عن المتحف الإسلامي أولاً. ثم المتحف الفلسطيني وبالتالي عن المتاحف الآخرى الصغيرة.

١ـ المتحف الإسلامي

تأسس المتحف الإسلامي في القدس بمبادرة من المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٣م وهو بذلك أول متحف تأسس في فلسطين. أتخذ المتحف أول الأمر كمقر له بناءً من العهد المملوكي يعرف بالرباط المنصوري الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م ثم نقل عام ١٩٢٩م إلى المقر الذي يشغله الآن وهو عبارة عن بناء تابع للمسجد الأقصى يتكون من قاعتين كبيرتين تؤلفان زاوية قائمة في الجهة الجنوبية الغربية لمنطقة المسجد الأقصى. تعود القاعة الغربية من المتحف إلى العهد المملوكي وربما كانت تستخدم عند بنائها مسجداً للمالكية، أما القاعة الجنوبية فيعتقد أنها بنيت إبان اغتصاب الأفرنج للقدس الشريف عام ١٠٩٩م.

هدف المجلس الأسلامي من وراء إقامة المتحف الإسلامي إبراز التراث العربي الإسلامي وصيانته وعرض مخلفات عمليات إعمار المسجد الأقصى والقبة المشرفة وتسجيل عمليات التبديل الذي يطرأ على البناء الأثري وهو في القيام بمهمته هذه يمكن أن يكون بمثابة مركز علمي يقدم خدمة للمهتمين بالدراسات الإسلامية.

مقتنيات المتحف:

يقتني المتحف الإسلامي مجموعة هامة من المصاحف النادرة والمخطوطات والوثائق الهامة والخشبيات والنقود والقاشاني والزجاج والأدوات المعدنية، فهناك حوالي تسعماية وثيقة تعود إلى الفترتين المملوكية والعثمانية مكتوبة بعدة أنواع من الخطوط وتبحث في مواضيع جمة منها محاضر بيع وشراء العقارات وعقود الزواج وتعيين القراء في المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، هذا إلى جانب عدد من المصاحف يصل إلى حوالي ستمائة وخمسين مصحفاً تعود إلى عدة فترات من فترات التاريخ الإسلامي من بين تلك المصاحف ثلاثة مصاحف منها: مصحف نادر كتب بالخط الكوفي وهو ناقص، وهناك مصحف يعرف بالمصحف الكبير (١٩٠x١١٠سم) من أوقاف الملك الأشرف برسباي على المسجد الأقصى، أما المصحف الثالث وهو مصحف فريد كتب بالخط المغربي - **شكل ١٣** - يضم ثلاثين جزءاً ويعتبر من أنفس المصاحف التي أوقفت على المسجد الأقصى، عليه زخارف هندسية ونباتية. ومن المقتنيات الأخرى التي يقتنيها المتحف الاسلامي مجموعة من النقود العربية الإسلامية (ذهب، فضة، نحاس) تعود إلى فترات متعددة بدء من العهد الأموي حتى نهاية العهد العثماني بالإضافة إلى بعض الدراهم الساسانية. كذلك يقتني المتحف مجموعة من القاشاني التي كانت يوماً تغطي مثمن قبة الصخرة وفي عدة فترات تاريخية **(شكل ١٤)**. ومن هنا يمكن القول إن المتحف يقتني مجموعة نفيسة من القاشاني

تعود لمختلف العصور الإسلامية. يقتني المتحف كذلك مجموعة هامة من الزجاج تتألف من قوارير وأقداح وأباريق وقناديل وصحون ومكاحل من أهمها مشكاة مموهة بالمينا نقلت من الحرم الإبراهيمي بمدينة الخليل تعود إلى العهد المملوكي عليها زخارف نباتية وكتابات ورنوك.

هذا إلى جانب مجموعة من المقتنيات المعدنية كالقناديل والشمعدانات والخناجر والقدور والصواني والسلطانيات والأختام والأسلحة ومجموعة من الأخشاب المزينة بالدهان.

٢- المتحف الفلسطيني:

المتحف الهام الثاني من متاحف القدس الشريف هو المتحف الفلسطيني الذي تبرع بإنشائه المليونير الأمريكي روكفلر وقد حمل المتحف اسمه منذ تأسيسه حتى ضمه إلى دائرة الآثار الأردنية عام ١٩٦٦ حيث سمي بالمتحف الفلسطيني وبعد عدوان عام ١٩٦٧ أعاد الأسرائيليون تسميته بمتحف روكفلر بهدف تغييب اسم فلسطين عن أية مؤسسة فلسطينية رغبة في طمس كل ما من شأنه الإشارة إلى وجود الشعب الفلسطيني فوق أرضه.

تأسس المتحف عام ١٩٢٧ وأنجز بناؤه وافتتح للجمهور عام ١٩٣٨ - كما أشرنا سابقاً - وأقيم فوق تلة تقع قبالة الزاوية الشمالية الشرقية لسور المدينة القديمة بالقرب من باب الساهرة وينهض خلف بناء المتحف بناء أقدم منه أقامه محمد الخليلي عام ١٧١١م الذي أحضر بذور الصنوبر من بلده الأصلي مدينة الخليل وزرعها بالقرب من بيته الجديد ومع الزمن نمت تلك الأشجار لتصبح أشجاراً ضخمة وظهرت على المنزل وكأنها جزء من المتحف.

تتألف مقتنيات المتحف الفلسطيني في معظمها من لقى التنقيبات الأثرية الرئيسة التي جرت بفلسطين في الفترة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٨

إلى جانب معروضات أخرى، هذا وتضم قاعات المتحف ومستودعاته ومكتبته الكثير من الشروح والرسوم والصور التي تدور حول المكتشفات الأثرية والمواقع الأثرية لفلسطين (شكل ١٥).

إدارة المتحف الفلسطيني:

ظل المتحف الفلسطيني تابعاً لإدارة الآثار الفلسطينية إبان الإنتداب البريطاني، ولكن في عام ١٩٤٧ أقدم البريطانيون على فصل المتحف عن دائرة الآثار وجعلوه تحت إشراف هيئة دولية كونوها من ممثلين عن بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وهي الدول التي كانت لها مدارس ومراكز بحث أثرية بفلسطين وممثلين عربيين وواحد يمثل الجامعة العبرية وبقيت الحال هذه حتى ضم إلى دائرة الآثار الأردنية عام ١٩٦٦ كما أسلفنا وبعد اغتصاب العدو الصهيوني لمدينة القدس العربية عام ١٩٦٧ استولى الإسرائيليون على المتحف ونقلوا محتوياته إلى المتحف الإسرائيلي وجعلته إدارة الآثار والمتاحف الإسرائيلية مقراً لها.

معروضات المتحف:

قلنا إن المتحف يحتفظ بنتائج التقنيات الأثرية الرئيسة التي جرت بفلسطين وتعود تلك المقتنيات لمختلف العصور التاريخية بدءاً من عصور ما قبل التاريخ حتى العصور العثمانية المتأخرة. عرض المتحف أهم القطع الأثرية التي يقتنيها في عدة قاعات وغرف أعدها للعرض منها ما عرض داخل خزائن حملت أرقاماً أو حروفاً وجعل لها دليل يصف تلك المعروضات وفق الخزائن والقاعات، ومنها ما عرض على قواعد ثابتة خارج الخزائن وقد سجل ذلك بدليل الآثار الفلسطينية من العصور الحجرية والعصور اللاحقة كما أشرنا. من المعروضات الهامة التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، عرض بالمتحف رأس تمثال من

الطين المجفف بالشمس وتماثيل لحيوانات من الطين من بينها رأس حية وبقرة وكلب ونسر من الفخار الملون وبعض اللقى الأخرى من تنقيبات جون جار ستانج (١٩٣٦/٣٥) **شكل ١٦**. ومن تلك التي تعود إلى العصر الحجري النحاسي (٣٠٠٠ ٤٠٠ق.م) لقى من تليلات الغسول الواقعة في شرق الأردن التي اكتشفها الأب مالون من أهمها أقراص مثقوبة وقدر لها عروتان وفؤوس حجرية وكؤوس **شكل ١٧**، ولقى من الخضيرة الواقعة بين يافا وحيفا ولقى أخرى من عين شمس ومغارة وادي صالحة.

ومن نتائج تنقيبات مجدو - تل المتسلم التي تعود إلى العصر البرونزي القديم عرض أوان حجرية عليها تأثيرات مصرية وأوان فخارية **(الأشكال ١٨-١٩-٢٠)** وقالب لسكب الحلي المعدنية، وهناك صحون ذات لون رمادي جميل من مجدو وبيسان والعفولة، كما أن هناك آثاراً عثر عليها في تل النصبة وخربة الكرك ومن آثار العصر البرونزي الحديث هناك حلي ذهبية وفضية من تل العجول بالقرب من مدينة غزة ومبخرة من بيسان (صورة ١).

هذا إلى جانب آثار من العصور الحديدية والفارسية والهلنستية والرومانية والبيزنطية والعربية الإسلامية سنأتي على وصفها عند وصف معروضات المتحف عموماً.

وصف معروضات المتحف

عرض في قاعة البرج (انظر مخطط المتحف / قاعة رقم ٢) نسخ من الأنصاب التي عثر عليها في قصر سنحاريب في نينوى بالقرب من مدينة الموصل بالعراق وعليها مشاهد تمثل حصار سنحاريب إلى مدينة لاشيش/تل الدوير. وفي معرض القاعة المثمنة الجنوبية عرض نصب من

البازلت يعود إلى الفرعون المصري سيتي الأول يعود إلى عام ١٣١٣ ق.م وهي السنة الأولى من حكمه عليه كتابة هيروغليفية وجد هذا النصب في بيسان (صورة٢). كما عرض تمثال رمسيس الثالث (١١٦٧ ١١٩٨ق.م) (صورة٣) ونصب بازلتي حثي وتمثال الربة عنات.

كذلك عرض في الجناح الجنوبي إلى يمين الداخل نماذج من المواد الانثروبولوجية منها جمجمة من الجليل من مغارة الزطية بالقرب من الطابغة وتعتبر هذه الجمجمة من أقدم النماذج المعروفة لجنس جبل الكرمل فربما يعود إلى ما قبل حوالي ٢٠٠,٠٠٠ عام قبل الميلاد، كما عرضت بقايا إنسان الكرمل الذي يعود إلى ما قبل عام ١٠٠ ألف عام، إلى جانب ذلك عرضت البقايا التي تعود إلى العصر الحجري القديم/الدور الأدنى، من تلك البقايا جمجمة لإنسان من نوع إنسان نيادرتال الذي اكتشف في مغارة الزطية، وأدوات صوانية من الدور الطاحوني ومن الدور الأشولي الأعلى، كما عرضت مواد تعود إلى العصر الحجري القديم/الدور الأعلى في خزانة أخرى تمثل البقايا الأورغشانية وهي تظهر ملامح أكثر تطوراً من ذي قبل وأدواتها الصوانية أكثر إتقاناً وعدد متنوع من السهام والمكاشط والسكاكين اكتشفت في جبل قفزه وتعود هذه الجماجم إلى النموذج القديم للإنسان العاقل، هذا إلى جانب عظام حيوانية مثل الدب والغزال، وغيرها. كما عرضت هنا في هذا الجناح لقى أثرية تعود إلى العصر الحجري الوسيط من مغارة الكباره وتمثل تلك اللقى المرحلة الأولى من العصر الحجري الوسيط بفلسطين (الدور الكباري) ولقى أخرى من وداي النطوف ومغارة الواد (صورة ٤).

الغرفة الجنوبية: عرضت خشبيات إسلامية محفورة من القرن الثامن من الجامع الأقصى.

الغرفة الغربية: نماذج من منحوتات عثر عليها من التنقيبات التي جرت في قصر هشام بن عبد الملك في خربة المفجر.

عرضت حلي عثر عليها في غزة ومنطقتها وحلي من عهد الهكسوس القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وحلي من الفترة الرومانية وأخيراً حلي من الفترتين البيزنطية والعربية.

الغرفة الشمالية: عرضت هنا نماذج لقى متفرقة من أمكنة مختلفة تضمن منحوتات من فترة الأفرنج من أهمها: بعض الزخارف التي نقلت من كنيسة القبر المقدس، إعداد العشاء الأخير، اختيار الحمار لدخول القدس، العشاء الأخير ودخول القدس.

الجناح الشمالي: عرض في هذا الجناح لقى تعود إلى نهاية العصر البرونزي منها: فخار خشن رديء الصنعة، أوان بخور من بيسان ومجدو تل المتسلم، والتل عاي (صورة٥) ، عاجيات من مجدو، صندوق عاجي مزين بأسود وأبي الهول، عناصر تزيينية على شكل شجرة النخيل، قطعة عاجية عليها مشهد يستعرض فيه المصريون أسراهم من الاسيويين، تعود هذه العاجيات إلى عهد رمسيس الثالث (القرن الثاني عشر ق.م)، فخار فلسبي، إناء من الفخار المسيني، جزء من تمثال برونزي يعود إلى رمسيس الرابع (١١٥٠ ١١٥٧م.ق) عليه كتابات هيروغليفية.

كما عرض في الخزائن التاليه قطع أثرية تعود إلى العصر الحديدي (٥٨٦ ١٠٠٠ ق.م) منها عاجيات من السامرة (القرن التاسع ق.م) وتمثال لأبي الهول، ومجموعة من التمائم، فخار قبرصي وفينيقي ويوناني، وملاعق وأوان حجر من الستياتيت وفخار منوع. ومن العصرين الهلينسي والفارسي عرضت مجموعة من القطع الأثرية منها: إناء فضي من العهد الأخميني زين داخلها بأزهار متناوبة، كأس كورنثي

من القرن السابع وإناء يونـاني عثر عليه في تـل جمّه بـالقرب من غـزة يعـود إلى حـولي عـام ٤٥٠ق.م، أوان زجاجيـة فنيقيـة، دمـى طينيـة، عقـد مـن العصر الفارسي على شـكل قلـب، وزنـة عليهـا كتابـة يونانيـة، فخـار محلـي، سـراج زيـتي برونـزي، تمثـال برونـزي لهرقـل عـثر عليـه في سبسـطية من القـرن الرابـع قبـل الميـلاد تمثـال أفروديـت ومجموعـة مـن الدمـى البرونزيـة المصرية من صنـع محلـي.

وفي خزائـن الفـترة الرومانيـة (٦٣ق.م-٣٣٠ م) عرضـت أوان فخاريـة مـن بدايـة الفـترة الرومانيـة وسـراج زيـتي، أوان، كـؤوس، دمـى فخاريـة، تمثـال فينـوس، منيرفـا المحاربـة، كتابـة يونانيـة مـن سبسـطية مـن القـرن الأول الميـلادي، محـارب رومـاني، تمثـال نصفـي مـن المرمـر يعـود إلى الامـبراطورة سـالونينا Salonina زوجـة الامـبراطور غـالينوس، جـرة فخاريـة عليهـا تأثـيرات فارسـية ورأس امـبراطور رومـاني، أدوات معدنيـة مـن الأسـلحة والأدوات الأخـرى.

ومـن الفـترة البيزنطيـة عرضـت مجموعـة مـن الجـرار البرونزيـة، سـرج زيتيـة، حلـي قطـع عظميـة عليهـا تزيينـات نفـذت بواسـطة الحـز، وينتهـي الجنـاح الشـمالي بمعـرض للفـن العربي يضـم قطعـاً فخاريـة وأعمـالاً نحاسـية عليهـا تزيينـات كتابيـة. بعـد ذلـك نجـد نمـوذج مدفـن مـن أريحـا. يعـود إلى فـترة الهكسـوس (القـرن الثـامن عشـر قبـل الميـلاد)، أثـاث جنـائزي، هيـاكل عظميـة وأدوات عظميـة.

بعـد أن نـأتي إلى نهايـة الجنـاح الشـمالي يمكـن لـلزائر بموجـب بطاقـة خاصـة أن يـزور لفـائف البحـري الميـت الـتي عـثر عليهـا في خربـة قمـران وهـي عبـارة عـن لفـائف نحاسـية وجلديـة وقـد نُقلـت هـذه اللفـائف إلى المتحـف الاسـرائيلي.

عرض في الرواق الشمالي تابوت من العهد الروماني مثلت عليه حرب الأمازون وفي الطرف الآخر عرض جزء من تابوت عليه ليدا والبطة، وفي الرواق الغربي، نموذج لبناء عربي مزين بالقاشاني، وفي الرواق الجنوبي عرضت سواكف مزينة وتيجان منوعة ودرع هنري الثاني ملك قبرص والقدس عثر عليه في عكا يعود إلى عام ١٢٨٥ م تقريباً،هذا إلى جانب غرفة معادة البناء من الفن العربي عليها قبة مزينة بألواح من القاشاني المربّع.

مكتبة المتحف الفلسطيني:

إلى جانب الآثار المعروضة في القاعات والأجنحة والشروح والصور ووسائل الإيضاح الأخرى التي زود بها المتحف ليساعد زواره من العلماء والباحثين وجمهور الناس على فهم المعروضات، هناك مكتبة علمية عامرة تقع في الزاوية الشمالية من الطابق الأسفل تضم عدداً من الكتب والمخطوطات تتحدث عن تاريخ فلسطين وآثارها وآثار البلدان العربية المجاورة وقد تأسست هذه المكتبة عام ١٩٢٨ وضمت حتى عام ١٩٤٨ أكثر من ثلاثين ألف مجلد تتوزع لغاتها بين العربية والإنجليزية والإفرنسية والإلمانية. وفي الطابق العلوي صالة للمطالعة تحوي الكتب المرجعية والدوريات والموسوعات هذا إلى جانب مخازن تضم الكتب المكررة.

الخدمات الثقافية الأخرى:

يوجد بالمتحف قاعات للمعارض المؤقتة وأخرى للاجتماعات والمحاضرات فقد دأب المتحف ودائرة الآثار الفلسطينية على تنظيم

محاضرات تتحدث عن نتائج التنقيبات الأثرية بفلسطين كل عام تقريباً ونتائج التنقيبات الأثرية التي كانت تتم في البلدان العربية المجاورة.

متاحف أخرى

إلى جانب المتحف الإسلامي والمتحف الفلسطيني هناك عدة متاحف خاصة صغيرة تتبع المدارس الأثرية العاملة بفلسطين والأديرة والكنائس، فهناك متحف صغير يتبع إرسالية الآباء الفرنسيسكان في القدس القديمة يضم مجموعة أثرية بدىء بجمعها منذ عام ١٩٢١ يعود قسم منها إلى التنقيبات الأثرية التي قامت بها الارساليه ومجموعة من النقود ومجموعة غنية من المخلفات المسيحية المحلية. ويوجد متحف صغير آخر لدى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ومتحف ثالث لدى الكنيسة الأرمنية ويقتني هذا الأخير مجموعة جميلة من الملابس والأواني والمخطوطات النادرة. والكنيستان المذكورتان بصدد افتتاح متحفيهما إلى الجمهور بعد إنجاز أعمال العرض والتجهيز فيهما.

الاعتداءات الإسرائيلية على متاحف القدس الشريف

نظرت السلطات الإسرائيلية إلى التراث الحضاري الفلسطيني نظرة عداء وكره فهي لا تريد أن ترى تراثاً يدل على أي أثر لشعب طرد من دياره ونهبت ودمرت مقوماته الثقافية ودنست مقدساته فكانت كلما سمحت الظروف تنتهزها لتدمر ذلك التراث أو تنهبه بشكل مباشر فعند احتلال القدس عام ١٩٦٧، نجد العدو يستولي على كنوز المتحف الفلسطيني وينهبها وينقل بعضها إلى المتحف الإسرائيلي ومن أهم المقتنيات الأثرية التي نهبها الإسرائيليون لفائف البحر الميت ووثائق لاشيش، ثم عمدوا إلى إعادة عرض ما تبقى من آثار المتحف عرضاً يخدم الأهداف الإسرائيلية وغيروا الشروح التاريخية الأولى لكثير من

الآثار في محاولة للتقليل من أهمية تراث الشعب الفلسطيني وإبراز تراثهم المزعوم، هذا إلى جانب إخفاء بعض الآثار الهامة من المتحف، أما المتحف الإسلامي بالقدس الشريف فترك مهملاً تتهدده الرطوبة والأمراض المتحفية الآخرى تفتك بالوثائق والمخطوطات والأخشاب والآثار المعدنية الأخرى، هذا إلى جانب أن السلطات الإسرائيلية أهملت شؤون الأمن المتحفي مما سمح بسرقة مقتنيات أثرية ذات قيمة عالية منه وحتى الآن لم تتمكن سلطات الأمن من القبض على الجناة كما أن السلطات الإسرائيلية تسمح بتجارة الآثار وتصديرها إلى الخارج خاصه الآثار العربية الإسلامية.

الحفاظ على المقتنيات المتحفية الفلسطينية

يتطلب الحفاظ على المقتنيات المتحفية من العرب الفلسطينين المقيمين في الأرض المحتلة العناية بآثارهُم وتراثهم فهو أولاً وقبل كل شيء الشاهد الحي على استمرار وجودهم في فلسطين وهم مطالبون قبل غيرهم بحماية آثارهم والسهر على بقائها سليمة في أماكنها دون أن يمتد إليها التلف الناتج عن الإهمال أو السرقة أو أية أسباب أخرى، فالعدو الصهيوني من مصلحته كما أشرنا في مكان آخر أن لا يكون هناك أي شاهد يشير إلى أهلنا في الأرض المحتلة، كما أنهم مطالبون، بإحداث المتاحف البلدية والجمعيات الصيانية لتحفظ الآثار والمخلفات الحضارية والتقاليد الشعبية فيها مانعين بذلك تسريها إلى الخارج أولاً، مساهمين في عرضها للجمهور ثانياً وصولاً إلى تأصيل الحّس الوطني في نفوسهم، وكم هو جميل إذا عمدت البلديات الفلسطينية أو جهات الدعم الأخرى إلى تخصيص ميزانيات خاصة ولو كانت قليلة، لإحداث تلك المتاحف، هذا ولا بد من الإشارة إلى بعض الجامعات الوطنية

الفلسطينية التي تقدم مساهمات جزئية في حماية التراث الوطني الفلسطيني.

إن الجهات العربية والدولية مطالبة أيضاً بدعم الشعب العربي الفلسطيني فنياً ومادياً لمساعدته في حفظ تراثه الوطني.

وبعد، هذه السطور التي جميعها من المراجع الأجنبية والعربية، دون أن أتمكن من زيارة متاحفنا في القدس الشريف بسبب اغتصابها من قبل العدو الصهيوني، قصدت بها أن أثير انتباه الجمهور العربي إلى تلك المتاحف التي كانت في طليعة المتاحف العربية وجوداً، وفي طليعتها غنىً بموجوداتها. سنظل نتطلع كأثريين ومؤرخين عرب وعرب فلسطينيين شوقاً إلى زيارة متاحفنا ومواقعنا الأثرية ومعالمنا التاريخية في أرضنا السليبة، التي لابد عائدة إلى أصحابها الشرعيين.



المراجع

١ـ العارف عارف: المفصل في تاريخ القدس ط٢ القدس ١٩٨٦ .

٢ـ أبو خلف مروان: المتحف الإسلامي بالقدس في المجلد الخاص بالقدس (١٩٨٣) من وقائع أعمال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المكرس الفلسطين.

٣ـ شعث شوقي: القدس الشريف دراسة تتناول التعريف بمدينة القدس الشريف ١٩٨٨ ، الرباط، المنظمه الاسلاميه للتربيه والثقافه والعلوم .

٤ـ الموسوعة الفلسطينية: المجلد الرابع ١٩٨٥ .

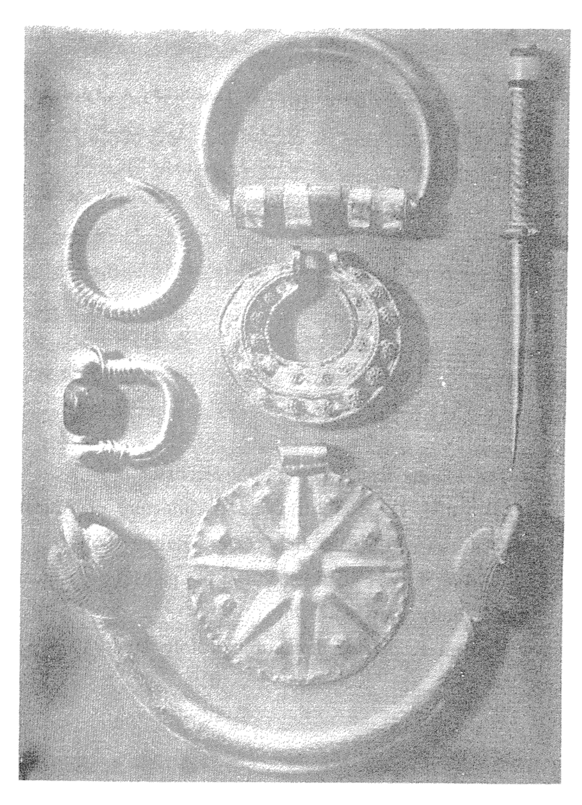
٥ـ وصف معروضات المتحف الفلسطيني بالقدس، ثلاثة أجزاء وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة بدأ صدورها في عام ١٩٤٣ .

6 - The **Middle** East Guide , 1966 Hachette.

7 - Bra mki D. ,The Art and Architecture of Ancient palestine , PLO Research center Beirut 1969.

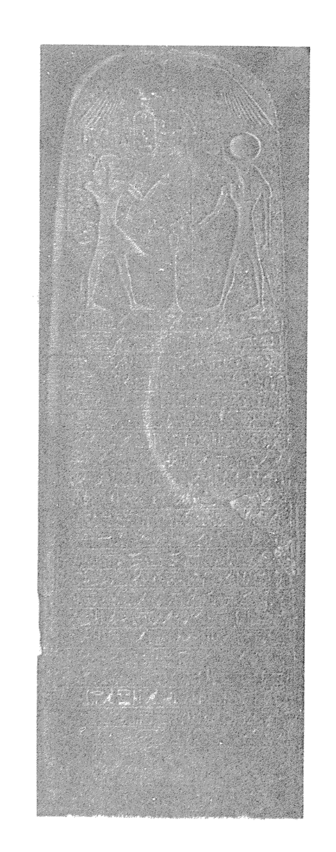
8 - Albright W.F , Archaeology of palestine , pelican Book ,Fully revised، 1960.

9 - Kenyon K. Archaeology of the Holy land ، 1979.



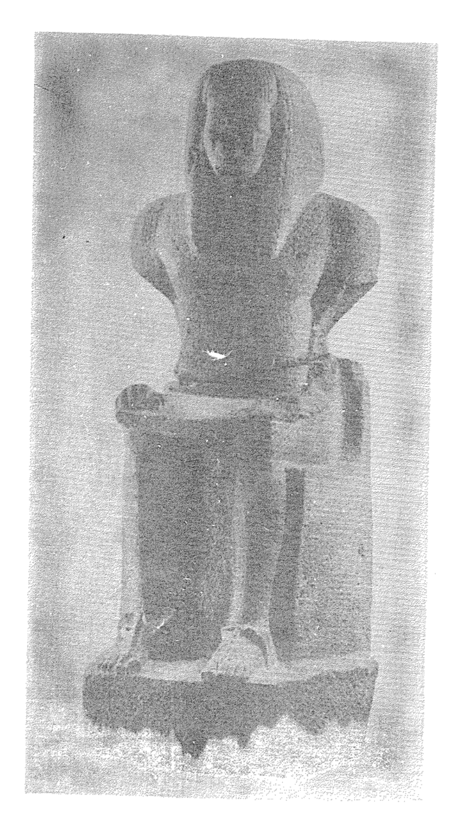
صورة (١)

حُلي ذهبية (تل العجول)، العصر البرونزي الحديث



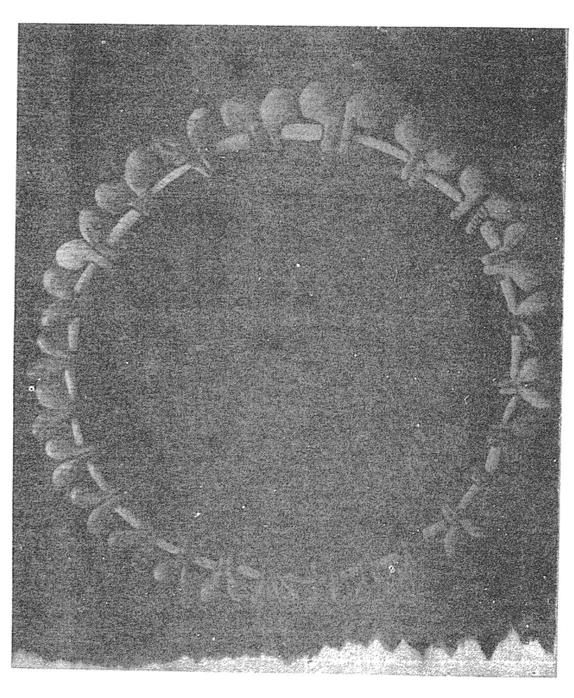
صورة (٢)

نصب سيتي الأول من بيسان



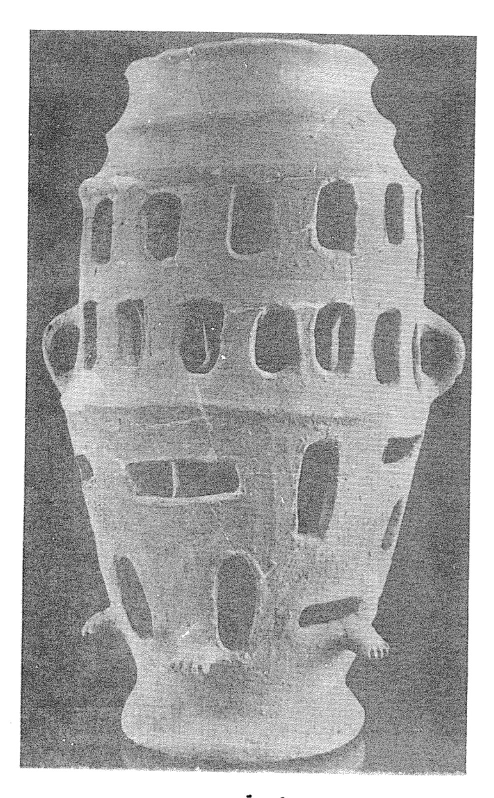
صورة (٣)

تمثال رمسيس الثالث من بيسان



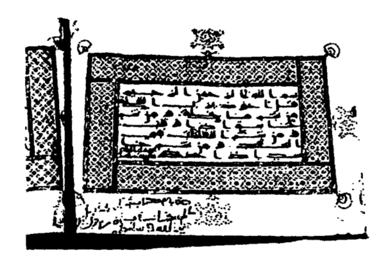
صورة (٤)

عقد عثر عليه في أحد مدافن كهوف الكرمل من العصر النطوفي

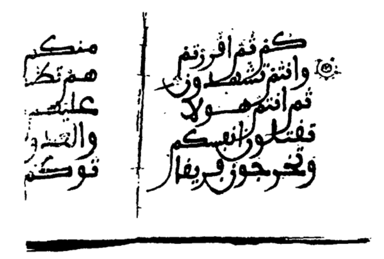


صورة (٥)

مبخرة من تل العاي البرونز
الباكر ـ الدور الثالث



أ - إحدى صفحات المصحف الكوفي - القرن الثامن الميلادي



ب - إحدى صفحات المصحف المغربي - القرن الثالث الميلادي

شكل (١٣)

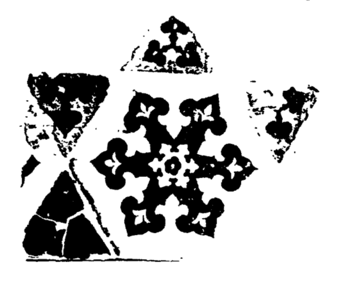
أ ـ نموذج من بلاط قبة الصخرة، يعود للفترة الأولى، القرن ١٥، ١٦ م



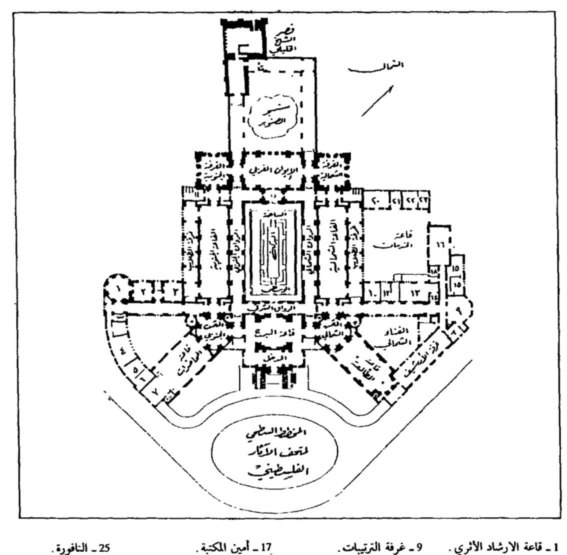
ب ـ نموذج من بلاط قبة الصخرة يعود للفترة الرابعة ـ القرن ١٧، ١٨ م



ج ـ نموذج سداسي من بلاط قبة الصخرة للفترة الرابعة، القرن ١٧، ١٨م



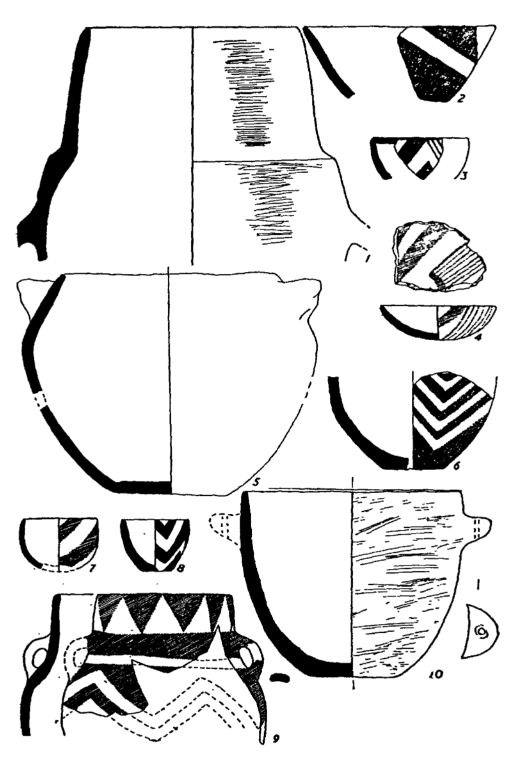
شكل (١٤)



1 ـ قاعة الارشاد الأثري.
2 ـ الرئاسة.
3 ـ رئاسة التفتيش.
4 ـ مكاتب.
5 ـ مكاتب.
6 ـ مكاتب.
7 ـ غرفة المشاريع.
8 ـ المودع.
9 ـ غرفة الترتيبات.
10 ـ مساعد المودع.
11 ـ فنيو المتحف.
12 ـ غرفة المراجع.
13 ـ غرفة الاستقبال.
14 ـ مصعد الحمولة.
15 ـ غرفة تصوير.
16 ـ غرفة تصوير.
17 ـ أمين المكتبة.
18 ـ مخزن المسودات.
19 ـ منصة التفريغ.
20 ـ النجارة.
21 ـ موقف السيارات.
22 ـ مخزن.
23 ـ مخزن لحفظ المواد غير القابلة للاشتعال.
24 ـ مساعد أمين المكتبة.
25 ـ النافورة.
26 ـ غرفة الساعات.

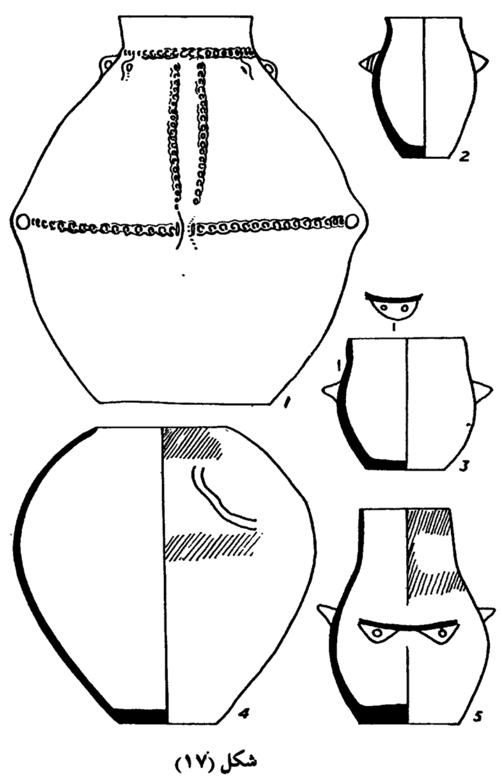
شكل (١٥)

مخطط مسطح للمتحف الفلسطيني



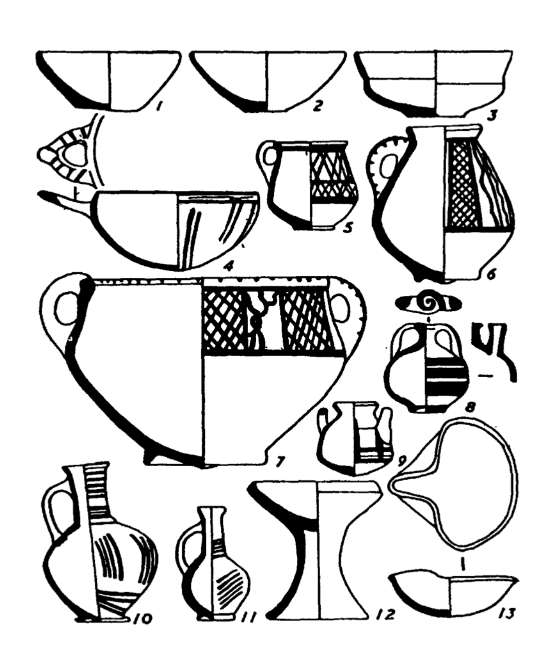
شكل (١٦)

أوان فخارية من العصر الحجري الحديث من أريحا



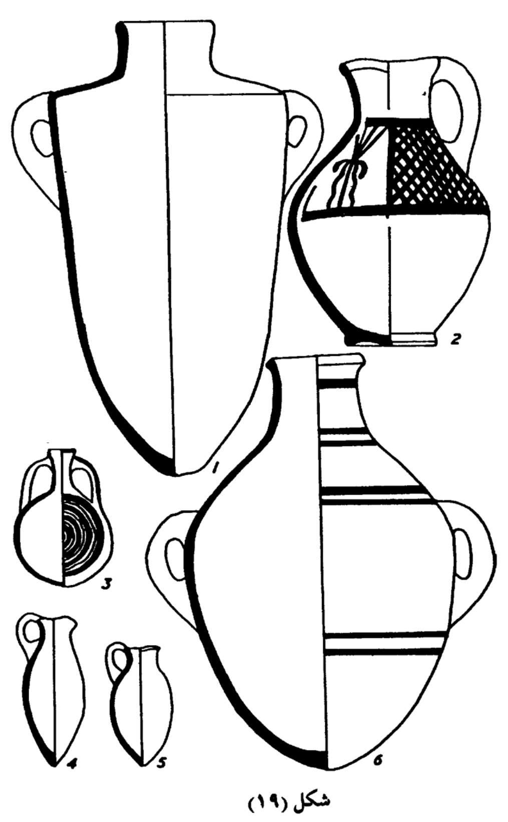
شكل (١٧)

أوان فخارية من موقع تليلات الغّول



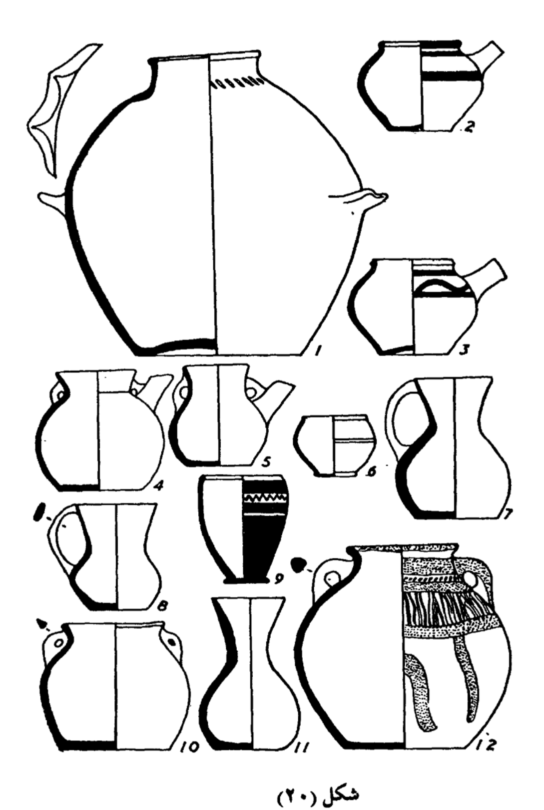
شكل (١٨)

أوان فخارية من العصر البرونزي الحديث ـ الدور الثاني من مجدو



شكل (١٩)

أوان فخارية من العصر البرونزي الحديث ـ الدور الثاني من مجدو



شكل (٢٠)

أوان فخارية من مدافن مجدو من العصر البرونزي القديم ـ الدور الرابع

القاضي الفاضل

(٥٢٩/٥٩٦هـ / ١١٣٥/١٢٠٠م)

«ولد بفلسطين ونشأ وترعرع فيها، انتقل إلى مصر وقاده حظه إلى تولي ديوان الإنشاء في العهد الفاطمي ثم الوزارة في العهد الأيوبي، صحب السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق وغيرها من البلدان الأيوبية، كان طيلة حياته الوزير والمشير والناصح إلى السلطان صلاح الدين ومن بعده إلى أهل بيته».

هو عبد الرحيم أبو علي محي الدين المعروف بالبيساني، ولد بعسقلان ونشأ بمدينة بيسان وانتسب أو نُسب إليها حيث كان والده يتولى القضاء بالمدينة، كان ضعيف البنية أحدبا، وكان يلقب بـ «محي الدين» على الغالب ولكننا نجد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون يخاطبه في رسائله «مجير الدين»، وبعد أن توفي والده انتقل مع أهله إلى مدينة الاسكندرية وهناك استكتبه قاضيها «بن جديد» فأظهر مهارة فائقة في تلك المهنة قادته تلك المهارة إلى ديوان الإنشاء الفاطمي في عهد الخليفة الظافر وظل فيه في عهد الخليفة العاضد، وعندما انهارت السلطة الفاطمية بالقاهرة عهد إليه السلطان صلاح الدين الأيوبي بالوزارة وظل فيها حتى وفاة السلطان.

ثقافة القاضي الفاضل

لاتمدنا المصادر التاريخية بالكثير عن ثقافة الفاضل الأولى، ويظهر أنه تثقف على الطريقة الشائعة في عصره حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما أطلع على

أمهات الكتب العربية الإسلامية في التاريخ والأدب والفقه والثقافة الإسلامية بشكل عام، وكانت هذه المرحلة من حياته بفلسطين بلده ومسقط رأسه.

سمع الحديث من الحافظ أبي القاسم بن عساكر وطاهر السلفي وأبي محمد العثماني وأبي الطاهر بن عوف، وهناك شخصية هامة كان لها أثرها الكبير في حياة القاضي الفاضل تلك الشخصية كانت يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال والملقب بالموفق وكان هذا صاحب ديوان الانشاء في دولة الحافظ أبي الميمون الفاطمي، فمما قاله العماد الكاتب في كتاب الخريدة عنه «هو ناظر مصر وإنسان ناظرها وجامع مفاخرها وكان إليه ديوان الإنشاء وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء»، وظل ابن الخلال هذا بديوان الانشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة فانقطع في بيته وظل القاضي الفاضل وفياً له راعياً له حق الصحبة والتعليم فكان يجري عليه كل ما يحتاج إليه إلى أن مات (ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ٢ ص ٤٠٦ ص٤٠٧).

وهناك ثلاثة أمور تشهد على ثقافةالقاضي الفاضل وتعطشه إلى حب المعرفة أولها: فيض الرسائل التي كان يكتبها والتي تدل على تمكنه من الثقافة العربية الإسلامية في القرآن والحديث والتاريخ واللغة الأدب، وثانيها: المدرسة التي أنشاها في درب الملوخية بالقاهرة وسميت «بالمدرسة الأفضلية» نسبة إليه عام ٥٨٠هـ وثالثها: العناية الشديدة بالكتب وحبه لها وصرف الأموال الطائلة في شرائها واستنساخها «وله نساخ لا يفترون ومجلدون لا يسأمون، بلغت كتبه مائة وأربعة عشر ألف كتاب وهذا قبل أن يموت بعشرين سنة».

مكانة القاضي الفاضل بالدولة الأيوبية:

ذكرنا سابقاً أن القاضي الفاضل عمل مع قاضي الاسكندرية «بن جديد» ثم انتقل إلى ديوان الانشاء في الدولة الفاطمية بالقاهرة بناء على أمر من العادل بن صالح بن زريك الوزير الفاطمي بعد أن سمع بفصاحته وعلو قدمه في الإنشاء من والي الاسكندرية، محرزاً بذلك مكانة مرموقة لدى الخلفاء الفاطميين، وعندما انتقل الحكم في مصر إلى النوريين ثم إلى الأيوبيين، انتقل القاضي الفاضل إلى خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي فقربه منه وأغدق عليه وكلفه بالوزارة وظل يكتب للسلطان رسائله وهي المهمة التي نجده كان يقوم بها في العهد الفاطمي، فكانت بذلك للقاضي الفاضل منزلة لا تدانيها منزلة رجل دولة في عصره ويبدو أن ذلك راجع إلى أن الفاضل كان من الرجال القلائل الذين وقفوا إلى جانب السلطان صلاح الدين وساعدوه على الإطاحة بالخلافة الفاطمية ومكنوا له في مصر، فلم ينس السلطان الأيوبي ذلك الصنيع للقاضي الفاضل فأحلّه المنزلة التي يستحقها، فكان يكلفه أحياناً بتصريف شؤون الدولة أثناء غيابه عن مصر وكان يطلب النصح منه ويستشيره في كثير من الأحيان، ومما يشير إلى منزلة القاضي الفاضل الرفيعة لدى السلطان صلاح الدين ما قاله مخاطباً أمراء الجند بقوله **«ما فتحت البلاد بالعساكر وإنما فتحتها بكلام الفاضل»**، وفي مكان آخر نجده يقول للأمراء **«لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل»**، وفي هذا بالطبع تشريف كبير يدل على منزلة رفيعة بلغها القاضي الفاضل في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي واعتراف صريح بدور القلم في تاريخ الحروب.

ولعل هذه المنزلة الرفيعة التي بلغها الفاضل عند السلطان هي التي دفعت الخاصة والعامة من الناس إلى أن تلجأ إليها ليكون لسانهم ورسولهم إلى السلطان وكانت الخاصة مثل نواب السلطان إذا أرادوا عملاً وترددوا فيه وخافوا مغبته هرعوا للفاضل يستشيرونه كي يحتموا برأيه لأن الأمر الفاضلي كان كالأمر السلطاني فإذا استشاروا خلصوا من كل تبعة ودرك.

ومن الحوادث التي تشير أيضاً إلى منزلة الفاضل الكبيرة لدى السلطان هو ما حدث والسلطان محاصر مدينة صفد، فقد بلغه أن جماعة من أهل مصر ثاروا مطالبين بالعودة إلى الحكم الفاطمي، ولكن لم يصغ إليهم أحد وصادف وصول البلاغ وصول جماعة من أولاد الوزراء المصريين والأمراء المقدمين الذي كانوا يرغبون في مقابلة السلطان، فلم يسمح لهم بالدخول وهَمّ بطَرْدهم انزعاجاً مما حدث وقال: «إلى متى نتحمل منهم هذا؟» فدخل عليه القاضي الفاضل وطيب خاطره وخاطبه بقوله: «يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك أليس لم يلب دعوتهم أحد وتحقق زيادة منزلتك عند الله تعالى». فاغرورقت عينا السلطان وشكر الله على إحسانه عليه وآل على نفسه ألا يرد قاصداً ولا يخيب وافداً. إنّ هذه الحادثة وأمثالها تدلنا على أن القاضي الفاضل كان الوزير الناصح المشير فوثق به السلطان واحتفظ به في خدمته طيلة حياته.

القاضي الفاضل بعد صلاح الدين الأيوبي

بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي بدمشق، آل الأمر إلى ولده الملك الأفضل، فاستوزر ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير فسعى لدى الملك الأفضل لإبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه وأن يتخذ له أمراء وأصحاباً غيرهم فأصغى إليه وأعرض عن أصحاب أبيه ففارقه جماعة

منهم، كالأمير فخر الدين جهاركس وفارس الدين ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير والقاضي الفاضل لأنه رأى مالا يعجبه فاستأذن الملك الأفضل بالمفارقة فأذن له، ويذكر ابن واصل (مفرج الكروب، جـ٣، ص١٢أ)،أن عماد الدين الكاتب سأل الملك الأفضل في هذا بقوله «لم تركت القاضي الفاضل يرحل والملك بتحوله يتحول»، فأجابه بأنه يعرف الصواب و لم يردّ الجواب. وعندما وصل القاضي إلى الديار المصرية خرج الملك العزيز عماد الدين إلى استقباله وأحله غاية الأجلال وأحله محل الديار وصار لا يصدر إلا عن رأيه ومشورته وفعل هذا مع أصحاب أبيه وأمرائه ومماليكه، ويذكر ابن خلكان (ص٢٢٨) «بأن القاضي الفاضل استمر عند العزيز لأنه كان يميل إليه في حياة والده، في تلك المكانة من الرفعة ونفاذ الأمر».

وعندما بدأ الخلاف يدب بين أبناء البيت الأيوبي اعتزل القاضي الفاضل وابتعد بنفسه عن مخالطتهم عندما رأى اختلاف أحوالهم وفساد أمورهم إلا أنه عندما احتكموا إليه ورأى أن المصلحة تقضي بالصلح بينهم توسط بين الملك الأفضل والملك العزيز ونجح في ذلك وحلف كل منهم للآخر.

ظل القاضي الفاضل وفياً للمبادىء التي أرسى قواعدها السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى أن وافاه الأجل في ١٧ ربيع الآخر عام ٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م عن عمر يناهر السبعين عاماً وبوفاته ختمت صناعة الإنشاء على حد قول ابن واصل (مفرج الكروب، جـ٣، ص١١٠). توفي القاضي الفاضل فجأة عند دخول الملك العادل أبي بكر أخي صلاح الدين القاهرة ودفن في تربته بسفح المقطم في القرافة الصغرى (ابن خلكان، ص٢٨٦)، واحتفل الناس في جنازته وزار قبره الملك العادل في اليوم التالي وتأسف عليه، ويقال إنه لما سمع أن الملك العادل

أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر أو يجري في حقه إهانة فأصبح ميتاً (الدارس، جـ١، ٢٩٢).

الفاضل كاتباً وأديباً

إذا أطلعنا على ما أنشأه الفاضل من كتب سواء كانت تلك الكتب بمثابة كتب توليه بوظيفة أو مراسلات دبلوماسية أو غيرها نجدها في غاية الإتقان والإحكام والجمال، مليئة بالكلمات الجميلة والاستشهادات الفصيحة وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على سعة علم وسعة إطلاع، كما نجدها وقد تحلت بالسجع وانتقاء الألفاظ والاستشهادات الكثيرة من القرآن والسنة.

وهناك أمثلة من إنشائه يضيق المقام هنا عن عرضها كلها ولكن من المفيد أن نختار بعضاً من بعضها وهو الخطاب الذي أرسله الفاضل من دمشق إلى السلطان صلاح الدين يهنئه بالنصر العظيم في حطين، وهي المعركة التي لم يحضرها الفاضل.

«صبّح الخادم طبريه فافتضّ عذرتها بالسيف وهجم عليها هجوم الطيف وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعالجهم فلم يقدوروا على الخداع والختل وجاء الملك ومن معه من كفاره ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت أسفاره، فأضرم الخادم عليهم ناراً ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد وتسنوا هضبة رجاء أن تنجيهم من حد السيوف الحداد ونصبو للملك خيمة حمراء وضعوا على الشرك عمادها وتولت الرجال حفظ أطنابها فكانوا أوتادها فأخذ الملك أسيراً وكان يوماً على الكفار عسيراً وأسر

الا برنس، لعنه الله، فحصد بذره وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره...» (ابو شامه، الروضتين، جـ٢، ص٨٧).

ومن رسالة أوردها ابن شداد (الأعلاق جـ١، ص ٢٠٤و ص٢٠٥) كتبها الفاضل إلى السلطان صلاح الدين يهنؤه فيها بفتح القدس، «ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها منهم كل شريد طريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، فلمانزلها الخادم رأى بلداً كبلاده وجمعاً كيوم التناد وعزائم قد تألبت وتألقت على الموت فنزلت بعرضته وهان عليه مورد السيف وأن تموت بغصته فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة، ولجيج وعره غرمة، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجه قد نزلت مكان الوساطه من عقد الدار فعدل إلى جهة اخرى كان للمطامع عليها معّرج، وللخيل فيها متولج فنزل عليها، وأحاط بها..وبرز إليها ثم بارزها وحاجزها ثم ناجزها...فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنيات معوله وحل عَقدِه بضربة الأخرق.... (ابن شداد الأعلاق الخطيرة جـ١، ص٢٠٤ – ٢٠٥)

وهناك رسالة له في وساطة كتبها للسلطان يتشفع فيها لخطيب لنقله من عيذاب إلى الكرك ذكرها ابن خلكان (ص٣٨٤) نقتطف منها: «أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته وتقبل عمله

بقبول صالح وأثبته وأخذ عدوّه قاتلاً أو بينه وأرغم أنفه بسيفه أو كتبه خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب ولما نأى المنزلة عنها وقل عليه المرفق فيها وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض بذكرها ووجب على أهلها شكرها هاجر من هجير عيذاب ولطحها سارياً في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صبحها وقد رغب في خطابة الكرك

وهذا خطيب وتوسل بالملوك في هذا الملتمس وهو قريب ونزع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف السلام».

وله في وصف قلعة يعتقد أنها قلعة كوكب «وهذه القلعة عقاب في عقاب ونجم في سحاب وهامة لها الغمامة عمامه واغله إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامه»

وقال في وصف دمشق في كتاب لأحد أصدقائه:

«فلما قربت من بساتينها ولاح لي فيح ميادينها وتوسطت جنة واديها ورأيت ما أودعه الله فيها وسمعت عند ذلك حماماً يغرد وهزاراً يشدو ويردد وقمرياً ينوح، وبلبلاً بأشجانه يبوح فوقفت اثني على باريها وأكاد بالدمع أباريها.

وكانت النفس قد ماتت بغصتها فعند ذلك عادت روحها فيها

وله في وصفها أيضاً:

سلام على تلك الخلاق إنها هي الثمرات الطيبات إذا تجنى

فلا فلّ صرف الدهر حد شبابها ولا صبحت إلا السعادة واليمنا

القاضي الفاضل شاعراً

إلى جانب الكتابة وصناعة الإنشاء كان الفاضل شاعراً ولكنه اشتهر بالكتابة أكثر من اشتهاره بالشعر، له ديوان مطبوع في جزأين حققه الدكتور أحمد أحمد بدوي وابراهيم الأبياري؛ شعره متعدد الأغراض في المديح والرثاء والوصف والهجاء والحكم والزهد والغزل وهو على العموم دون نثره. يقول النعيمي نقلاً عن ابن كثير (ص ٩٢ – ٩٣) «والعجب أن القاضي الفاضل مع براعته وفصاحته التي لا

يداني فيهما ولا يجارى، لا يعرف له قصيدة طويلة طنانة،وإنما له ما بين البيت والبيتين والثلاثة في أثناء الرسائل وغيرها».

إلا أن البعض ينكر ذلك ويقول بل له قصيدةً طويلة طنانة فوق الثلاثين بيتاً وهناك غيرها أطول منها ومطلع تلك القصيدة:

و لله روض بالحدائق محدق وبكل ما تهوى النواظر موفق

ومن الأمثلة الأخرى على شعره ما ورد في كتاب بخط يده مرسل إلى الخليفة الناصر لدين الله في بغداد:

ومن الغرائب أن تسير غرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس أقتل ما يكون له الظما والماء فوق ظهورها محمول

ونجده في مكان آخر يقول الشعر مخاطباً معاشر الخدم أي قادة الجيش وأرباب العقول بقوله:

تعقب الرأي وانظر في أواخره فطالما التهمت قدما أوائله

نجده يخاطب السلطان صلاح الدين بقوله:

تهاب لك البلاد تحل فيها ولولا الليث ما هيب العرين

بعض ما قاله معاصروا الفاضل فيه

هناك أقوال كثيرة قالها الكتاب في الفاضل تدل على علو منزلته الثقافية منها، ما قاله النعيمي: «صاحب العبارة والفصاحة والبلاغة والبراعة» (الدارس، جـ١، ص.٩٠)

ويقول ابن خلكان نقلاً عن العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة في حقه (وفيات الأعيان ص٢٨٤) أي في حق الفاضل «ربّ القلم والبيان واللسن واللسان والقريحة الوّقادة والبصيرة النقّادة والبديهة

المعجزة والبديعة المطرزة والفصل الذي ما سمع الشرائع ورسخت بها الصنائع يخترع الأفكار ويقترع الأبكار ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار»...

ويقول السبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى (جـ٣، ص٢٥٣) عن الفاضل «إمام الأدباء وقائد لواء أهل الترسل بل وصاحب صناعة الانشاء، أجمع أهل الأدب على أن الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسل من بعده مثله ولا من قبله بأكثر من مئتي عام».

خاتمة

عاش القاضي الفاضل حياته كلها باذلاً نفسه وماله في سبيل وطنه ودينه زائداً عنهما بقلمه وعقله وماله، دافعاً عن الدولة الأيوبية الموحدة كل سوء، وعندما تفرقت الكلمة وتجزأت الوحدة لم يعجبه ذلك وانسحب من الحياة السياسية ولكنه ظل داعياً للوحدة والوفاق والاتفاق، لم يطمع القاضي الفاضل في الجاه أو المال فقد تحقق له من الجاه ما أكسبه حقد حساده، وتحقق له من المال ما عجز بيت مال ملوك عصره عن امتلاكه، لقد كان الرجل وحدويّاً بطبعه ومسيرته فهو فلسطيني المولد والنشأة عاشق لمصر محب للشام، خدم في مصر ثم في دمشق الشام وكان في كل وظائفه التي شغلها محباً للخير وناصحاً ومرشداً، داعماً لعمل الخير متمسكاً بدينه وخلقه مخلصاً لسيده ولوطنه الكبير، الدولة الأيوبية، لا تأخذه في قول الحق لومة لائم، منطلقاً في ذلك من القاعدة الفكرية التي تربى عليها والمرتكزة على معين لا ينضب من المعرفة والثقافة.

هذا هو القاضي الفاضل الكاتب والوزير والمشير فالمكانة الرفيعة التي أحرزها هذا الكاتب المبدع تدل على ما كان للكاتب من مكانة مؤثرة في حياة الشعوب الثقافية والسياسية والعسكرية وماله من دور في

كسب الانتصارات، ويعترف بذلك السلطان الناصر صلاح الدين، الذي أنجز أكبر انتصار على الأفرنج الصليبيين في عصره مخلصا بذلك بلاد العرب والمسلمين، من استعمار استيطاني محقق لو تم لكانت بلادنا اليوم بلاداً يسكنها الغرباء، يعترف بقوله مخاطباً أمراء جنده في إحدى لقاءاته بهم، «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم فحسب بل بقلم القاضي الفاضل»، ولا شك أن الكتاب والأدباء والشعراء كانوا ومازالوا يلعبون الدور البارز في تحقيق النصر في معارك الحرية والوحدة فالكلمة تفعل فعل الرصاص، إن هي وظفت التوظيف الصحيح، في خدمة قضايا الأمة، والقاضي الفاضل مثال لأولئك الكتاب الذين ساهموا في تحقيق الانتصارات لبلادهم وأمتهم وعملوا على وحدة شعوبها التي لولاها ما أنجز انتصار.

المراجع

١ ـ ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الكتور جمال الدين الشيال، ثلاثة أجزاء: ١٩٥٣/١، ١٩٥٧/٢، ٣ / بلا تاريخ

٢ ـ أبو شامة المقدسي عبد الرحمن بن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة ١٢٨٧ هـ

٣ ـ العماد الأصفهاني أبو عبد الله محمد بن محمد:

ـ الفتح القسي في الفتح القدسي،/ القاهرة، ١٣٢١

ـ خريدة القصر (قسم شعراء مصر) القاهرة ١٩٥١

٤ ـ القلقشندي الشيخ أبي العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، القاهرة ١٩١٥

٥ ـ الموسوعة الفلسطينية: مادة «عبد الرحيم البيساني»، المجلد الثالث، ط١، ١٩٨٤ .

٦ ـ ابن شداد عز الدين بن علي بن ابراهيم: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، عني بنشره وتحقيقه الدكتور سامي الدهان، مطبوعات المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٦ .

٧ ـ ابن خلكان القاضي أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة ١٣١٠ هـ، الجزء الأول.

٨ ـ السبكي تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى.

٩ ـ النعيمي عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، دمشق ١٣٦٧ ـ ١٣٧٠ هـ.

الآثار الفلسطينية وأهميتها الحضارية

تأتي فلسطين في طليعة البلدان العربية أهمية في مجال البحث الأثري، وقد بدأت تلك البحوث على يد الباحثين الأجانب وهي في ذلك تتساوى مع البلدان العربية، إلا أن البلدان العربية بدأت منذ نهاية النصف الأول من هذا القرن تأخذ الاستقلال الوطني وقد رافق ذلك في كثير من تلك البلدان قيام مؤسسات وطنية تعنى بالبحوث الأثرية والتاريخية، أما فلسطين فتعرضت إلى اغتصاب الصهيونية العالمية التي ادعت أنها الأرض التي وعد الرب بها شعبه المختار؟!!.

وقد استخدمت الصهيونية عدة وسائل لتبرير اغتصابها لفلسطين زوراً وبهتاناً ومن بين تلك الوسائل استخدام البحث الأثري وقد ساعدها في ذلك جيش من الباحثين الصهاينة والأوروبيين والأمريكيين.

- استخدام الآثار كوسيلة لتبرير الاغتصاب:

ورد في الكتاب المقدس (العهدين القديم والجديد أي التوارة والانجيل) ذكر لكثير من الحوادث التاريخية التي ارتبطت بها أسماء كثير من المواقع والشعوب غطت تلك الحوادث بلدان الشرق الأدنى (فلسطين وسوريا والعراق ولبنان وغيرها) وقد كانت فلسطين، أرض كنعان، مركز تلك النشاطات والحوادث، ومن أجل ذلك تطلعت الشعوب المسيحية الغربية إلى التعرف على طبيعة أرض كنعان ومناخها وجغرافيتها ونباتاتها وآثارها ومخلفاتها الحضارية أي باختصار أنها كانت تريد التعرف على طبيعة الأرض التي فيها انطلقت الديانتين اليهودية والمسيحية، والتي منها أسري بالرسول العربي الكريم وفيها ثاني

الحرمين الشريفين بالنسبة للاسلام. وهي بذلك الأرض المقدسة عند أصحاب الديانات التوحيدية الثلاث.

من أجل النهوض بأعمال تلبي رغبات أولئك المؤمنين المتعطشين إلى المعرفة، بدأ الرواد المستكشفون زرافات ووحدانا في اطار مؤسسات علمية، جمعيات ومعاهد وجامعات لتقوم بتلك البحوث، ومن أبرز تلك المؤسسات مؤسستان هما: صندوق الاستكشافات البريطاني وجمعية الاستكشافات الأمريكية، فقد رعتا كثيراً من البعثات الآثرية وموّلتها وساعدتها على القيام بتنقيبات ومسوح أثرية، وتطورت تلك الأعمال ونمت في ظل الانتداب البريطاني أي بعد عام ١٩٢٠ حيث أقيمت مدارس ومراكز للبحث الأثري في مدينة القدس وقدمت لها التسهيلات الكثيرة من قبل سلطات الانتداب البريطاني، ومن سوء حظ فلسطين وآثارها أن تصدى لتلك البحوث نفر من الآثريين التوارتيين الذين يفسرون حوادث التوارة ونصوصها بشكل يخدم تخصصهم الضيق فظلموا الآثار وظلموا أصحاب التوارة فوقعت فلسطين بذلك ضحية أخطر مؤامرة عرفها التاريخ حيث استغلت الصهيونية السياسية تفسيرات أولئك التوارتيين الحاقدين التي لا أساس لها، كما يشير كثير من المتخصصين المحايدين، فوجدوا فيها فرصتهم الذهبية التي تخدم أغراضهم وتطلعاتهم في إقامة كيان صهيوني لا يخدم إلا أعداء التوراة وأعداء أصحاب التوارة، وذلك نزولاً عند رغبة نفر من الصهاينة يتعطش إلى السلطة والسيادة، وحيث أنهم لم يتمكنوا من إقامة ذلك الكيان في أوربا أو أمريكا فقد تطلعوا إلى إقامته في بلدان الشرق الأوسط أو أفريقيا أو أمريكا الجنوبية وبعد جدل طويل وقع اختيارهم على فلسطين للاستفادة من التوارة بما تحويه من أفكار يمكن استغلالها لصالح ذلك الكيان، ناهيك عن أن قيام كيان صهيوني في

فلسطين سيخدم مصالح أوروبا وأمريكا في بلدان الشرق الأدنى والأقصى وتظل إمكانياتها مستنزفة باستمرار لتظل تشعر أنها بحاجة إلى البلدان الأوروبية والأمريكية فكان العقد القائم على تبادل المصالح بين الصهيونية والاستعمار.

بعد انتهاء الانتداب البريطاني وقيام الكيان الصهيوني نشطت المؤسسات الصهيونية في البحث الأثري وأصبح ذلك أمراً مهماً جداً وأساسياً لاضفاء الشرعية على الكيان المصطنع الجديد حتى أنه أصبح في بعض الأحيان من أسرار الدولة الصهيونية وقد شجع ذلك البحث الدولة العبرية باستمرار مادياً ومعنوياً فنجد جولدامئير التي كانت قبل وفاتها يوماً رئيسة لوزراء العدو تقول في إحدى زياراتها إلى الأثري / السياسي ايغال يادين «لابد من التفتيش عن تراثنا ولو بملعقة شاي» وتكررت زيارات المسؤولين الاسرائيلين إلى البعثات الأثرية تشجيعاً لها على أعمالها وتوجيهاً لنتائجها، وتعدى اهتمامهم بموضوع الآثار إلى إقامة المعاهد العلمية لاعداد الكوادر فقام هناك معهد للآثار في الجامعة العبرية بالقدس ومعهد ثان في جامعة بارايلان في تل أبيب وكلية الآثار بجامعة بن غوريون في بئر السبع وجمعية الاستكشافات الاسرائيلية ومصلحة المسح الأثري ودائرة ضابط الركن لشؤون الآثار بالضفة الغربية المحتلة وغيرها الكثير من المتاحف ومراكز البحث وقد قامت تلك المؤسسات باصدار مجلات ونشرات بلغ عددها اثني عشر مجلة ونشره في حقل الآثار والمتاحف (هذه المعلومات تعود إلى مطلع الثمانيات وربما زاد العدد الآن) (شكل ٢١).

إن هذه المحنة التي وقع فيها التراث الحضاري الفلسطيني تعتبر ظاهرة ملفتة للنظر فمن العدل، إذا أراد أصحاب المدرسة العلمية من الباحثين تخليص ذلك التراث مما لحق به من ضيم، أن يبادروا إلى التوقف عن

اعتبار أن ما صدر عن الباحثين الصهاينة من دراسات هي مصادر علمية صحيحة، كما لابد من أن يبادروا إلى نقدها وبيان مواطن الزلل فيها، خلاصة القول إن هذه المحنة التي نتحدث عنها تعتبر مأزق حضاري وقعت فيها الحضارة بفلسطين والعالم العربي لابد من معالجته،ومعالجته تكمن في معالجة المشروع الصهيوني السياسي برمته.

ـ المراحل التاريخية بفلسطين من خلال التنقيبات الأثرية العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط (الأشكال ٢٢، ٢٣، ٢٤):

ساعدت البحوث والدراسات الأثرية التي جرت بفلسطين من قبل البعثات الكثيرة على التعرف إلى العصور التاريخية التي مرت بها البلاد وعلى مخلفات تلك العصور التي عرضت في المتحف الفلسطيني بالقدس أو التي اتخذت طريقها إلى المتاحف الأوروبية والأمريكية بواسطة البعثات الأثرية أو عن طريق تجار العاديات، فالزائر إلى المتحف البريطاني بلندن أو متحف اللوفر بباريس أو متحف برلين (متحف بيرغامون) أو متاحف جامعات بنسلفانيا أو شيكاغو وغيرها الكثير، يشاهد الآثار الفلسطينية مبثوثة هنا وهناك وبالطبع تعود تلك الآثار إلى مختلف العهود التاريخية. ومن خلال الدراسات التي تمت حتى الآن، ومن خلال ما عرض بالمتحف الفلسطيني قبل الاحتلال الصهيوني يمكن أن نتعرف إلى العصور التي سبقت التاريخ فهناك لقى من العصور الحجرية القديمة عثر عليها في مغارة الطابون في جبال الكرمل مثل المكاشط الصوانية والفؤوس وبقايا الماموت والفيل والثور. في هذه المرحلة سكن الانسان الكهوف. وظل الانسان الفلسطيني بقوه العادة يسكن الكهوف في مطلع العصر الحجري الوسيط ولكن حدثاً هاماً جداً طرأ في حياته في هذه المرحلة فتغيرت أنماط عيشه حيث أدخلت الزراعة وتم تدجين الحيوان لأول مرة وأصبح الانسان هنا منتجاً للطعام

واعتبر ذلك ثورة حقيقية في الحياة البشرية شاركت فيها المرأة والرجل على حد سواء وتميزت الصناعة الصوانية في هذا العصر بالدقة وصغر الحجم، كما عرف الانسان الساحقة البازلتية والفأس الذي يربط إلى عصا خشبية أو عظمية في هذا العصر. كما شاعت في هذا العصر الثقافة النطوفية والتي عثر على أول مظاهرها في وادي النطوف في وسط فلسطين ومغارة الواد عند قدم جبال الكرمل بالقرب من عتليت، ويبدو أيضاً أن في هذا العصر عرف الانسان الخرز واستعمله في تكوين العقود وكان ذلك الخرز من الأصداف وعظام الحيوانات. ومن الحيوانات التي دجنت في هذا العصر الكلب فقد عثر على بقاياه في مغائر جبال الكرمل وهكذا يمكن القول أن العصر الحجري الوسيط قد عبد الطريق نحو تقدم الانسان لينتقل من السكن في الكهف إلى الإقامة في الهواء الطلق، وقد حدث هذا لأول مرة بفلسطين في منطقة الشرق الأوسط.

العصر الحجري الحديث وظهور القرى الأولى بفلسطين:

كان لفلسطين قصب السبق، دون غيرها من بلدان الشرق الأوسط في إقامة القرى الأولى كما ألمحنا سابقاً في نهاية العصر الحجري الأوسط (الدور النطوفي)، وقد تطورت هذه القرى في العصر الحجري الحديث فكانت بمثابة الثورة الحقيقية في الاقتصاد البشري آنذاك، فإلى جانب معرفة القرية والزراعة وصناعة الفخار والطوب والنسيج ودجّن الحيوانات خاصة الأغنام التي استفاد من حليبها ولحمها وصوفها وجلودها كما استبدلت الأدوات الصوانية الصغيرة بأدوات أكبر حجماً وذات تقنية عالية، وتمكن انسان هذا العصر مع صنع السهام بأشكال متعددة منها التي تحمل شكل V أو التي تحمل ورقة الغار المضاف إليها اللسان، كما تمكن من صنع رؤوس الحراب والمناشير

المسننة الأطراف للتمكن من نشر الخشب والعظم ونصال السكاكين ذات المقابض التي كانت تستعمل لقطع جلود الحيوانات إلى شرائح جلدية إلى جانب استعمالات أخرى.

على العموم يمكن دراسة العصر الحجري الحديث بفلسطين في أريحا في الطبقة التي تلي طبقة العصر النطوفي حيث اكتشفت الانسة (كينيون) بقايا استيطان يعود إلى مطلع العصر الحجري الحديث حيث تم التعرف إلى عدة أرضيات لأكواخ بنيت بمواد خفيفة وقابلة للتلف وقد عثر على أدوات عظمية وصوانية تحمل ملامح صناعة العصر النطوفي فوق سويات العصر النطوفي حيث تم تمييز أربعة سويات تعود إلى العصر الحجري الحديث أقدم هذه السويات تدعى السوية السابقة للفخار(أ) وقد كانت البيوت هنا مبنية من القوالب الطينية المحدبة المصنوعة بواسطة اليد بأشكال دائرية وتمتد إلى مساحة تصل عشرة فدادين وكان القرية محصنة بواسطة سور حجري يبلغ سمكه متران مقوى في نقطة من النقاط ببرج دائري ويعرف هذا الدور بالدور الطاحوني (الشكل ٢٥).

واكتشف فوق هذه السوية في أريحا سوية ثانية تعرف بالسوية السابقة للفخار (ب)، وهنا بنى السكان الجدد بيوتهم بأشكال مستطيلة بنيت بقوالب طينية على شكل سيجار ورصفت الأرضيات بملاط كلسي مصقول كتلك التي عثر عليها في جبيل (بيبلوس) بلبنان.

بعد تدمير أريحا في عصر ما قبل الفخار (ب)، استوطن شعب جديد المدينة جالباً معه الفخار ويمكن تقسيم فخار العصر الحجري الحديث في أريحا هذا إلى قسمين، فخار العصر الحجري الحديث (أ) وفخار العصر الحجري الحديث (ب).

نجد حضارة العصر الحجري النحاسي بفلسطين التي تعاصر في دورها الباكر تقريباً حضارة حَلَفْ بسوريا وحضارة العبيد في العراق

وحضارة الامراتي Amaratian الباكرة في مصر وفي دورها المتوسط تعاصر تقريباً حضارة اوروك في العراق وحضارة الامراتي المتأخرة والجرزية الباكرة في مصر، وفي دورها المتأخر تعاصر حضارة جمدة نصر في العراق والحضارة الجزرية المتأخرة والتسيانية في مصر Tasian. (الشكل ٢٦)

عثر على أمثلة من حضارة العصر الحجري النحاسي الباكرة في وادي غزة وفي أريحا الطبقة الثامنة حيث اكتشفت أوان على شكل طيور في وادي غزة مع مكاشط صوانية وعدد كبير من السهام، وعثر على مخلفات حضارة العصر الحجري النحاسي الوسيط في وادي الأردن بتليلات الغسول، كما عثر على بقايا المرحلة الثالثة من هذا العصر في تل أبو مطر إلى الجنوب من بئر السبع (شكل ٢٧) وفي الخضيرة.

تقسم العصور التاريخية في العصر البرونزي بفلسطين وبلدان الشرق الأدنى المجاورة اعتماداً على المخلفات الأثرية إلى ثلاثة عصور هي: العصر البرونزي الباكر والعصر البرونزي الوسيط والعصر البرونزي الحديث ويمكن تقسيم كل عصر من هذه العصور إلى أدوار ثانوية.

أظهرت التنقيبات الأثرية كثيراً من البقايا المعمارية من هذا العصر منها القصور والمعابد فقد اكتشف معبد في تل العاي بني على شكل مستطيل جعل مدخله في الجدار الطويل وبنيت البيوت الخاصة بنفس الطريقة التي بنيت بها المعابد والقصور وقد بنيت في معظمها من طابق واحد. أما المخلفات الأخرى فتظهر منها الدمى الطينية والنحاسية والأسلحة والأختام والحلي.

وإذا ألقينا نظرة على ما عرض في المتحف الفلسطيني بالقدس إبان الانتداب البريطاني والحكم العربي الأردني نجد أن هناك مجموعة من الفخار عرضت من العصر البرونزي القديم عثر عليها في مجدو / تل

المتسلم، وتل النصبة، وتل عاي / التل، وتل الدوير (لاشيش)، أما ما عرض من لقى تعود إلى العصر البرونزي الوسيط فمن أهمها: جزء من تمثال مصري من الديوريت عثر عليه في مجدو إلى جانب أسلحة وأوان وتماثيل مصرية من الالباتر وأختام مسطحة عليها كتابات مسمارية، ومن العصر البرونزي الحديث عرض تمثال للرب «ميكال» من الحجر الكلسي عليه كتابة هيروغليفية، وأوان فخارية قبرصية من مجدو، وفأس برونزي من أصل حثي وأوان مسينية تشير إلى العلاقات بين مسينا وفلسطين كما مر معنا في فصل متاحف القدس.

العصر الحديدي بفلسطين:

يبدأ العصر الحديدي بفلسطين كما يشير أكثر الأثريين في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد وينتهي حوالي عام ٥٨٦ ق.م وهي السنة التي استولى فيها الملك الكلداني نبوخذ نصر على القدس أو نهاية العصر الكلداني، ولعل ما يميز هذا العصر بفلسطين هو تعرضها إلى غزوات شعوب أتت من البحر أي من الغرب وشعوب أخرى جاءت من الصحراء من الشرق والجنوب، فقد جاء الفلستين من البحر من الشمال والغرب وجاء العبرانيون من الشرق والجنوب وتحدثنا الروايات التاريخية عن النزاع الطويل الذي جرى بين الطرفين. وأشارت البحوث الأثرية التي جرت بفلسطين، أن الفلستين الذين هم جزء من شعوب البحر حملوا معهم حضارتهم التي نجد آثارها منتشرة في أماكن كثيرة بفلسطين في حين لم يحمل العبريون البدو (الاسرائيليون القدماء) معهم أية حضارة إلى فلسطين، ولكنهم عندما سكنوا إلى جوار أهل البلاد المتحضرين وبواسطة احتكاكهم بالفلستيين نقلوا عنهم الكثير مما مكنهم من الاستقرار وبالتالي اغتصاب قسم من البلاد بسبب تفرق كلمة أهلها وضعف القوى العظمى في ذلك الزمن و لم تطل تلك

السيطرة فانقسم العبريون على أنفسهم و لم يستطيعوا حماية أنفسهم عندما اتجهت أشور وبابل الكلدانية إلى الغرب لتأمين مصالحهما الحيوية.

من أهم الآثار المكتشفة نتيجة التنقيبات الأثرية بفلسطين والتي عرض قسم منها بالمتحف الفلسطيني (قبل الاغتصاب): النواويس الطينية التي عثر عليها في بيسان وتل الفارعة الجنوبي التي تحمل تأثيرات مصرية ومجموعة من الفخاريات المستوردة والمصنوعة محلياً عثر عليها في مجدو وعين شمس وعسقلان وتل جزر وتل الفارعة وتل أبو حوام كما عثر على مجموعة من القطع العاجية النفسية في مجدو تعود إلى القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد وقد صنعت تلك العاجيات وفق أسلوب المدرسة الفنية الفنيقية الذي نجده يتطور وينتشر في المنطقة الممتدة من اسبانيا إلى نينوى فيما بعد. هذا إلى جانب مشابك ومسامير برونزية وبعض قطع النحاس من تل الخويلفة وجبل الكرمل، وتل النصبة وتل الفارعة وتل جمة ومجدو وعين شمس، ونصوص وجعلان وأختام كلها تعود إلى الفترة الواقعة ما بين ١٠٠٠ و ٥٨٦ ق.م.

فلسطين في العصور الفارسية والكلاسية:

أظهرت التنقيبات الأثرية بفلسطين انتشار المخلفات الحضارية التي تعود إلى العصر الفارسي فقد عثر على سرير ومقعد يعود إلى هذا العصر في تل الفارعة وجره في تل الدوير ومجموعة من الفخار اليوناني الذي شاع في الشرق ابان الحكم الفارسي وأغلب الظن أنه كان يصنع محلياً، كما عثر على صحون من البرونز والفضة وكؤوس فخارية في تل الفارعة وتل الجزر وعسقلان وبيسان وتل الحسي وتل جمة وسبسطية

والطنطورة وعتليت وأبو حوام، هذا إلى جانب تمثال يمثل (عشتاروت الأم) عثر عليه في مجدو وتمثال ربة الخصب من تل الصافي ومجموعة أختام مخروطية الشكل وختم أسطواني من اللازورد من تل جمة.

وينطبق الأمر نفسه تقريباً على مخلفات العصرين الهلينسي والروماني بفلسطين فقد أبانت التنقيبات الأثرية التي جرت في كثير من المواقع الأثرية بفلسطين كثيراً من اللقى الأثرية التي تعود إلى هذا العصر فهناك مكاحل وأقراط ذهبية من عتليت وأوزان برونزية من عسقلان وأوزان رصاصية وبرونزية وسرج ورؤوس تماثيل وتمثال لهرقل وآخر لأفرديت من تل صندحنة، وعثر كذلك على كثير من المخلفات الحضارية في كثير من المواقع بفلسطين التي تعود إلى هذه الفترة التاريخية.

لفائف البحر الميت:

عثر بخربة قمران بالقرب من البحر الميت على مجموعة من اللفائف المكتوبة على الجلد والنحاس في جرار فخارية في الفترة ما بين ١٩٤٧ ومطلع الستينات،تتحدث هذه اللفائف عن طريق الحياة والمعتقدات لطائفة من المواطنين في الفترة الواقعة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي ومن المؤسف أن هذه اللفائف نقلت من المتحف الفلسطيني إلى المتحف الاسرائيلي بعد اغتصاب القدس الشريف كما أشرنا سابقاً.

فلسطين في العصر العربي الاسلامي:

من أهم التنقيبات الأثرية التي جرت في المواقع الإسلامية بفلسطين التنقيبات في خربة المفجر التي قام بها هاملتون(R.W.Hamilton) وديمتري برامكة (١٩٣٥ــ ١٩٤٨) وقد أدت إلى اكتشاف قصر أموي وملحقاته كما أدت إلى اكتشاف فخار وقاشاني ونقود وفسيفساء

معظمها يعود إلى العصر الأموي من عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣م) ونقل قسم من زخارف القصر الجصية إلى المتحف الفلسطيني لتعرض هناك، وهناك التنقيبات الأثرية في خربة المنية (المينا) التي قام بها السيد مادروشيندر في عام ١٩٣٢ وفي الفترة ما بين (١٩٣٦-١٩٣٩) وفي عام ١٩٥٩ قام السيد برو Perrot مع آخرين بتنقيبات أثرية في خربة المينا لصالح جامعة ميشغن.

ولا يفوتنا هنا أن نقول أنه عبر العصور العربية الاسلامية بدءً من العصر الأموي قامت بفلسطين روائع العمارة الاسلامية مثل الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى والجوامع والمساجد والمدارس والخانات والتكايا والزوايا والأضرحة وفي هذا تتشابه مع مصر وسوريا خاصة في العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية، فالزائر للمدن العربية الاسلامية قبل الاغتصاب الاسرائيلي يقف على روائع العمارة العربية المنتشرة في المدن الفلسطينية كالقدس وحيفا وعكا ويافا ونابلس وغزة بحاراتها وأزقتها العربية الطابع أما اليوم فمن المؤسف حقاً القول أن العدو المغتصب قد قام بتغيير ملامح تلك المدن والمعالم الأثرية وتغيير بيئتها عن طريق هدمها أو تركها تنهار، أو عن طريق ادخال عناصر غريبة إلى بيئتها ففي القدس مثلاً هدمت حارات بكاملها وشقت شوارع عبر الأحياء السكنية وغيرت الأسماء وأقيمت المستوطنات الصهيونية الحديثة رغبة في الوصول إلى تغيير طابع المدينة العربي الاسلامي.

وللوقوف أمام تلك التعديات لابد من توثيق تلك المدن توثيقاً يصل إلى أدق التفاصيل المعمارية فيها مروراً بالشوارع والأزقة والمباني المختلفة الوظائف ولابد من حث العرب الفلسطينين في الداخل على إقامة الجمعيات والمتاحف والمعارض التي تهدف إلى تحسيس المواطن

العربي بأهمية تراثه الذي هو جزء لا يتجزأ من هويته الوطنية التي يسعى مناضلاً باستمرار للمحافظة عليها.

الصلات الحضارية مع البلدان المجاورة:

من خلال ما تم عرضه حتى الآن من المكتشفات الأثرية بفلسطين وما تم اكتشافه في البلدان العربية المجاورة، نستطيع القول إن الصلات الحضارية الوثيقة كانت قائمة مع مصر عبر العصور ذلك بدلالة المخلفات الحضارية التي عثر عليها في كلا البلدين منذ العصور الحجرية، كما أن هناك صلات حضارية كانت قائمة مع سوريا ولبنان والأردن والعراق، أكدتها الشواهد الأثرية المكتشفة حتى الآن، والتي تظهر فلسطين من خلالها مرة كالوعاء الذي التقت فيه التيارات الحضارية القادمة من البلدان المجاورة ومرة أخرى كالوعاء الذي تفيض منه التيارات الحضارية نحو البلدان العربية المجاورة، ولعل عوامل التأثير والتأثر هي التي ساعدت عبر العصور على بقاء الأمة العربية قوة حضارية متماسكة وإن بدت في وقت من الأوقات متفككة متباعدة ولعلها هي التي ساعدت على اعتبار قضية فلسطين قضيتها لأن فلسطين منها.

مستقبل البحث الأثري بفلسطين:

إن غياب الوطن وبالتالي السلطة الوطنية فوقه يعقد مشكلات البحث العلمي كلها ومنها البحث الأثري فالأرض الفلسطينية مغتصبة والشعب الفلسطيني مسلوب الحق في إقامة سلطة وطنية، إذن يمكن القول أنه لا توجد بعثات أثرية وطنية تعمل فوق الأرض الفلسطينية وإن وجدت بعض المؤسسات العلمية إلا أنها ممنوعة ومسلوبة الارادة، والتساؤل الذي يبزر إلى الذهن كيف يمكن للمؤسسات الفلسطينية

القيام ببحث علمي في مجال الآثار؟ وللاجابة على هذا التساؤل يمكن القول أنه على الرغم من صعوبة القيام بتنقيبات أثرية وطنية إلا أنه يمكن اعادة النظر في التنقيبات الأثرية السابقة ونتائجها وإعادة تقييمها وتقويمها لصالح التاريخ الوطني، كما يمكن دراسة ونقد الدراسات التي يصدرها العدو الصهيوني وبيان مواطن الدس والتزييف، وفي كلا الحالتين لابد أن يقوم بتلك المهمات مركز للبحث العلمي عماده كادر متخصص ومكتبته غنية بالمراجع وإذا استطعنا تحقيق ذلك فإنه بالإمكان تكوين جيل من الباحثين الفلسطينيين يستطيع أن يخوض المعركة الحضارية مع العدو الصهيوني ويعزز ويؤصل إيمان الأبناء والأحفاء بتراثهم ووطنهم وفي ذلك تجديد متصل لروح النضال والتحرير والعودة.

المراجع

1- Kenyon kathleen, Archaeology in the holyland ,4th edition , 1979.

2- Baramki D.,The Art and Architecture of ancient palestine, PLO Research Centre, 1969, Beitut.

3- Murphy-O'connnbr j.,the Holy land, an archaeological guide from earliest times to 1700 A.D Oxford, 1980/

4 - Vogel. b., Bibiogrphy of holy land sites, 1980.

5 - Albright W.F./ the archaeology of palestine, penguin, 1960.

٦ـ شعث شوقي (محرر) دراسات في تاريخ وآثار فلسطين: م١ (١٩٨٦) م٢ (١٩٨٧) ، نشر المنظمة العربية للتربية الثقافة والعلوم وجامعة حلب ومركز الآثار الفلسطيني.

٧ـ الموسوعة الفلسطينية مادة «آثار» . ١٩٨٤

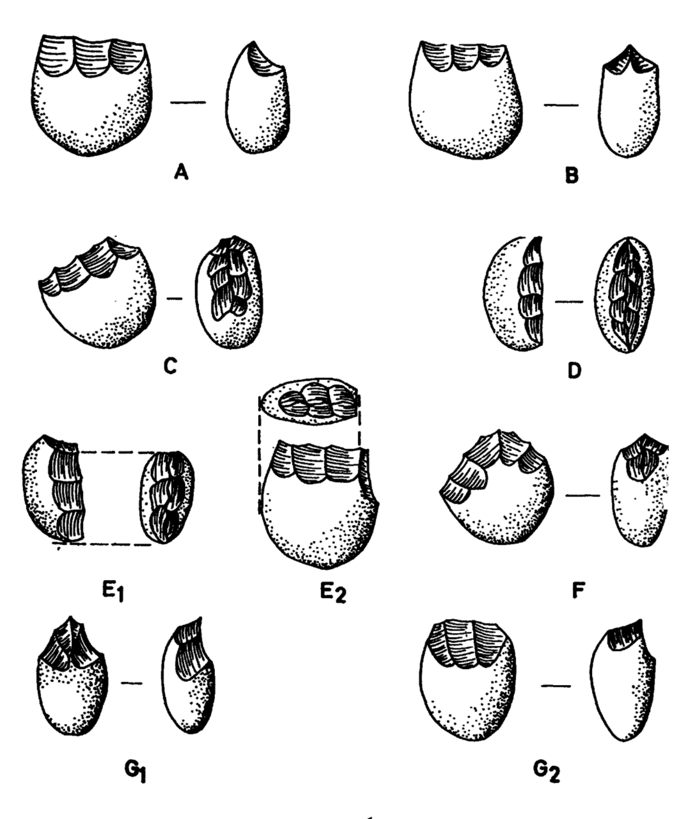


شكل (٢١)

المواقع الأثرية التي جرت فيها التنقيبات الأثرية في الفترة ما بين ١٩٤٨ - ١٩٧٦

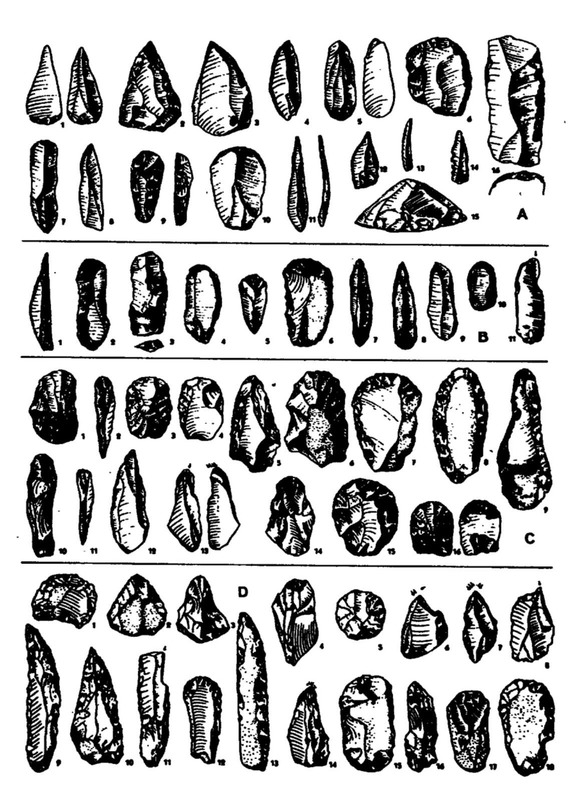
خربة عبدة

تل القديرات



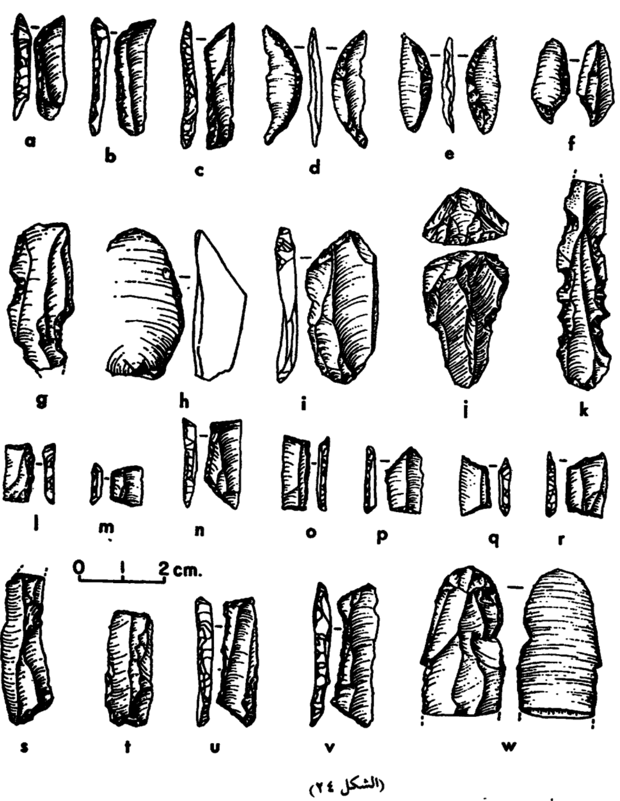
شكل (٢٢)

أدوات حصوية مصنعة (أدوات أبيفيلية) من تل العبيرية تعود للمرحلة الأولى من العصر الحجري القديم



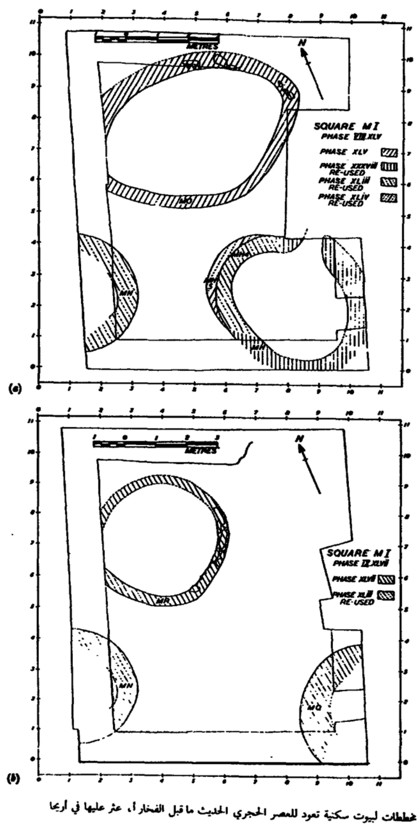
(الشكل ٢٣)

(أ) أدوات صوانية تمثل صناعة العصر الحجري القديم ـ المرحلة الثالثة من كهف الأميرة بفلسطين
(ب) أدوات صوانية تمثل صناعة العصر الحجري القديم ـ المرحلة الثالثة من عرق الأحمر بفلسطين
(جـ) أدوات صوانية تمثل صناعة العصر الحجري القديم ـ المرحلة الثالثة من مغارة الواد الطبقة :I بفلسطين
(د) أدوات صوانية تمثل صناعة العصر الحجري القديم ـ المرحلة الثالثة من مغارة الواد الطبقة I ١٤٩

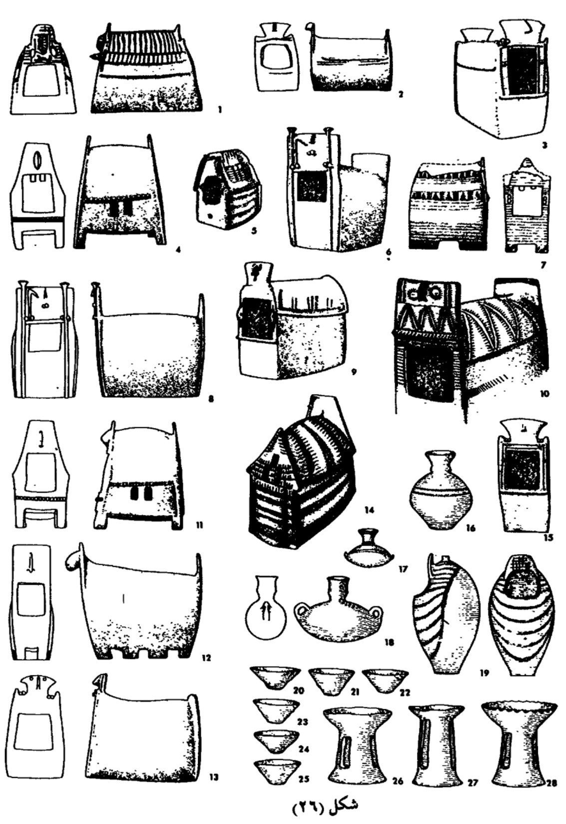


(الشكل ٢٤)

أدوات صوانية تمثّل صناعة مرحلة الكبارا (العصر الحجري القديم ـ المرحلة الرابعة) من منطقة النقب في فلسطين

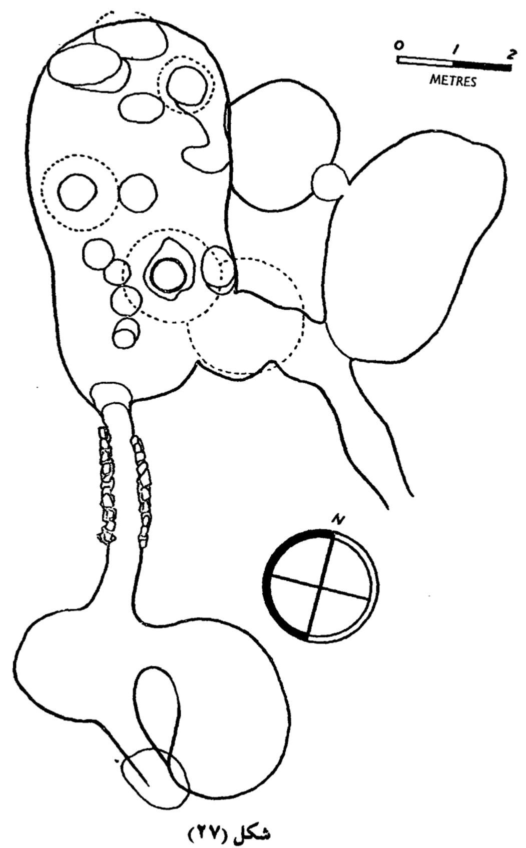


مخططات لبيوت سكنية تعود للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار أ، عثر عليها في أريحا



شكل (٢٦)

موعة من الصناديق الصلصالية (الفخارية) استخدمت لحفظ عظام الموتى وانية ومزهريات فخارية من موقع يازور وتمثل جميعها حضارة الساحل الفلسطيني في العصر
جري النحاسي



شكل (٢٧)

مخطط بيوت تحت الأرض من تل أبو مطر بالقرب من بئر السبع

المقاومة العربية الإسلامية للاستيطان
الافرنجي الصليبي
في فلسطين والعالم العربي الإسلامي

لم يشعر البيزنطيون بالخطر الحقيقي على دولتهم إبان الفترة التي حكم فيها الحمدانيون والمرداسيون حلب، كذلك إبان حكم الفاطميين لمصر، فقد كان الحمدانيون زعماء إمارة عربية صغيرة لا يمكن أن تهدد امبراطوريتهم الكبيرة وظل الأمر بينهما مقتصراً على غزوات كَرّو فرّ وكذلك إبان الحكم المرداسي، ولم يحدث أي تغيير ملموس في الحدود أو أي اخلال في موازين القوى. أما مصر إبان الحكم الفاطمي وإن نافست الدولة البيزنطية في أول أمرها على امتلاك بلاد الشام أو جعل اماراتها تقدم لها الولاء كما فعل الحمدانيون والمرداسيون بحلب وآل الجراح بفلسطين أو غيرها إلا أن الأمر اختلف فيما بعد، وكانت أعمالهم صرفاً لأنظار الناس عن الأوضاع الداخلية فيها فقد أجهدها الوضع الداخلي بسبب تقلب الخلفاء والوزراء، وفي بعض الأحيان اشتركت الطبيعة في تعقيد الأمر كحلول القحط أو حدوث الزلازل المدمرة...الخ.

كانت هزيمة البيزنطيين في منازكرد عام ١٠٧١ م على يد الب ارسلان السلجوقي الخطر الحقيقي الذي أحسوا به حيث حلت بهم هزيمة تعتبر من أقسى الهزائم، فقد أسر امبراطورهم وتقدمت الجيوش السلجوقية في أراضيهم حتى كادت تهدد العاصمة نفسها، فارتفعت الأصوات مستنجدة طالبة المساعدة في صد المسلمين الذين أخذوا يهددونها، فجرت مكاتبات بين الامبراطور البيزنطي والبابا الكاثوليكي بهذا المعنى (الشكل ٢٨).

وعلى الرغم من أن السلاجقة مالوا إلى الاتفاق مع الامبراطورية البيزنطية قبل المعركة التي أشرنا إليها ليتفرغوا لمحاربة الفاطميين إلا أن البيزنطيين فسروا رغبة السلاجقة هذه بأنها ضعف وأن الفرصة قد حانت لضربهم والتخلص منهم فكان رد الامبراطور البيزنطي على السلاجقة قاسياً وخشناً حيث قال في ردّه « لاهدنة إلا بالريّ» مشيراً بذلك إلى مدينة الري. فتوترت الأجواء بين الطرفين حيث كان لزاماً على السلاجقة رد ذلك التحدي وأخذ كل منهم يعد نفسه للمعركة فكانت معركة مانز كرد التي أشرنا إليها سابقاً وكان أسر الامبراطور رومانس الرابع ديوجنيس.

فَتَحت هذه المعركة كما قلنا أبواب آسيا الصغرى للسلاجقة فأخذوا يوسعون ممتلكاتهم على حساب الأراضي البيزنطية فاستولى سليمان بن قُتُلْمُش على الكثير منها وتوج عَلَى ذلك باستيلائه على انطاكية عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٥م، ناهيك عن الأراضي التي استولى عليها الأمراء الأقل شأناً من سليمان، ومن بينهما قلاع ومدن هامة ومن بين أولئك الدانشمند وشاكا ويخوشك وغيرهم فكان لابد والحالة هذه أن يعمد الامبراطور البيزنطي الكسي كومينوس إلى الاستنجاد بالغرب المسيحي على نحو ما أسلفنا.

وجدت الكنيسة الكاثوليكية فرصتها للذهاب إلى الشرق من أجل توحيد الكنيسة تحت شعار نجدة البيزنطيين الارثوذكس ضد المسلمين، سنة وشيعة، ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل الأسباب التي دفعت الافرنج للقيام بنجدتهم للبيزنطيين فاتحين بذلك حروباً عرفت فيما بعد بالحروب الصليبية واستمرت قرابة مئتي عام، لقد كان لكل من المشاركين في تلك الحروب دوافعه فالأمير يريد أن يجد له ملكاً في بلاد

الشرق والتاجر يريد أن ينمي ثروته والكنيسة لها أسباباً أخرى، فتارة تريد أن تكون الطريق إلى القدس الطريق إلى الحج آمنة، وتخفي أسباباً أخرى أشرنا إليها، على أي حال وجدت دعوة البابا اوربان الثاني عام ١٠٩٥ في كليرمون على أثر انتهاء مجمع كنسي آذاناً صاغية وهوى في نفوسهم ضد الشرق العربي المسلم وأخذوا يدفعون الفلاحين والفقراء إلى الاشتراك في تلك الحروب تحت راية الصليب تقرباً لله وابتغاء مرضاته..!!

وتصادف أنه سبق هذه الدعوة بقليل وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه الذي كان زعيم القوة الاسلامية الكبرى في الشرق، ويظهر أن هذا كان سبباً وجيهاً جعل الافرنج يسيرون قدماً في مشروعهم الرامي لغزو الشرق؛ لقد ورّث هذا السلطان أبناءه امبراطورية مترامية الأطراف ولكنه في الوقت نفسه ورث العالم الاسلامي أبناء لم يستطيعوا المحافظة على تلك الامبراطورية بسبب خلافاتهم الداخلية، فقد أعمت بصائرهم مصالِحُهم وضلوا الطريق القويم، فنشبت الحروب بينهم ولم يتبصروا عواقبها على الامبراطورية التي بذل أجدادهم الكثير في تكوينها، وفي وسط هذه الاضطرابات والمنازعات الأخوية التي شملت بلاد الشام ظهر الخطر الصليبي.

جاءت الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٧ والبلاد العربية الاسلامية في حال لا تُسِر فقد تحولت آسيا الغربية إلى دويلات وامارات مستقلة متنازعة فيما بينها وفي مصر كان الفاطميون وهذا ما جعل البلاد تحت وطأة الخلاف بين السنة والشيعة، وهناك آل عمار العرب في طرابلس منذ عام ١٠٦٩ وكانت شيزر بيد آل منقذ، وعلى الرغم من شجاعة

المدافعين عن البلاد الاسلامية حقق المعتدون نجاحات كانت السبب في مواصلة التوضع الصليبي الافرنجي.

عندما رأى الامبراطور البيزنطي الإستجابة العارمة لدعوته، التي لم يتوقعها، بدأ يتخوف من تلك الجموع الصليبية الكبيرة التي بدأت تفد إلى عاصمته بيزنطة، فعمد إلى كسب ودها ودفعها بما أمكن من السرعة، تخلصاً من بقائها في عاصمته، إلى الشرق حيث أحرزت نجاحات كبيرة في القضاء على الامارات العربية الاسلامية واحدة تلو الأخرى واغتصبت نيقية المركز الهام التي كانت عاصمة السلاجقة الروم وعلى الرغم من أن سقوط هذه المدينة في أيدي القوات الصليبية والبيزنطية كان صدمة كبيرة ونذيراً لجميع القوى الاسلامية إلا أنها أي القوى الاسلامية ضربت صفحاً عن ذلك النذير بسبب الشك والريبة والضغائن التي كانت قائمة بينها.

بعد أخذ نيقية توجهت جيوش الافرنج نحو انطاكية، وسار بلدوين وتنكرد، وهما زعيمان بارزان في الحركة الصليبية، شرقاً حيث استطاع بلدوين في نهاية الأمر أن يأخذ الرّها أثر مؤامرة ساعد على تدبيرها هو ضد حاكمها، ويؤسس الامارة الصليبية الأولى في الشرق وهي امارة الرّها وقد لعبت هذه الامارة دوراً كبيراً في حماية خلفية الافرنج المتجهين إلى القدس. وفي تشرين الأول عام ١٠٩٧ وصل الجيش الذي توجه إلى انطاكية وفرض حصاره عليها، وعلى الرغم من المقاومة العنيدة التي أبدتها الحامية الاسلامية بالمدينة ومحاولة فك الحصار عنها بواسطة جيش كان يقوده كربوقا، إلا أنه لم ينجح في مسعاه، وعلى الرغم من معاناة الافرنج من طول مدة الحصار وانتشار المجاعة إلا أن قائد حامية القلعة أحمد بن مروان اضطر في نهاية الأمر إلى أن يسلم القلعة للافرنج، وهكذا قامت الامارة الصليبية الثانية على أرض المشرق العربي في مطلع عام ١٠٩٩ .

ومما أكد تفرق القوى الاسلامية في مواجهة الافرنج، ما قام به الأفضل بن بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي، فقد أرسل هذا الوزير من يفاوض الافرنج على اقتسام سورية وذلك رداً على أخذ السلاجقة اتباع الخلافة العباسية ممتلكات الخلافة الفاطمية بسوريا ولكن تلك المحاولة لم تنجح حيث أخذ الافرنج يماطلون ويداهنون بارسال رسلهم إلى القاهرة ولما يئس الفاطميون بادروا إلى أخذ فلسطين والقدس من السلاجقة عام ٤٩٢ هـ /١٠٩٩ وفي الوقت نفسه كان الافرنج من طرفهم يرسلون السفراء إلى صاحب حلب ودمشق وغيرهم من الحكام يطمئنونهم بأنهم لا يرغبون في ممتلكاتهم وأنهم لا يرغبون إلا في القدس.

باحتلال مدينة انطاكية وتأسيس الامارة الصليبية فيها يكون الافرنج قد نجحوا في تأسيس امارتين هما الرها وانطاكية ولكن هاتين الامارتين لم تكونا الهدف الأول للحروب الصليبية فاندفعت الجيوش الصليبية نحو القدس وهي غايتها الأولى حسبما ورد في خطبة البابا اوربان الثاني. اندفعت في طريقين: طريق داخلي تمكن السائرون عليه من اغتصاب معرة النعمان وإحراقها وحصار عرقة التي كانت تابعة لآل عمار امراء طرابلس، أما الطريق الثاني فكان الطريق الساحلي نحو جبلة وطرطوس وعندما اقترب الجيش من طرابلس سارع آل عمار لمهادنة الافرنج وتقديم الهدايا لهم وكذلك المؤن والأموال وكافأها الافرنج بأن رفعوا الحصار عن عرقة التي كانت تابعة لها، كما ذكرنا، وفعل أمير بيروت الشيء الذي فعله آل عمار بطرابلس. وصل الافرنج صيدا ،وبعد استراحة قصيرة في بساتينها، تابعوا المسير حتى وصلوا إلى عكا وبعدها توجهوا إلى هدفهم القدس الشريف التي كانت تحت سيطرة الفاطميين كما أسلفنا واستطاعوا بعد شهر من الزمان أو خمسة أسابيع عند بعض

الباحثين الدخول إلى المدينة والفتك بأهلها وتدنيس مقدساتهم الاسلامية والمسيحية على حد سواء، ويسهب المؤرخون الافرنج والعرب في وصف الفظائع التي ارتكبها الافرنج الصليبيون في القدس وعليه تكون الحملة الصليبية الأولى باغتصاب القدس في ١٥ تموز عام ١٠٩٩ قد حققت هدفها وأخذ التوضع الصليبي في المشرق يأخذ شكله المرسوم (شكل ٢٩).

نصّب غودفري نفسه حاكماً على القدس تحت اسم حامي القبر المقدس وعندما اضطر إلى ترك القدس ليخلف عمه في امارة انطاكية استدعي بلدوين أمير الرها وهو أخ غودفري ليصبح أول ملك على القدس عام ١١٠٠م، وتألفت تلك المملكة من مدن يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل والريف المحيط بها الذي تسكنه أكثرية مسلمة حيث كانت المملكة في حاجة إلى قوة بشرية لتثبيت أركانها فقد كانت الأرض بحاجة إلى أيد عاملة كما كانت معظم الموانىء لا تزال في ذلك الوقت بأيدي المسلمين. ويتحدث فوشيه دي شارتر عن ذلك بقوله «وفي بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدناً قليلة ويحكم شعباً صغيراً..ولهذا السبب بقيت أرض بيت المقدس فقيرة في السكان و لم يكن هناك من الناس ما يكفي للدفاع عنها ضد المسلمين».

آل عمار والافرنج الصليبيين:

كانت امارة طرابلس تعتبر من أهم الامارات العربية التي ظلت واقعة بين الامارات الصليبية وكان أميرها القاضي فخر الملك أبو علي يؤثر المهادنة والسلام مع الافرنج وكان جيشه صغيراً إلا أن الامارة كانت غنية بانتاجها الزارعي وصناعاتها، وقد ألمحنا في ثنايا حديثنا كيف أن امارة طرابلس زودت الحملة الصليبية الأولى في تقدمها نحو القدس

بالمؤن والهدايا، إلا أن الافرنج بعد اغتصابهم القدس عادوا لتحقيق هدفهم وهو احتلال طرابلس سيما وأن هذه الامارة استفادت من رحيل الافرنج جنوباً حيث وسعت رقعتها شمالاً حتى طرطوس، أما جبلة التي تقع شمالي طرطوس فكانت بيد زعيم محلي هو القاضي ابن صليحة الذي تنازل عنها عام ١١٠١ إلى طغتكين اتابك دُقاق أمير دمشق ثم انتقلت إلى بني عمار وكان بنو محرز في المرقب والقدموس، وكان خلف بن ملاعب في أفاميا وبنو منقذ في شيزر وجناح الدولة اتابك رضوان أمير حلب في حمص..الخ.

كانت امارة طرابلس على ضوء ذلك أهم تلك الامارات ومن الطبيعي أن يسعى الافرنج لاغتصابها فعمد ريمون إلى محاصرتها عام ١١٠٢، فاستنجد أميرها فخر الملك بأمير حمص وأمير دمشق فأرسل دُقاق ألفين من فرسانه وأرسل جناح الدولة ما يزيد عن هذا العدد بكثير،وعلى الرغم من أن ريمون قد أحرز نصراً جزئياً على الجيش الاسلامي إلا أنه لم يتكمن من احتلال مدينة طرابلس واضطر للعودة إلى طرطوس لاعداد خططه من جديد. استأجر في هذه المرة أي في هجومه الجديد على طرابلس اسطولاً جنوياً قد وصل لتوه إلى ميناء اللاذقية مؤلفاً من أربعين سفينة إلا أنهأيضاً لم يتمكن من تحقيق أمنيته. فظل مثابراً على وضع الخطط للاستحواذ على تلك العروس الجميلة الغنية ومن أجل ذلك عمد في آواخر عام ١١٠٣إلى بناء قلعة على تل الحاج الواقع قبالة طرابلس واستقر فيها بعد اكتمالها عام ١١٠٤، إلا أن المنية عاجلته وتوفي عام ١١٠٥، وعليه لم يتمكن من تحقيق الأمنية التي سعى إليها وبذل من أجلها الكثير وترك تحقيق هذا المشروع لعقبه.

واصل وليم جوردان خليفة ريمون سياسته فشدد الحصار على مدينة طرابلس وحافظ على التحالف الذي كان قد عقده ريمون مع الدولة البيزنطية من أجل ارسال المؤن والعتاد وأكثر من ذلك ساعدت القوات البيزنطية في فرض الحصار على طرابلس وقطع الامدادات عنها فتحرج موقف أميرها بسبب غلاء الأسعار وانتشار المجاعة وشرع أهل المدينة في الهرب إلى المناطق المجاورة من تلك الضائقة على الرغم من أن الأمير بذل الأموال والمؤن من أجل تخفيف تلك الضائقة، ومما زاد الوضع تحرجاً هروب اثنين من أعيان المدينة إلى المعسكر الافرنجي وباحا بمواطن الضعف في دفاعات المدينة وعندما طلبهما الأمير من الافرنج رفضوا تسليمهما وفيما بعد وجدا مقتولين في المعسكر الافرنجي.

ضاقت الأحوال كما أسلفنا بالأمير فخر الملك وفكر طويلاً بمن يستنجد من القوى الاسلامية آنذاك: أيتجه إلى الفاطميين الطامعين في امارته أم يولّي وجهه إلى طغتكين صاحب دمشق الذي كانت علاقته غير وديه معه، وأخيراً هداه تفكيره إلى التوجه إلى بغداد للاستنجاد بالخليفة العباسي والسلطان محمد السلجوقي، وقد وجد هناك استقبالاً حاراً إلا أنه عاد بخفي حنين، وعندما عاد علم في طريق عودته أن طرابلس أُلحقت بالدولة الفاطمية بطلب من ابن عمه ونائبه أبي المناقب بن عمار فاتجه صوب جبلة واستقر فيها إلا أن حكمه لم يدم طويلاً هناك فقد ظهر تانكريد عام ١١٠٩ أمام المدينة طالباً الاستيلاء عليها فسلمها إليه فخر الملك وبقي فيها تابعاً لتنكريد إلا أن تانكريد نكث العهد وأجبر الأمير فخر الملك على ترك المدينة إلى دمشق حيث أمضى بقية حياته هناك يعيش من مال أجراه عليه طغتكين أو من الاقطاع الذي أقطعه إياه في منطقة الزبداني.

بقي أن نذكر أن طرابلس لم تكن لقمة سائغة للافرنج فقد أظهرت ضروباً من المقاومة على الرغم من المجاعة التي حلت بها بسبب الحصار الذي فرضه اسطولا جنوه وبروفانس، وبسبب تخاذل الاسطول الفاطمي عن انجادها، فلابد والحالة هذه أن يجبر واليها الفاطمي شرف الدولة من أن يسلم المدينة إلى بلدوين بموجب شروط فقد أعطى الأمان إلى أهلها فمن أراد الخروج من المدينة حاملاً أمتعته فله ذلك ومن أراد البقاء فله ذلك، شريطة أن يقبل الرعوية الافرنجية، أما الوالي فطلب الأذن بالرحيل إلى دمشق. وهكذا سقطت بيد الافرنج قلعة من قلاع العرب والمسلمين وانتهت أسرة بني عمار فيها، ومن المؤسف أن المدينة بعد احتلالها تعرضت للنهب والسرقة والحرق وتعرض ما بقي من أهلها إلى القتل والاهانة.

وهنا يمكن القول أن الحملة الصليبية الأولى انتهت بتأسيس امارات الرّها وانطاكية وكونتيه طرابلس ومملكة بيت المقدس، كما أصبحت أكثر المدن الساحلية بيدهم ولم يبق بيد المسلمين إلا بعض المدن الداخلية ومن أهمها دمشق وحلب وبذلك أصبحت البلاد الشامية تئن تحت ما أصابها من ذلة على أيدي الافرنج الصليبيين، كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الافرنج بقلوب واهنة بسبب ما بلغه الخلفاء من ضعف.

مقاومة العرب والمسلمين للتوضع الصليبي:

على الرغم من النجاح الذي حققه الافرنج في بداية غزوهم إلى البلاد العربية الاسلامية، ذلك بتأسيس إمارتي الرها وانطاكية ومملكة بيت المقدس وفيما بعد كونتيه طرابلس، إلا أن العرب والمسلمين وعلى الرغم من تفرق كلمتهم لم يستسلموا ولم تهدأ مقاومتهم للخطر الذي

جثم فوق أرضهم، ففي شمال سورية نجح السلاجقة في أسر بوهيموند، وبلدوين أمير الرها في فترة من الفترات كما أوقعوا بالافرنج هزيمة منكرة في حران، وفي الجنوب حاول الفاطميون استرداد ممتلكاتهم التي فقدوها فشنوا عدة حملات ضد الافرنج الصليبيين في سنوات ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ ونجحوا في أخذ طرابلس وقد كلفت تلك الحملات الافرنج الكثير من الرجال والأموال.

جاءت بعد ذلك دعوة العامة التي يمكن أن نسميها المقاومة الشعبية والتي كان مركزها حلب حيث رفعت صوتها عالياً مطالبة بتحرير البلاد وازالة الأخطار التي تهددها فقد ذهب وفد منهم إلى بغداد شاكياً الأمير رضوان متهماً إياه بالزيغ والانحراف والانقياد إلى تانكريد مطالباً الخليفة العباسي باعلان الجهاد لتخلصيهم مما يتعرضون له من تهديد من قبل الافرنج، وكي يمتص نقمتهم أمر الخليفة والسلطان السلجوقي بتجهيز جيش عام ١١١١م لقتال الافرنج اسندت قيادته إلى مودود أمير الموصل إلا أن الحلبيين سرعان ما اكتشفوا الخديعة وأثاروا العامة ببغداد ضد الخليفة المستظهر بالله، الذين نادوا باتهامه جهراً بالتواطؤ، وأنه أبغض عند المسلمين من الامبراطور البيزنطي.

وعندما شعر الخليفة والسلاجقة بتفاقم الأمور طلبوا من مودود بأن يسعى إلى تكوين حلف اسلامي تكون القيادة الاسمية فيه إلى الأمير مسعود بن السلطان محمد السلجوقي، دخل في ذلك الحلف: سكمان أمير ميارفارقين، وايلغازي بن آياز صاحب ماردين، وأحمد بك صاحب مراغة وأبو الهيجاء وصاحب اربيل إضافة إلى بعض أمراء فارس بزعامة برسق بن برسق أمير هَمَدان.

سارع الأمراء المسلمين إلى طلب النجدة من هذا الحلف وعلى رأسهم سلطان أمير شيزر ورضوان أمير حلب، ويبدو أن رضوان لم يكن صادقاً في طلب النجدة لأنه عندما علم بتوجه قوات الحلف الذي أشرنا إليه غرباً سارع إلى اغلاق أبواب حلب ومنع المظاهرات بها وأمر باعتقال عدد كبير من أعيانها،عند ذلك توجه مودود إلى شيزر بعد أن خرب القرى المحيطة بحلب، وهناك لحق به طغتكين اتابك دمشق للمساعدة في استعادة طرابلس التي سبق أن أخذها الافرنج من الفاطميين. إلا أن الأمور لم تجر على هوى مودود فطغتكين يريد أن يخلّص طرابلس، ومرض برسق وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سكمان فجأة وانسحبت قواته شمالاً حاملة جثمانه، وانسحب أحمد يل من جيش مودود أمير الموصل وهكذا انفرط عقد الحلف الاسلامي الذي أشرنا إليه وتراجع مودود بجيشه إلى عاصمته. وفي عام ١١١٢م عاد مودود إلى الاغارة على بلاد الرها ولكن هذه الغارة لم تثمر الثمرة المرجوة، وفي عام ١١١٣م لبى مودود نداء طغتكين اتابك دمشق ومعه اياز الأرتقي لصد عدوان الملك بلدوين على دمشق فدارت الدائرة على جيش الافرنج عند جسر الصنبرة بجنوب دمشق، إلا أن مودود اغتيل على يد أحد الباطنية بجامع دمشق الكبير وبعد شهرين توفي رضوان أمير حلب الذي كان يقدم الدعم والحماية للباطنية.

خلف أقسنقر البرسقي مودوداً في قتال الافرنج وحاول إقامة حلف اسلامي جديد لطرد الافرنج إلا أن عناصر الحلف اختلفت فيما بينها حتى أنه حدث قتال بين بعض أطرافه كذلك الذي حدث بين ايلغازي زعيم التركمان وبين أقسنقر البرسقي فدارت الدائرة على أقسنقر وقفل راجعاً إلى عاصمته الموصل وبهذا فشل التحالف المعادي للافرنج للمرة الثانية.

عادت حركة الجهاد ضد الافرنج عام ١١١٥م من جديد، فقد أرسل السلطان السلجوقي محمد، آخر السلاجقة العظام، برسق بن برسق على رأس حملة يسانده أمير سنجار وبقدر ما أخافت هذه الحملة الافرنج أخافت الأمراء المسلمين في بلاد الشام، فكان كلهم، فيما عدا بنو منقذ، وابن قراجا أمير حمص لا يرغبون في قدوم قوات السلطان السلجوقي خوفاً من ضم سوريا إلى العراق، ومن أجل الوقوف أمام ذلك الخطر سارع الايلغازي الارتقي إلى دمشق لعقد تحالف مع طغتكين اتابك دمشق، إلا أن ابن قراجا أمير حمص القى القبض عليه في طريق عودته و لم يطلق سراحه إلى بعد أن حل ولده اياز مكانه في السجن، لكن هذه الحادثة لم تفك ارتباط ايلغازي بحليفه طغتكين بل تعزز الحلف بانضمام الطواشي لؤلؤ الوصي على الب ارسلان ابن رضوان أمير حلب وبادر الجميع إلى التحالف مع روجر أمير انطاكية لمواجهة الجيش السلجوقي.

وعندما علم برسق بذلك التحالف سار جنوباً نحو دمشق لقتال طغتكين وبفضل مساعدة أمير حمص قام برسق بهجوم على حماة وأخذها منه أي من طغتكين وفي حركة تكتيكية انكفأ برسق نحو الجزيرة فاعتقد الافرنج وحلفاؤهم من المسلمين أنه عاد إلى بلاده وبذلك زال خطره عنهم إلا أن برسق عاد فجأة وأخذ كفر طاب وسلمها إلى بني منقذ وقدم له الطواشي لؤلؤ الولاء والاعتذار. لم يهنأ برسق بنصره فسرعان ما أوقع به الافرنج هزيمة منكرة عند تل دانث (دينيت اليوم) بتواطأ الأمراء المسلمين وأفلت برسق بأعجوبة من الأسر بعد أن تبدد جيشه. وبهذه الهزيمة انتهت محاولات السلاطين السلاجقة لاستعادة بلاد الشام.

بعد معركة تل دانث ظهر أن التوازن بين القوى الاسلامية والافرنجية قد حصل فمال الافرنج إلى الاستقرار في شمال سوريا

وأخذوا ينون الاستحكامات وبدؤوا يكيفون أنفسهم للعيش على النمط المحلي وساد الوئام فيما بينهم فلم يعترض مثلاً أحد على سيادة روجر أمير انطاكيا خاصة بلدوين أمير الرّها أو بونز كونت طرابلس، كما اعترف الجميع بسيادة بلدوين ملك بيت المقدس، وفي الوقت نفسه تحالفوا مع طغتكين اتابك دمشق وأنصاره، ناهيك عن تنابذ القوى الاسلامية الأخرى، وعليه لم تكن أية قوة خارجية في هذه الفترة قادرة على قلب هذا التوازن سواء من البيزنطيين أو من سلاجقة الروم في الشمال الغربي أو من الفاطميين في الجنوب، ولكن يبدو أن هذا التوازن كان توازناً مؤقتاً فقد شعر طغتكين أن قوة الافرنج أخذت تتزايد فبادر للاتصال بالفاطميين بمصر لتقديم المساعدة له لكي يتمكن من الوقوف في وجه الافرنج وقد وجد هذا الطلب هوى في نفس الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الدين الجمالي وهو الوزير المتنفذ في البلاد الفاطمية، وعادت من جديد طبول الحرب تقرع إلا أن الأمر توقف عند هذا الحد بسبب أن كل طرف كان يرهب الآخر، إلا أنه في خريف عام ١١١٩ نجد جوسلين أمير الرها وبلدوين ملك بيت المقدس يشنان غارة على درعا الحقوا بها هزيمة قاسية ببوري بن طغتكين الذي كان على رأس القوة الاسلامية التي واجهت الغارة. و لم يكن الوضع في الشمال أحسنُ حالاً فقد أصبحت مدينة حلب عاجزة عن رد اعتداء الافرنج عنها بعد انتصارهم في دانيث فاستعانت بايلغازي أمير ماردين الذي بادر إلى عقد حلف مع طغتكين أتابك دمشق والتقى الافرنج والمسلمون في معركة دامية عرفت بمعركة سهل الدم بالقرب من سرمدا وكان النصر حليفاً للمسلمين وقد قتل في هذه المعركة روجر وأكثر قادته ومقدميه وعاد الايلغازي وعسكره وحلفاؤه إلى حلب في موكب نصر كبير عند غروب الشمس (شكل ٣٠).

وعلى الرغم من أن الافرنج قاموا بعدة غارات ضد البلاد الاسلامية بعد موقعة سهل الدم إلا أنهم لم يفلحوا و لم يكن من السهل عليهم تعويض ما فقدوه من عدة وعتاد ورجال وفرسان وظل ميزان القوى لصالح القوات العربية الاسلامية، ويظهر أنه بعد هذا التاريخ فقدت امارة انطاكية الكثير من قوتها و لم تعد قادرة على تهديد القوى الاسلامية في الشمال.

ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث:

أصبح عماد الدين زنكي أتابكاً على الموصل عام ٥٢١ هـ ١١٢٧م وقد هيأ نفسه لقيادة حركة الجهاد الاسلامي ضد الافرنج، فبدأ بتوحيد شمال سورية وآسيا الغربية فأصبح أقوى حاكم مسلم بعد أن سخر كافة موارده وقوته في خدمة الجهاد ضد الافرنج المحتلين واضعاً بذلك الأساس القوي لحركة الجهاد المقدس التي لم تنته إلا بطرد فلول الافرنج من ديار العرب والمسلمين، ومن أجل دعم ذلك الأساس انشأ المدارس لتكون بمثابة مراكز دعوة لتلك الحركة سعياً إلى الوصول إلى رأي عام اسلامي واحد يساعد على تحقيق وترسيخ مفهوم الوحدة بوصفها ضرورة دينية في ذلك الوقت وقد نجح في ذلك حيث فشل السلاجقة العباسيون ببغداد والفاطميون في مصر، وعلى الرغم من أن عماد الدين نجح نجاحاً باهراً في ذلك إلا أن المنية لم تمهله ليحصد ما زرع فقد دفع حياته ثمناً لذلك النجاح عند أسوار قلعة جعبر ٥٤١هـ/١١٤٣م استعداداً لضربة قاضية للنفوذ الافرنجي في شمال سورية وكان قبل موته قد أوقع ضربة أليمة بالافرنج حين تمكن من تحرير الرّها عام ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م بعد حصار لها دام ثمانية وعشرون يوماً وبذلك سقطت أول إمارة افرنجية على أرض الاسلام. لقد كانت تلك الضربة موجعة للافرنج وكانت بمثابة صدمة قوية تردد صداها في

العالم الاسلامي فرحاً بذلك النصر المبين، وكانت بمثابة نذير شؤم للافرنج وبداية لتحرير البلاد الاسلامية.

فماذا كانت ردة فعل الافرنج في أوروبا؟ لقد ارتفعت الأصوات في أوربا داعية للانتقام من المسلمين واسترداد امارة الرّها، فكانت الحملة الافرنجية الصليبية الثانية بزعامة كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا في نهاية عام ١١٤٧ ومطلع عام ١١٤٨م. وفي هذه الفترة استشهد عماد الدين زنكي كما أشرنا وخلفه ولده نور الدين محمود الذي تابع سياسة والده في توحيد العالم الاسلامي خاصة في الجزيرة وبلاد الشام حيث تمكن في عام ٥٤٩هـ / ١١٤٥م من ضم دمشق نهائياً له وهكذا توحدت البلاد بعد أن كانت عبارة عن فسيفساء من الدول الصغيرة في مواجهة الجبهة الافرنجية.

لم يبق أمام نور الدين إلا مصر الفاطمية الضعيفة، وكان على علم بالصراعات الداخلية والمصاعب التي تواجهها الخلافة الفاطمية، وأخذها يعتبر ضرورة استراتيجية لجعل مدينة القدس الشريف التي يرغب بتحريرها بين حجري الرحى وبذلك يسهل الاطباق عليها واستعادتها من الافرنج، أي أنه كان يتطلع إلى توحيد مصر والشام في دولة واحدة، فعندما وصله من يستنجد به ضد خصمه وضدّ الافرنج اهتبل الفرصة دون ابطاء وأرسل قائده الباسل أسد الدين شيركوه إلى مصر حيث استطاع هذا القائد الفذ احراز عدة انتصارات عسكرية وسياسية قادته لدى تولي منصب الوزارة إلى الخليفة الفاطمي إلاأن القدر لم يمهله فعاجلته المنية مفسحاً المجال إلى ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب.

ظهور صلاح الدين كقائد اسلامي:

أصبح صلاح الدين كما ألمحنا سابقاً وزيراً للعاضد الفاطمي وحيث أن الأخير كان مريضاً جداً فقد توفي عام ١١٧١ أي بعد تولية صلاح الدين الوزارة بقليل فوجدها صلاح الدين فرصة للقضاء على الدولة الفاطمية الضعيفة وقد تم هذا دون أية مقاومة وقد عقد العزم على انتزاع راية الجهاد من سيده نور الدين وساعدته الأحداث بوفاته عام ١١٧٤، لقد توفي نور الدين دون أن يكون راضياً تمام الرضى عن تابعه صلاح الدين بعد أن حصلت جفوة بين الرجلين، كما يذكر بعض المؤرخين، حيث أحس برغبة صلاح الدين بتأسيس ملك منفصل عنه.

انضمت مصر وشمال افريقيا والحجاز وبلاد النوبة وبعض المناطق في جنوب الجزيرة العربية إلى صلاح الدين ومن أجل إكمال مشروعه الوحدوي كان عليه أن يضم سوريا من اتباع نور الدين وقد نجح في ذلك وهكذا أصبحت سوريا ومصر وشمال أفريقيا والحجاز واليمن موحدة تحت زعامته. أما في الجانب الآخر أي في الجانب الصليبي فقد أدت هذه الأحداث إلى تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس، كما أدت إلى تغيير الخارطة السياسية للشرق العربي لصالح العرب المسلمين.

مكث السلطان صلاح الدين نحو ست سنوات ٥٧٢-٥٧٧ هـ / ١١٧٦-١١٨١م/ يرتب الأوضاع الداخلية في مصر والشام استعداداً للمعركة الكبرى مع الافرنج الصليبيين وظل يتجنب الاشتباك معهم على الرغم من الاستفزازات الكثيرة التي قاموا بها مثل غاراتهم على شبه جزيرة سيناء وعلى تيماء، كما حاول أرناط حاكم الكرك الصليبي أن يعبر البحر الأحمر كي يسيطر على مكة والمدينة ويتحكم في حركة التجارة الدولية المارة بهذا البحر إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، وقادت هذه التحديات وغيرها إلى الشروع بالحرب ضد الافرنج فبعد

أن أكمل استعداداته، أي صلاح الدين، خرج من دمشق متجهاً صوب طبرية في منتصف آذار عام ١١٨٧م وكان مركز تجمع قواته في حوران ومن هناك أرسل سرية بقيادة مظفر الدين كوكبوري إلى عكا بعد أن استأذن أمير انطاكيا الذي كان يهادن صلاح الدين وفي طريق العودة اشتبك مع مجموعة من الفرسان الداوية والاستبارية وذلك في أيار ١١٨٧ بالقرب من بلدة صفورية بفلسطين وهناك حدثت المعركةالمعروفة بمعركة صفوية وقد انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً حيث قتل معظم فرسان الافرنج.

كانت معركة صفورية الملمح إليها أعلاه مقدمة لمعركة حطين الفاصلة إلا أنها كانت، في الوقت نفسه، سبباً في جمع كلمة الصليبين وتوحدهم ضد صلاح الدين لأنهم وجدوا في معركة صفورية مؤشرا لاخطار ستحيق بهم. أما صلاح الدين الذي عاد لتوه من منطقة الكرك إلى مركز تجمع قواته في حوارن في ٢٧/أيار ١١٨٧م، وبعد ان اتم استعداداته، اتخذ قرار الحرب وهو عند تل تسيل بحوران وتوجه إلى فلسطين بعد ان وزع المهمات القتالية بين قادته فجعل ابنَ أخيه تقي الدين عمر قائداً للجناح الأيمن وجعل مظفر الدين كوكبوري قائداً للجناح الأيمن أما هو فتولى قيادة قلب الجيش، سار بعدها من تسيل إلى خسفين ثم اجتاز نهر الأردن وعسكر عند كفرسبت، بعدها تحرك نحو مدينة طبريا وأخذها ولكن قلعتها استعصت عليه بسبب وجود زوجة ريموند ايشيفا فيها فتركها وتوجه نحو حطين (شكل ٣١). وهنا لا نريد أن نخوض في تفاصيل الاستعدادت والاحتياطات التي اتخذت قبيل المعركة، فقد انتهت المعركة بنصر حاسم للعرب المسلمين وترتب على ذلك على النصر:

١) فتح الباب على مصراعيه أمام صلاح الدين ليحقق انتصارات جديدة ويحرر بلاداً جديدة وقد وصلت تلك الانتصارات ذروتها بتحرير القدس الشريف بعد ثلاث اشهر فقط من معركة حطين وبذلك انتهت المملكة اللاتينية الأولى بالقدس الشريف، تلك المملكة التي حارب الافرنج من أجلها طويلاً وكانت محط آمالهم في الشرق والغرب، ولا يغيب عن البال أنها كانت المسيطرة على كافة الممتلكات الصليبية بالشرق ولو على الأقل بصورة رمزية.

٢) رفع معنويات العرب المسلمين وتعميق إيمانهم بالوحدة التي أنجزها صلاح الدين.

٣) اعتبر انتصار العرب بحطين كارثة على الصليبيين ولعله كان أكبر كارثة حلت بهم منذ مجيئهم إلى الشرق.

٤) اجبرت الافرنج على أن يعيدو النظر في مشروعهم الاستيطاني بالشرق العربي.

اذن كان لسقوط المملكة الصليبية بالقدس أثره الصاعق على اوروبا الغربية التي عملت كل ما بوسعها على اقامة هذه المملكة والمحافظة عليها فبعد سقوطها ضاع كل شيء، فما ان عرف البابا اوربان الثامن بسقوط القدس في ايدي العرب المسلمين حتى توفي من هول الصدمة، ودعا خليفته غريغوريوس الثامن الكاثوليك إلى حملة صليبية جديدة في منشوره الذي اصدره في ٢٩ تشرين أول ١١٨٧، فكانت الحملة التي عرفت بالحملة الثالثة، كما أمر الكاثوليك بالصيام في يوم الجمعة من كل اسبوع ولمدة خمس سنوات، اضافة إلى الامتناع عن أكل اللحم مرتين في الاسبوع، ونذر الكاردنالات بالتجوال مشياً على الأقدام في فرنسا وانجلترا والمانيا للدعوة إلى تلك الحملة اي الحملة الثالثة.

وعند التدقيق في العناصر المكونة لهذه الحملة نجد أنها تألفت من كبار الاقطاعيين والفرسان والدول التجارية الايطالية (جنوا، بيزا، البندقية) التي تهددت مصالحها التجارية بعد موقعة حطين مع الشرق، وعليه يمكن القول ان الاهداف الدينية للحملات الصليبية أخذت تتراجع خلف الأهداف الأخرى، وهذا مايعترف به رئيس الأساقفة غليوم الصوري في مؤلفه الذي نشره تحت عنوان «تاريخ الأفعال في أراضي ما وراء البحار» وهو أول تاريخ كامل عن الحروب الصليبية وعن مملكة بيت المقدس حتى عام ١١٨٤، حيث يقول: « بأنه لا يجد بين أعمال امراء الصليبيين أي شيء يعتبره الحكيم جديراً بالوصف ويعود على القارىء بالرضى والارتياح». لقد أخذت الصراعات في هذه الحملة من أجل الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية على منطقة البحر الأبيض المتوسط تبرز إلى السطح، وهناك شيء آخر يشير إلى تراجع الأهداف الدينية هو أن الجماهير قابلت بشيء من عدم المبالاة دعوة البابا إلى الحملة الثالثة وامتنعت عن تسديد ما فرض عليها من اتاوات لتغذية الحملة تلك الاتاوات التي عرفت «بعشر صلاح الدين» وتجاوزت ذلك إلى رجم الجباة بالحجارة مما حدى برجال السلطة إلى الغائها في فرنسا.

وهكذا لم تكن الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذه الحملة الثالثة وهم: ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب الثاني اغسطس ملك فرنسا والامبراطور فريدريك الأول بربروسيا امبراطور المانيا، في صدارة الأسباب التي من أجلها اشتركوا في الحملة فقد كانت هذه الحملة حملة فتوحات بكل ما يحمله هذا المعنى.

تمكن رجال هذه الحملة من الوصول إلى الشرق واستعادة عكا من يد المسلمين بعد حصار دام عامين استسلمت المدينة بعدها عام ١١٩١

على الرغم من الجهود التي بذلها السلطان صلاح الدين لانقاذها، وقد عامل الافرنج العرب المسلمين في هذه المدينة بقسوة شديدة خلافاً لاتفاقية الاستسلام فأوقعوا بهم مجزرة مخيفة تشيب لها الرؤوس وبعد عكا تمكن ريتشارد قلب الأسد من أخذ حيفا وقيسارية وأرسوف وعسقلان بعد أن خربها العرب كي لا يستفيد منها الافرنج ولما كان هدف الحملة القدس فقد حاول الافرنج عبثاً احتلالها وبعد أخذ ورد وقع الطرفان الأيوبي والافرنجي اتفاقية الرملة في ايلول عام ١١٩٢ وقد قضت بنود تلك المعاهدة باحتفاظ الافرنج بالمنطقة الواقعة بين صور ويافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف، وعلى أن تكون اللد والرملة مناصفة بين العرب والافرنج وتكون عسقلان وما يليها جنوباً بيد العرب المسلمين وتظل القدس بيد العرب المسلمين على أن يسمح للافرنج بالحج إلى أماكنهم المقدسة مجاناً (شكل ٣٢) وجعلت مدة الصلح ثلاث سنوات وثمانية اشهر وترك الخيار لانطاكية وطرابلس بالدخول في هذا الصلح، وبعد هذا الصلح الذي كان بمثابة هدنة حرب عاد ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده وعاد صلاح الدين إلى القدس ثم إلى دمشق حيث توفي في آذار عام ١١٩٣ وبوفاته فقدت الامة أعظم قائد جسّد أهدافها وناضل من أجلها.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بتوقيع صلح الرملة دون أن تحقق أهدافها التي قامت من أجلها ألا وهو استعادة القدس من ايدي المسلمين واكتفت بما حققته من مكاسب صغيرة. ويصف زابوروف هذه الحملة: «ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت في كثير من النواحي عن سابقتيها فبين المشتركين فيها كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة كما أنها لم تكن تنطوي على أي من عناصر العفوية الجماهيرية ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وامراء ثلاث دول اقطاعية

ونظمتها وحققتها السلطة الملكية واثناء الحملة تكشّف بجلاء ووضوح سعي الملكيات الاقطاعية الغربية إلى فتح مختلف مناطق البحر الابيض المتوسط، وفي هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية نفسها في صقلية وفلسطين وقبرص... الخ». وهذه الأمور هي التي قررت المصير المخزي الذي آلت اليه الحملة بمجملها.

بموت السلطان صلاح الدين الايوبي انتعشت آمال الافرنج الصليبيين من اجل استعادة ما فقدوه سيما وأن سلطنته قد تقسمت بين أبنائه المتنابذين المتخاصمين الا أنهم وإن حققوا بعض النجاحات الجزئية من أهمها استعادة القدس بموجب معاهدة الكامل فردريك الثاني إلا أن نهايتهم بفلسطين كانت محتومة وفي آخر أيامهم انحسروا في شريط ساحلي ضيق وكانت نهاية الوجود الافرنجي الصليبي فيما بعد على يد المماليك خلفاء الأيوبيين وبذلك انتهت الحركة الصليبية التي استمرت قرابة مئتي عام وهي تهدد الوطن العربي في الشرق، لقد جاءت هذه الحركة بمظلة دينية ولكن أهدافها الحقيقية كانت الاستيطان وتكوين الممالك والامارات كما رأينا واستغلال موارد الوطن العربي وقد نجحت في غفلة من العرب المسلمين بسبب تفرقهم، وعندما تمكن هؤلاء من توحيد صفوفهم استطاعوا تحقيق الانتصارات التي حددت مستقبل الحركة الصليبية برمتها، وقبل أن أصل إلى نهاية الحديث أود أن الفت النظر إلى أن الوطن العربي يتعرض اليوم إلى حركة صهيونية مشابهة للحركة الصليبية التي تعرض لها الوطن العربي في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، لقد كان الدين كما رأينا المظلة التي تسربت تحتها الجيوش القادمة من اوروبا إلى الوطن العربي، تماماً كما فعلت الحركة الصهيونية في منتصف هذا القرن، ومبعث تفاؤلنا اليوم ان مصير الحركة الصهيونية سيكون حتماً كمصير الحركة الصليبية طال الزمن أو قصر.

وأخيراً ومما سبق عرضه يمكن ان نستخلص الملامح التالية التي اتصف بها العصر الذي تحدثنا عنه:

١) على الرغم من تفرق كلمة العرب المسلمين في المراحل الأولى من الغزو الافرنجي الصليبي فقد بذل كل جهده على طريقته الخاصة، مجتمعين أو فرادى، في مقاومة العدوان، ويعني هذا أن جميعهم كانوا متفقين على ضرورة مقاومة الغزو الاجنبي لبلادهم ذي الهوية الدينية الوافدة من وراء البحار.

٢) سيطرة المصلحة الشخصية لدى بعض حكام وامراء المسلمين وسيادة الشك فيما بينهم، فمال بعضهم إلى الاستنجاد بالافرنج ضد منافسيهم أو اعدائهم من الامراء الا ان ذلك كان مستهجنا لدى كثرة العلماء والفقهاء والعامة من العرب المسلمين بل تعدى بعضهم إلى استنكاره علناً.

٣) عندما قيض الله للعرب والمسلمين قادة عظام استطاعوا توحيد الكلمة وتوحيد البلاد فتوجهوا جميعا وبقيادة واحدة إلى مقاومة الغزو الاستيطاني وقد اثمر ذلك بتحرير مدينة الرها بقيادة عماد الدين الزنكي عام ١١٤٤ فكان ذلك بمثابة الهزة الاولى للافرنج.

٤) ظلت راية الجهاد مرفوعة ضد الافرنج في عهد نور الدين محمود خليفة عماد الدين إلى أن سلمها إلى صلاح الدين الأيوبي من بعده، على الرغم من محاولات الافرنج استعادة مواقعهم دون جدوى.

٥) تابع السلطان صلاح الدين الايوبي مسيرة الوحدة فبعد أن اقام الدولة الايوبية بمصر ضم اليه شمال افريقيا وشبه الجزيزة العربية وثم بلاد الشام والجزيرة توجه بعدها إلى حطين.

٦) كانت معركة حطين أكثر من هزة للافرنج فكانت بمثابة الزلزال الذي لحق بالافرنج بالشرق وكان من نتيجتها تحرير القدس وكثير

من المناطق الداخلية والساحلية، وفي الوقت نفسه قوت العزم عند العرب المسلمين على متابعة الجهادة لتحرير أرضهم من الاجانب.

٧) أخذت الحملات الصليبية بعد حطين طابعاً جديداً فقد فتر الحماس الديني في أوروبا لمثل هذه الحملات وامتنع الناس هناك عن مدها بالمال وبالرجال أحياناً.

٨) بعد حطين برزت إلى السطح الاسباب الحقيقية للحملات الصليبية خاصة الحملة الثالثة فقد ظهرت إلى المسرح اطماع الملوك والامراء الاقطاعيين والجمهوريات التجارية الايطالية في الاستحواذ على خيرات الشرق وارباح التجارة معه.

٩) تأثر العرب المسلمون كثيراً بموت بطلهم المنقذ صلاح الدين الا انهم لم يستطيعوا التراجع عن الاهداف التي رسمها البطل الراحل لتحرير البلاد والعباد من أيدي الافرنج على الرغم من بروز الخلافات والصراعات بين أبناء البيت الأيوبي لان جهاد الافرنج كان من صلب العقيدة الدينية لدى المسلمين سيما وان الحروب الصليبية اخذت الطابع الديني منذ البداية.

١٠) حتى بعد سقوط الدولة الايوبية «الأم» بمصر حرص المماليك على متابعة الجهاد ضد الافرنج لان ذلك أصبح ضرورة على كل سلطان يفرضها الشرع الحنيف ويحتاجها السلطان لدعم مركزه السياسي في المجتمع العربي الاسلامي حينذاك ونجح المماليك في تطهير البلاد نهائياً من آخر آثار الحملات الصليبية على نحو ما هو معروف.

١١) لم ينعم الافرنج باستقرار هادىء لمدة طويلة ابان تواجدهم في الشرق العربي وكانوا دوماً في حالة استنفار وخوف من هجمات العرب المسلمين ولحماية انفسهم اكثروا من بناء القلاع والحصون

وعاشوا داخلها ولاتزال آثار تلك القلاع باقية تحدثنا عن الملاحم البطولية التي خاضها الاجداد في سبيل تحرير بلادهم.

١٢) لم يتمكن الافرنج من السيطرة على اي مدينة من المدن الداخلية في سوريا كحلب أو دمشق أو حمص أو حماه وكذلك بالنسبة لمصر وهذا أمر هام جداً فقد ظلت هذه المدن مراكز جهاد تنطلق منها النجدات وجيوش التحرير فكانت حلب مثلاً مركزاً من مراكز الدعوة للجهاد ضد الافرنج ولم تتردد عندما داهمها الخطر ان تضع نفسها، مضحية باستقلالها، تحت قيادة أي قائد يدفع العدوان عنها وعن المناطق الأخرى في شمال سورية وكذلك فعلت دمشق فقد خرج السلطان الأيوبي صلاح الدين منها يوم حطين ومن القاهرة خرج السلطان المملوكي الاشرف خليل يوم أن نجح في تطهير البلاد نهائياً من فلول الافرنج الصليبيين.

ثانياً : المراجع الحديثة

١٣) بردج أنتوني: تاريخ الحروب الصليبية، نقلها إلى العربية أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق. ١٩٨٥.

١٤) حسني حسن: الحرب الصليبية الأولى، مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٧٤.

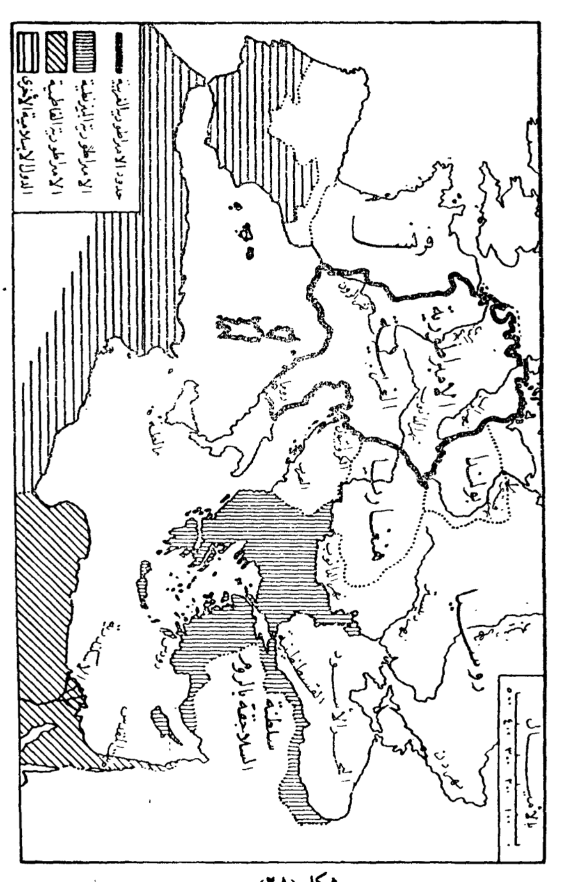
١٥) حتي فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢ دار الثقافة بيروت ١٩٥٩

١٦) حمدي حافظ: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي دار الفكر العربي القاهرة .١٩٥٠

١٧) حاطوم نور الدين وزيتوني عادل: في ذكرى حطين وزارة الثقافة ١٩٨٧.

١٨) حسان نظير: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ .

١٩) رنسيمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني،٣ أجزاء،دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨
٢٠) زابوروف ميخائيل: الصليبيون في الشرق، دار التقدم موسكو، ١٩٨٦
٢١) زكار سهيل: الحروب الصليبية جزءان دار حسان دمشق ١٩٨٤
٢٢) حطين ومسيرة التحرير، دار حسان، دمشق ط١ ١٩٨٤
٢٣) سرور محمد جمال الدين: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ط٢ ١٩٥٩،دار الفكر العربي مطبعة الاعتماد بمصر.
٢٤) سنيل ر.سي: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (١٠٩٧ ــ ١١٩٣)، ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلاد، دار طلاس ط١ ١٩٨٥.
٢٥) شعث شوقي:الجيش في عصر صلاح الدين ووسائل الإسناد الأخرى،تاريخ العرب والعالم .١٩٨٧
٢٦) قاسم قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة (١٤٩) ١٩٩٠. يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
٢٧) غوانمه يوسف: إمارة الكرك الأيوبية ١٩٨٠ عنيت بنشرة بلدية الكرك.



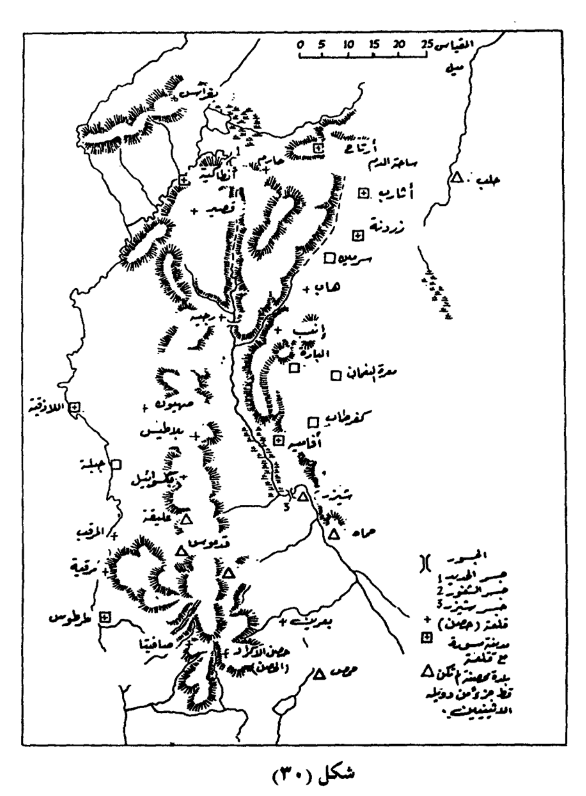
شكل (٢٨)

مصور لأوروبا زمن الحملة الصليبية الأولى



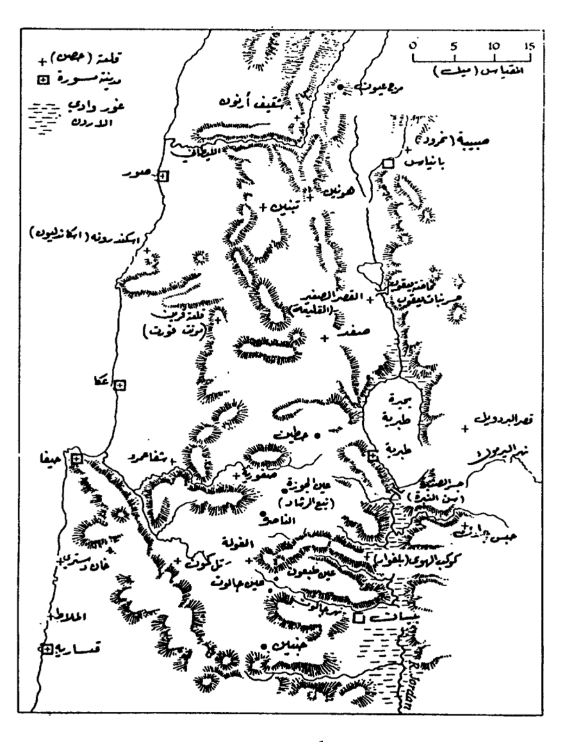
شكل (٢٩)

مصور يظهر نتائج الحملة الصليبية الأولى



شكل (٣٠)

مصوّر يبين موقع معركة ساحة الدم



شكل (٣١)

مصور يبين موقع معركة حطين



شكل ٣٢)

مصور يظهر نتائج الحملة الصليبية الثالثة

الإستيلاء على الممتلكات الثقافية الفلسطينية تحت الإحتلال الصهيوني

استقطبت فلسطين (أرض كنعان) الكثير من الباحثين الغربيين باكرا، منذ نهاية القرن الماضي، إن لم يكن قبل ذلك، وزاد ذلك الاستقطاب وتطور في مطلع هذا القرن ومرد ذلك أسباب باتت معروفة، وقد يكون من اهم تلك الاسباب: أن أرض فلسطين شهدت كثيراً من الاحداث التي ورد ذكرها في الكتب السماوية مثل التوراة والانجيل وحتى القرآن الكريم. من طلائع أولئك الباحثين رحالة ومستكشفون منهم علماء ورجال دين وعسكر وأطباء وغيرهم مما كتبوا وصفا لرحلاتهم وتحدثوا عن الأرض التي زاروها وعن الناس الذين كانوا يسكنون فيها، هذا بالإضافة إلى طبيعة الأرض وأنواع نباتاتها وحيواناتها وطيورها.. الخ فبات الناس نتيجة لذلك في شوق لمعرفة المزيد عن الأرض المقدسة، وتبرعوا بأموالهم كما ساعدوا المؤسسات الرسمية في القيام بأعمالها هناك وظهر فريق من أولئك الباحثين راغباً في التحقق من الحوادث التاريخية التي وردت في الكتب الدينية والمدونات التاريخية الأخرى، وأخذوا يتساءلون عن مدى دقتها.

نظمت هذه الجهود بشكل ملحوظ بعد قيام صندوق استكشاف فلسطين عام ١٨٦٠م **Palestine Exploratian Fund** فقد رعى هذا الصندوق ومّول كثيراً من أعمال المسح والتنقيب والدراسة بفلسطين كما أصدر مجلة اخبارية وأخرى علمية لنشر المعلومات والدراسات التي يكتبها الباحثون الذين استخدمهم لتلك الغايه وتبع ذلك عام ١٨٧٠م الجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين ونهجت هذه الجمعية منهج صندوق الاستكشافات في عملها، وليس بخاف على

أحـد، أن هاتـان المؤسسـتان قامتـا بجهـد كبـير، مـن وجهـة نظرنـا، في تخريـب الـتراث الحضـاري الفلسـطيني كمـا سـاعدتا علـى تسـريبه وتغريبـه ليـودع في متـاحف بلدانهـا خاصـة المتـاحف الانجليزيـه الأمريكيـة مثـل المتحـف البريطـاني بلنـدن ومتحـف الاشموليـان باوكسـفورد ومتحـف جامعة بنسلفانيا وغيرهـا الكثـير، كمـا نجـد كذلـك مؤسسـات أخـرى عملت نفس العمـل كالجمعيـة الألمانيـة الفلسـطينية والمؤسسـات الفرنسـية والدانمركيـة والايطاليـة والاسبانية وتقتني متـاحف تلك الـدول اليـوم آثـاراً هامـة مصدرهـا أرض الفلسـطين.

وإذا أردنـا أن نحصي المواقـع الأثريـة الـتي أجـرت فيهـا تلـك المؤسسـات التنقيـب الأثـري نجدهـا كثيرة جـداً تفـوق تصورنـا النظـري وعندمـا يطلـع المرء على الأعـداد الكبـيرة يتـأكد مـن أن الأبحـاث الأثريـة بفلسـطين إنمـا جـرت لغايـات وأهـداف دينيـة محضـة في بدايـة الأمـر وإن كـان هنـاك فريـق مـن البـاحثين يطمـع في توظيـف تلـك الأبحـاث لأغـراض سياسـية كمـا سنرى فيما بعـد.

تعـاونت دائـرة الأثـار الفلسـطينية إبـان الانتـداب البريطـاني مـع المؤسسات البحثيـة الـتي تحدثنـا عنهـا أعـلاه تعاونـاً وثيقـاً وشجعتها وقدمت لهـا التسـهيلات لتنفيـذ مآربهـا وتحقيـق أغراضهـا وبلـغ ذلـك التعـاون ذروتـه عندمـا تأسسـت مـدارس للبحـث الأثـري بفلسـطين كالمدرسـة الأمريكيـة للأبحـاث الشـرقية والمدسـة البريطانيـة للآثـار بـالقدس والمدرسـة الفرنسـية للآثـار والمدرسـة التوراتيـة الأثريـة والمعهـد الألمـاني للآثـار وغيرهـا، وقـد قـامت تلـك المـدارس والمعـاهد متعاونـة باذلـة جهـوداً كبيرة في تفسير نتـائج أعمالهـا تفسـيراً خاطئـاً كمـا أدى ذلـك التعـاون إلى تسـريب كثـير مـن الأثـار الفلسـطينية خـارج الوطـن الفلسـطيني، فنتـائج الاستكشـافات والتنقيبـات الأثريـة مـن تماثيل وفخاريـات وفسيفسـاء ووثـائق طينيـة مكتوبـة

وأختام اسطوانية ومسطحة وغيرها الكثير قد أخذت طريقها إلى متاحف أوروبا وأمريكا كما ألمحنا سابقاً ومن الضروري حصر تلك الآثار والمطالبة بها.

وعندما اغتصبت الصهيونية العالمية جزءاً من أرض فلسطين عام ١٩٤٨ وأقامت عليه الكيان الاسرائيلي (دولة اسرائيل) برز بشكل رسمي توجه جديد في مجال النظر إلى التراث الوطني الفلسطيني (الممتلكات الثقافية الفلسطينية) يقوم ذلك التوجه، بعد أن كان متوارياً خلف الأهداف الدينية والعملية إبان الانتداب البريطاني، على مفاهيم مستمدة من الطبيعة العنصرية للصهيونية العالمية التي لا تتعايش مع الثقافات الأخرى حيث أن التراث هو إحدى ركائز العمل السياسي الصهيوني فلا بد من:

١ـ إستلاب الممتلكات الثقافية الفلسطينية.
٢ـ تخريب الممتلكات الثقافية الفلسطينية.
٣ـ تغريب الممتلكات الثقافية الفلسطينية.
٤ـ سرقة الممتلكات الثقافية الفلسطينية.

ففي المجال الأول: ركزت السلطات الاسرائيلية على البحث في التراث الحضاري بفلسطين على اعتبار أنه تراث يهودي (؟!!) فقامت بالتنقيب عن المعابد اليهودية (الكنس) والقصور والبقايا المعمارية عموما واللقى الأثرية مستخدمة إياها في اثبات دعواها التاريخية التي تقول إن فلسطين هو أرض الأباء والأجداد وأنها الأرض التي وعد بها الرب بني اسرائيل لتكون لهم وطناً قومياً حسب ادعائهم، وهنا هم بحاجة إلى تراث حضاري يثبت وجودهم القديم، وعندما عجزوا نسبوا

كل الأثار في فترة معينة لهم وقدموها بأنها آثار اسرائيلية، وفي ذلك خدعة كبرى انطلت على كثير من الباحثين.

وفي **المجال الثاني**: قامت السلطات الإسرائيلية بأخذ نتائج التنقيبات الأثرية المادية وأودعتها متاحفها وإذا أردنا أن نعدد التنقيبات الأثرية التي قامت بها نجدها كثيرة جداً منها تنقيبات قديمة ومنها تنقيبات حديثة، نذكر بعضها على سبيل المثال:

تل أبو حّوام، تل عراد، تل الشيخ أحمد العريني، تل الأساور، أسدود، دير البلح، غزه، عسقلان، عتليت، تل بئر السبع، تل بيت مرسيم، خربة الكرك (جنوب طبرية) قيسارية، تل دان، تل عنفة، خربة الدير، تل أفشار، أريحا، القدس، العيسوية، مسعده، خربة النبي، تل القصيلة، تل القدح (حازور) تل جزر، وغيرها الكثير وهي مواقع مدن وقرى فلسطينية قديمة انتعشت فيها الحضارة قبل قدوم الإسرائيلين القدماء إلى فلسطين.

وفي **المجال الثالث**: قامت بعثات التنقيب الإسرائيلية بالتخلص من طبقات أثرية تضم ممتلكات ثقافية عربية إسلامية، وذلك بجرفها من سطح التلول الاثرية ولايخفى على أحد يعمل بالآثار أو مطلع على طبيعة العمل الأثرى، بأن العمل بالجرافات الميكانيكية (البلدوزر) يسبب تخريبا وتدميرا للطبقات الأثرية بمحتوياتها الحضارية وقد حدث هذا في عدة مواقع وتلول فلسطينية بحجة أن هذه الطبقات لاتهم تخصص المنقب أو أنها باتت معروفة على حد ادعائه، فإذا جاز الاستغناء عن الطبقات الأثرية للتعرف على المعلومات التاريخية لأنها معروفة في أمكنة آخرى مثلاً فهل يجوز الاستغناء على ما تضمه من مقتنيات ثقافيه هامة!!؟

وقد تعجز السلطات الإسرائيلية عن استلاب بعض الآثار أو تخريبها لسبب أو لآخر، فتلجأ إلى طريقة للتخلص منها بتصديرها إلى خارج وطنها وبيعها على أنها آثار غير معروفة الهوية فيقتنيها الهواة ومحبو الآثار وبعض المتاحف باذلين في ذلك الأموال الطائلة وهذا هو المجال الرابع.

من الطبيعي أن نجد بفلسطين أو في غيرها من البلدان العربية بعض المخلفات الحضارية التي تشير إلى سكن طوائف يهودية وليس معنى هذا وجود كيان سياسي مستقل له مميزاته الحضارية أو وجود مراكز إبداع حضارية يهودية مستقلة فقد سكن اليهود في العالم العربي ولا يزالون، ويمارسون حياتهم الدينية والثقافية بكل حرية، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على تسامح الشعب العربي الفلسطيني خاصة والشعوب العربية عامةً، عبر العصور التاريخية وقبولها بمجموعات دينية ثقافية تمارس نشاطاتها بكل حرية، في حين نجد اليوم كثيراً من المؤسسات الصهيونية رسمية وغير رسمية وذات طابع ثقافي أو سياسي تتدافع من أجل إضفاء الشرعية على كيانها السياسي، خدمة للأغراض الصهيونية، لتوحي لشعبها وللبعض الآخرين أن الدولة الإسرائيلية إنما جاءت تطبيقاً للوعد الذي وعده الرب ومن هنا جاء إصرار تلك المؤسسات في سعيها لوجود أي شيء من المخلفات الحضارية ولو كان ذلك بالإستلاب أو غيره لتظهر وكأنها استمرار للماضي كما أشرنا سابقاً، وإذا أردنا أن نبيّن تلك المؤسسات التي تعمل في إطار الفكر الصهيوني العنصري في حقل التراث الحضاري نجد منها.

- الجمعية اليهودية للاستكشافات.
- الجمعية الإسرائيلية للاستكشافات.
- دائرة الآثار والمتاحف الإسرائيلية وهي تتبع لوزارة التربية والثقافة.
- معهد الآثار التابع للجامعة العبرية بالقدس.
- معهد الآثار التابع لجامعة "بارايلان" بالقرب من تل أبيب.

- كلية الآثار بجامعة بن غورنون بمدينة بئر السبع.
- مركز الدراسات الفولكلورية.
- مركز دراسات ما قبل التاريخ.
- المتاحف المستقلة.
- المتاحف البلدية.

وغيرها الكثير، فلا تكاد تجد مدينة أو بلدة أو قرية أو مستوطنة،إلاّ وتجد فيها لجنة محلية تعنى بشؤون التراث، ووظيفة تلك اللجنة بالطبع، كما يدّعون المحافظة على تراث الشعب الإسرائيلي اليهودي وإبرازه ولكن وظيفتها الحقيقية هي تدمير كل تراث لا يخص ذلك الشعب وعلى رأس تراث الشعب العربي الفلسطيني أو تغييبه في أحسن الأحوال ولن يمر وقت طويل، حسب ادّعائهم، إلاّ وينسى التاريخ شعباً اسمه الشعب الفلسطيني بعد تغييب تراثه بطريقة أو بأخرى.

ومن أجل ذلك جيّش العدو جيشاً كبيراً من الباحثين الذين دُربوا على تطبيق النهج الصهيوني التراثي والذي يقوم على مقولة طالما رددتها غولدا مئير وغيرها من زعماء الكيان الصهيوني " يجب أن نفتش على تراثنا ولو بملعقة شاي" هذا ما قالته مئير في إحدى زياراتها إلى "ايغال يادين" عندما كان يعمل في تنقيبات تل القدح (حازور) بفلسطين، نفهم من هذه المقولة عدم التساهل مع أي تراث يمكن أن يشكل خطراً أو مشاركةً لتراثهم، ومن الطبيعي أن يكون ذلك التراث هو تراث الشعب الفلسطيني الثقافي صاحب الأرض الشرعي.

ولتكريس ذلك ونقله إلى الآخرين في صورة علمية (؟!!) قامت تلك المؤسسات الملمح إليها أعلاه بإصدار عدد من المطبوعات من أهمها:

١ـ موسوعة التنقيبات الأثرية بالأرض المقدسة في أربعة مجلدات.
٢ـ مجلة جمعية الاستكشافات الإسرائيلية.
٣ـ حولية جمعية الاستكشافات الإسرائيلية.
٤ـ سلسلة التنقيبات والمسوح الأثرية في إسرائيل صدر منها حتى عام ١٩٨٦ ستة مجلدات.
٥ـ نشرة متحف القدس.
٦ـ الكتاب السنوي التذكاري الذي يصدر سنوياً لإحياء ذكرى أحد الباحثين أو العلماء الصهاينة.
٧ـ مجلات كليات وأقسام الآثار في الجامعات الإسرائيلية.
٨ـ مجلتا دائرة الآثار والمتاحف الإسرائيلية. علون وعتيقوت.
٩ـحولية جمعية الاستكشافات اليهودية بفلسطين.

هذا بالإضافة إلى عدّة نشرات أخرى وإلى ما تنشره الموسوعات والمجلات الأخرى بفلسطين المحتلة وخارجها في البلاد الأوروبية والأمريكية.

وإذا أردنا التعرف على أساليب استيلاء الصهاينة على التراث الفلسطيني في الأرض المحتلة، نجد أنفسنا أمام حوادث كثيرة يصعب السيطرة عليها، لكثرتها أولاً ولغياب التوثيق لدى الجانب الفلسطيني ثانياً خاصة في المؤسسات العلمية على الرغم من أن هناك بعض الجامعات في الوطن المحتل قد حاولت ذلك وقدمت نتائج هامة، إلاّ أنها تعثرت لجملة أسباب لا مجال إلى الحديث عنها هنا ومهما يكن من أمر فإننا إذا سالنا أنفسنا وسألنا الآخرين نصل ببساطة إلى أن نتائج التنقيبات الأثرية التي أجرتها وتجريها السلطات الإسرائيلية والبعثات الأثرية الأجنبية التي تعمل بإشرافها بفلسطين قد ذهبت إلى المتاحف الإسرائيلية لتزين قاعاتها، شارحة إيّاها على هواها، وإذا تصفّحنا

موسوعة التنقيبات الأثرية التي ألمحنا إليها وهي أربعة مجلدات والتقارير السنوية التي تنشرها البعثات الأثرية الإسرائيلية في المجلات والنشرات المختلفة، نقف على خطورة الوضع في الأراضي المحتلة، فالسرقة تتعدى الأثر نفسه إلى مصادرة هويته وانتمائه.

هذا في مجال التنقيبات الأثرية في التلال والمواقع الأثرية، أما في مجال المتاحف فالأمر لا يختلف كثيراً فلقد قامت السلطات الإسرائيلية بالاستيلاء على موجودات المتاحف الفلسطينية خاصة المتحف الوطني الفلسطيني (المعروف بمتحف روكفلر) عند اغتصابها القدس عام ١٩٦٧، فقد استولت على كثير من المقتنيات ونقلتها إلى المتحف الإسرائيلي الموجود بالقدس المحتلة منذ عام ١٩٤٧ ومن تلك الموجودات مخطوطات البحر الميت الهامة جداً والتي سعت إسرائيل بشتى السبل للحصول عليها قبل الاحتلال و لم تفلح، كما نقلت كثيراً من الأواني الفخارية والدمى والتماثيل والنقود التي اعتقدوا أنها من المناسب أن تعرض هناك في المتحف الإسرائيلي هذا إلى جانب الاستيلاء على البناء نفسه أي المتحف ومكتبته والمخطوطات التي يضمها واستخدامه كدائرة آثار كما استخدمت قاعاته وأبهائه للعروض الدائمة والمؤقتة للمخلفات والتقاليد الإسرائيلية على حد قولهم، كما أقدمت على تغيير شروح الآثار المتبقية فيه وبالتالي تغيير العصور التاريخية الفلسطينية سعياً لإبراز دورهم الحضاري؟! وتحجيم دور الآخرين.

أمّا بشأن المتحف الإسلامي بالقدس الشريف الذي يقع بالزاوية الجنوبية الغربية من الحرم الشريف والذي يضم مقتنيات فريدة في أهميتها فقد أُهمل وتُركت بعض موجوداته تتآكل وتتخرب، وعندما صعب على السلطات الإسرائيلية سرقة كنوز المتحف افتعلت حادثة

سرقة كان من نتيجتها أن خسر المتحف كثيراً من المقتنيات المعدنية والمخطوطات والوثائق النفيسة قدرت الصحافة في حينه قيمتها بثلاثة ملايين دولار وبكل تأكيد كان الحادث مدبراً للاستيلاء على بعض الممتلكات الثقافية الفلسطينية.

ومن أساليب الاستيلاء على الممتلكات الثقافية بفلسطين هو ما يقوم به كبار المسؤولين الإسرائيليين من إجراء تنقيبات أثرية سرية، دون موافقة خطية ولكنها قد تكون بعلم السلطات الإسرائيلية، وذلك للحصول على بعض الممتلكات الثقافية الفلسطينية للمتاجرة بها، ومن هؤلاء كان وزير الدفاع السابق موشي ديان هذا بالإضافة إلى شراء الممتلكات الثقافية من تجار الآثار والفلاحين لتصديرها إلى الخارج وحرمان البلاد منها،وقد تعدّى ذلك الجشع إلى استحواذ أو شراء الآثار من البلاد العربية المجاورة خاصة من لبنان فهناك كثير من الآثار العربية اللبنانية خاصة في منطقة صور والجنوب عموماً، وجدت طريقها بصورة غير مشروعة إلى إسرائيل ومن ثم انتقل بعضها إلى البلدان الأوروبية.

وتعدّى الاستيلاء على الممتلكات الثقافية بفلسطين المحتلة نتائج التنقيبات الأثرية ومقتنيات المتاحف والمتاجرة العبثية التي تستهدف الربح المادي،إلى الاستيلاء على المعالم التاريخية (المباني الأثرية) والتراث الشعبي والصناعات التقليدية الوطنية والمخطوطات والوثائق (وثائق المحاكم الشرعية مثلا) وحتى في بعض الأحيان المآكل الشعبية والأزياء والعادات والتقاليد.

فالاستيلاء على المعالم التاريخية غالباً ما يتم بأسلوبين:استيلاء تدريجي يتم بعد إهمال ومنع المالكين أو المستأجرين من الترميم والإصلاح وعندما يصل الأمر إلى حد التوهن، تصدر السلطات البلدية أمراً بهدم

العقار الأثري، وقد يأتي هذا الإهمال في بعض الأحيان بصورة طبيعية. فعندما طرد العرب الفلسطينيون من ديارهم تركت منازلهم ومدارسهم وجوامعهم ومبانيهم العامة فقامت السلطات الإسرائيلية بإشغالها في مدن يافا وعكا وحيفا والقدس والمجدل وغيرها، خاصة المساكن، لأنها بحاجة إلى إسكان القادمين الجدد من اليهود أما المساجد فترك بعضها لتتخرب تدريجياً لتهدم بعد ذلك أو لتحول إلى نواد ليلية (جامع حسن بك بيافا مثلاً) أو متاحف (جامع بئر السبع مثلا)،وهناك استيلاء مباشر أيضاً كأن تقوم السلطات المحتلة بإصدار قرارات للاستيلاء على مبان تاريخية قصد استخدامها في أغراض لا تتناسب ووظيفتها الأصلية، أو على حارات بأكملها لأسباب تنظيمية بلدية على حد قولها، وقد حدث هذا في حارة المغاربة بالقدس، كما جرى الاستيلاء على حارة الشرف وحي سوق الحصر وحي باب السلسلة بالقدس أيضاً لأغراض إسرائيلية بحتة، وهنا نذكر أن تلك الحارات كانت تضم مبان تاريخية جرى هدم بعضها وإقامة مبان حديثة مكانها واستخدام بعضها الآخر فقد هُدمت حارة المغاربة بما تضمه من ممتلكات ثقافية لإيجاد ساحة لوقوف السيارات وتوسيع الساحة الموجودة أمام حائط البراق (حائط المبكي عند الإسرائيليين). ناهيك عما جرى لمدينة القدس ويافا وحيفا وعكا، فبحجة التطوير ذهبت كثير من المعالم التاريخية ومعالم النسيج العمراني، و لم تتوقف السلطات المحتلة بالقدس عند هذا الحد فقد قامت بوضع مخططات من أجل تطويق الحرم الشريف وتفريغ ما حوله من عقارات حضارية وسكنية ودينية وتجارية وإجلاء سكانها العرب بحجج كثيرة منها إصلاح المجاري العامة القديمة التي يعود تاريخ إنشائها إلى العهود الإسلامية وتوهّن الأبنية علماً بأن السبب الحقيقي لذلك التوهن والتصدع هو التنقيبات الأثرية الإسرائيلية تحت أساساتها أي أساسات الأبنية التاريخية. إنّ كل عقار أو حارة من تلك العقارات أو الحارات

يعتبر جزء من الممتلكات الثقافية للشعب الفلسطيني وبالتالي جزء من تاريخه وتاريخ المدينة المقدسة المعماري والعمراني والثقافي.

أما في مجال التراث الشعبي والصناعات التقليدية فقد اتخذت السلطات الإسرائيلية عدة إجراءات للوقوف أمام انتشارها، من بين تلك الإجراءات الحد من صناعة المواد الأولية التي تصنع منها الألبسة الشعبية والأحذية الشعبية والصناعات الخشبية والصناعات الصدفية وأعمال التطريز وغيرها وذلك بفرض ضرائب باهظة عليها وعلى تصديرها وتوزيعها وصولاً في النهاية إلى إيقاف تلك الصناعات ليتحول أصحابها إلى صناعات إسرائيلية أو إلى صناعات لا تخدم حماية الهوية الثقافية للشعب الفلسطيني هذا وتلجأ السلطات الإسرائيلية أحياناً كثيرة إلى نسبتها إلى الإسرائيليين وترويجها على أنها تراث شعبي إسرائيلي وأنها صناعات إسرائيلية وذلك لاستخدامها في أغراض الدعاية السياسية.

هناك أيضاً الأسماء الجغرافية وتنميطها وأسماء الشوارع والأزقة والحارات والمواقع الجغرافية وغيرها، فقد عمدت السلطات المحتلة إلى تغيير أسماء المدن والقرى والمواقع العربية الفلسطينية بأسماء عبرية حارمة بذلك كثيراً من القرى والمواقع من أسمائها التاريخية وبالتالي من أهميتها الثقافية، ويتصور الباحث أنه لن يمر زمن طويل إلا ونجد الأسماء العربية لتلك المدن والقرى والمواقع التي ارتبطت بالهوية والتاريخ الفلسطيني قد ذهبت لأن العدو قطع شوطاً طويلاً في ذلك متعاوناً مع الهيئات الدولية ودور نشر الأطالس والكتب الجغرافية، كما أنه عمد إلى تغيير أسماء الحارات والأزقة التي تسمى عادة بالأحداث التاريخية الهامة أو بأعلام الشعب الفلسطيني الذين صنعوا تاريخه وبالتالي وجوده، باختصار إنّ

السلطات الإسرائيلية بعد أن سلبت الشعب الفلسطيني أرضه تحاول اليوم بإصرار الاستيلاء على هويته وتاريخه ليسهل عليها مع الزمن دمج قسم منه في محيطها السكاني وتهجير البعض الآخر.

مما سبق عرضه يتبين لنا أن السلطات المحتلة قامت بالاستيلاء على اللقى الأثرية التي أظهرتها التنقيبات الأثرية التي قامت بها تلك السلطات كما قامت بالاستيلاء على كثير من الموجودات الأثرية من المتاحف الفلسطينية كما سهلت تصدير بعضها إلى خارج البلاد مع المخلفات الشعبية، هذا إلى جانب استيلائها على بعض العقارات الأثرية لاستخدامها في أغراض غير مناسبة لوظيفها الأساسية أو هدمها لإشادة أبنية حديثة عليها، فقد حولت كما رأينا بعض الجوامع والمباني التاريخية إلى نواد ليلية مثل جامع حسن بك ليمارس فيه الفسق والفجور، كما حولت جامع بئر السبع إلى متحف للمدينة وقلعة القدس إلى متحف لمدينة القدس حسب تصورهم، إنّ هذه الأعمال تُعدّ استهانة بتراث الشعب الفلسطيني وتحقيراً لتاريخه وماضيه ولدوره في بناء الحضارة الإنسانية العالمية ونُذّكر هنا أيضاً بالتراث الفلسطيني الذي تسرب إلى خارج فلسطين إبّان الحكم العثماني أو إبّان الانتداب البريطاني والذي يقبع اليوم في قاعات المتاحف وصالات العرض.

وللمرء أن يتساءل ما هو دور الشعب الفلسطيني ودور المنظمات الدولية والعربية أمام تلك الحالات من الاستيلاء والتعدي والتدمير للممتلكات الثقافية الفلسطينية في الأرض المحتلة؟ للإجابة على هذا السؤال نُذّكر بالجهود الكبيرة التي يقوم بها أبناء شعبنا في الداخل لصيانة تراثهم في ظل الظروف السيئة التي يعيشون فيها ومن الجدير ذكره أن هناك كثيراً من المؤسسات والهيئات الفلسطينية التي تعمل

على صيانة التراث الفلسطيني أو أنها أقيمت من أجل ذلك ولكن ظروفاً تقف في وجهها، نذكر من تلك المؤسسات بالطبع دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، مركز الآثار والتراث الفلسطيني، الجمعية العالمية لصيانة التراث الفلسطيني (مقرها باريس) وغيرها أما على الصعيد الدولي والعربي فلا بد أن نذكر بالجهود التي تبذلها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومنظمة اليونسكو العالمية والمنظمة الإسلامية الإسيسكو واللجنة الدولية لحماية التراث الإسلامي وكذلك أهمية الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها الكثير من المنظمات الدولية والإقليمية. لقد اتخذت كثير من الإجراءات وجرى تعيين قيّم دولي على الممتلكات الثقافية الفلسطينية ليسهر على تفقدها باستمرار وتعدى ذلك إلى تقديم المساعدات الفنية والمادية لترميم بعض الممتلكات الثقافية وجرى تنشيط استخدامها كي يستطيع أهلها الوقوف أمام تحديات العدو الإسرائيلي وهناك أيضاً لجنة إعمار المسجد الأقصى واللجنة الملكية الأردنية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة ولجنة تاريخ بلاد الشام في الجامعة الأردنية وغيرها الكثير لقد ساهمت كل من هذه المؤسسات بشكل أو بآخر في حماية الممتلكات الثقافية للشعب الفلسطيني بالأرض المحتلة.

خلاصة نقول إن الممتلكات الثقافية الفلسطينية تعرضت للنهب من قبل البعثات الأثرية قبل الانتداب البريطاني وإبّانه وتعرضت لنهب السلطات الإسرائيلية بأشكال مختلفة أتينا على ذكر بعضها، ولا تزال، فما هو السبيل لاسترداد تلك الممتلكات؟ لعله من المهم إجراء حصر لتلك الممتلكات المتواجدة خارج فلسطينَ للتعرف عليها والاتصال بمقتنيها في إطار لجنة عربية، كما يمكن أن تتوسط الهيئات الدولية لدى إسرائيل للحفاظ على تراث الشعب الفلسطيني وإن كانت التجارب قد

أثبتت عدم تقيد العدو الإسرائيلي بالشرائع الدولية في هذا المجال وغيره من المجالات، ومن المهم أيضاً أن يشجع الأهل بالأرض المحتلة عبر البلديات ومجالس القرى والمنظمات الشّعبية كاتحاد المهندسين واتحاد الكتاب وغيرهم لوضع هذه المسألة في مقدمة اهتماماتهم، هذا بالإضافة إلى أنه من الضروري أن تعمد البلديات في هذه المرحلة النضالية إلى تخصيص قاعات لتحفظ فيها الآثار المكتشفة صدفة أو التي يمكن شراؤها، لاشك بأن هذه المقترحات قد لاتكون سهلة التطبيق ولكن لابد من القيام بها فالمحافظة على التراث الثقافي هو جزء لا يتجزأ من المحافظة على الهوية الوطنية الفلسطينية التي من أجلها يقوم الأهل بالوطن المحتل بانتفاضتهم الباسلة التي تتعرض يومياً للنهب والسلب.



المراجع

١) دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، ثلاثة مجلدات، تحرير الدكتور شوقي شعث وهي عبارة عن وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية التي أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع جامعة حلب ومركز الآثار الفلسطيني عام ١٩٨١، مطبعة جامعة حلب ١٩٨١ ١٩٨٤.

٢) القدس بين احتلالين: الدكتور شوقي شعث، مجلة الوحدة العربية، العدد ٤٤ لعام ١٩٨٨.

٣) القدس الشريف: تأليف الدكتور شوقي شعث إصدار المنظمة الإسلامية للتربية والعلم والثقافة، الرباط، ١٩٨٨.

٤) القدس الشريف: خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي ما بين ١٩٦٧-١٩٨٧ تأليف المهندس رائف نجم.

٥) الموسوعة الفلسطينية: المجلد الأول مادة "آثار" الطبعة الأولى ١٩٨٤.

٦) التراث الثقافي الفلسطيني والتعديات الإسرائيلية، الدكتور شوقي شعث، بحث ألقي في الندوة التي نظمها المجلس القومي للثقافة العربية في آثينا بمناسبة يوم الأرض عام ١٩٨٥ ونشر في مجلة الوحدة التي يصدرها المجلس نفسه، في حينه.

٧) كنوز القدس الشريف تأليف: المهندس رائف نجم وآخرون، إصدار منظمة المدن العربية، ط٢، ١٩٨٣.

٨) القدس في ظل الاحتلال العسكري الفلسطيني، روحي الخطيب، شؤون عربية، عدد خاص عن القدس (العدد ٤٠ كانون أول ١٩٨٤).

٩) القـدس دراسـة قانونيـة، سمـو الأمـير الحسـن بـن طـلال ولي عهـد المملكـة الأردنيـة، عمـان ١٩٨٠



روح المقاومة عند شعب فلسطين

محطات تاريخية

إن الحديث عن روح المقاومة عند شعب فلسطين يقودنا إلى الحديث عن النضالات الكثيرة بشتى أنواعها التي قام بها الشعب الفلسطيني عبر التاريخ، وعندما يحاول المرء تتبع ذلك التراث النضالي يجد نفسه أمام تراث هائل يمتد عمقاً في التاريخ، وهو في الوقت نفسه تراث متجدد ذو حركة حية تخاله أحياناً قد نضب، وإذا به يعود عطاء لا ينضب، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه يمكنه حصر ذلك التراث في مقالة قصيره كهذه المقاله وأن يقدم صورة كاملة وشاملة عن مقاومة شعبنا العربي الفلسطيني، لذلك يجد نفسه مُرغماً على الاختيار وتقديم أمثلة فقط تكون بمثابة محطات نضالية تاريخية.

وقبل الدخول في استعراض ذلك التاريخ النضالي أريد أن أوضح أمرين:

أولهما: إن اختياري لهذا الموضوع مستوحى من الانتفاضة التي يقوم بها شعبنا بكل بسالة في الأرض المحتلة، وهو مستوحى أيضاً من روح المقاومة القديمة التي يتحدث عنها التاريخ بكل فخر واعتزاز.

ثانيهما: إن الحديث عن روح المقاومة لدى شعب فلسطين وما يقوم به من مقاومة، والتي هي متأصلة فيه عبر التاريخ، ليس القصد منه أن يخص الباحث الشعب الفلسطيني بصفات هي ليست فيه، أو يميزه نضالياً عن الشعوب العربية الأخرى، فمقاومته المستمرة وعبر تاريخه النضالي الطويل إنما هي مستمدة من روح المقاومة التي يتحلى بها شعبنا العربي في كل مكان وبدعم ومؤازرة منه.

وسيكون حديث الباحث على النحو التالي:

١ - المقاومة عند شعب فلسطين منذ القدم حتى الانتداب البريطاني يافا وتحوتمس الثالث، غزة وتحوتمس الثالث، العصور الكلاسيكية الغزو الأفرنجي الصليبي، والأتراك العثمانيون.

٢ - المقاومة عند شعب فلسطين إبان الانتداب البريطاني.

٣ - المقاومة عند شعب فلسطين منذ عام . ١٩٤٨ ١٩٦٧

٤ - المقاومة عند شعب فلسطين منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن.

كانت فلسطين منذ القدم مفتاح بلاد الشام (سوريا القديمة)، بالنسبة للمصريين القدماء لحماية حدودهم الشمالية، وبالنسبة لمواجهة أعدائهم في بلاد ما بين النهرين والأناضول الحثية أو الميتانية، وكانت كذلك مفتاح مصر وشمال أفريقيا لمن يريد الزحف من آسيا الغربية لإخضاع مصر وشمال أفريقيا، أو على الأقل إجبارها ضمن حدودها، لذلك كانت فلسطين كقطعة الحلوى أو المنطقة الحيوية بالنسبة لجميع الأطراف، ولكنها في كثير من الأحيان كانت كحبة الحنظل مرة المذاق، فلم يكن العبور من الجنوب إلى الشمال سهلاً، وكذلك العبور من الشمال إلى الجنوب. تحدثنا كتب التاريخ عن كثير من أمثلة المقاومات التي قامت بها المدن الفلسطينية، فكم من غاز وقف طويلاً عند أبوابها و لم يسمح له بالعبور بعد أن فقد الكثير من رجاله أو عاد خائباً يجر أثواب الهزيمة، ومن بين الأمثلة الكثيرة المتوفرة لدى الباحث يقدم مثالين قصيرين فقط أولهما: عن مقاومة يافا لتحوتمس الثالث. وثانيهما: عن مقاومة غزة لتحوتمس المار ذكره، والاسكندر المقدوني.

مقاومة يافا (في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد):

تحدثنا مخطوطة من البردى تعود إلى الأسرة المصرية التاسعة عشرة، عثر عليها في طيبة بمصر، وهي محفوظة اليوم بالمتحف البريطاني تحت

رقم (١٠٠٦٠) يعود تاريخها إلى حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وتعرف تلك البردية ببردية هاريس. تذكر المخطوطة أن تحوتمس الثالث (١٤٣٩ــ١٤٩٠ق.م) أرسل قائده المشهور جحوتي ليؤدب مدن آسيا الغربية ولكنه وقف عند أبواب يافا بفلسطين اليوم، و لم يستطع اقتحامها نتيجة للمقاومة الباسلة التي أبداها المدافعون عن مدينتهم، وعندما يئس «جحوتي» من حصار المدينة لجأ إلى الحيلة والخديعة، حيث أخبر أمير يافا بأنه لا يرغب في احتلال المدينة، وأنه يرغب في إنهاء الحصار، وطلب الاجتماع بالأمير الذي رغب في أن يرى صولجان تحوتمس الثالث، ولكنه في الوقت نفسه أعد حيلة للدخول إلى المدينة حيث وضع جنوداً في سلال كبيرة. وعندما علم جحوتي أن أمير يافا يرغب في رؤية صولجان الملك استغل هذه الفرصة، وتقلد الصولجان، وعندما أخذ الأمير يتأمل الصولجان الذي بهره، أخذه جحوتي على حين غرة، وضربه ضربة أفقدته صوابه، فسقط مغشياً على الأرض، عند ذلك قام جند جحوتي بتكبيله، وأمر بتنفيذ الخطة المتفق عليها، والتي تتلخص في إدخال مئتي سلة وضع بداخل كل منها جنديا، كما أشرنا، ليقوموا بمفاجأة حامية المدينة، والقضاء عليها واحتلال المدينة، وخارج الأسوار قابلوا ممثل أمير المدينة وأخبروه بأن الرب منح المدينة «يافا» النصر المبين على جحوتي، وهاهم يقدمون الجزية ومن ضمنها مئتي سلة، ودخلت السلال ونفذ الجند الحيله، وفي المساء كتب القائد جحوتي إلى سيده تحوتمس «من خير رع» وأخبره بالاستيلاء على المدينة.

إن نص البردية هذه يدل دلالة واضحة على مدى مقاومة أهل يافا الجيوش الغازية حفاظاً على مدينتهم،وإنها لم تستطع الدخول إليها إلا بعد أن لجأت إلى الحيلة والخديعة.

مقاومة غزة إلى تحوتمس الثالث والاسكندر المقدوني

يذكر الأستاذ هنري ريفل، في مقالة له نشرت بوقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية حول مقاومة غزة، بأنه لا توجد مدينة كغزة، لديها من الشواهد الكتابية التي تشير إلى المقاومة، تلك الشواهد التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وردت في حوليات تحوتمس الثالث، وأضاف، إن المدن التي تستطيع أن تتباهى بأنها ظلت تقاوم حتى آخر رجل، قليلة جداً، ولكن غزة تستطيع ذلك، وهي اليوم لا تتكلم بل تحارب، والتاريخ يستطيع أن يجيب عن سؤال لماذا يقاوم أهل غزة في الزاوية الجنوبية من فلسطين؟.

وتتحدث المصادر التاريخية المكتوبة عن حالة نراها اليوم بمثابة إحياء للماضي أو إعادة له، من تلك المصادر ما ذكره بوليبيوس حول مدينة غزة (٢٠٢ــ ١٢٠ ق.م) فبعد أن أخذ أنطيوخوس مدينة غزة كتب بوليبيوس مايلي «لقد كان أهل غزة يحافظون على إيمانهم بالمقاومة ويترجمون ذلك إلى مقاومة لا تقاوم»، وعندما اجتاح الفرس البلاد وأخذوا كل المدن واجه أهل غزة وحدهم الخطر كرجل واحد، مما اضطر الفرس إلى فرض حصار طويل على الرغم من القوة التي أخاف بها الفرس مدن بلاد الشام كله.

وعندما جاء الاسكندر المكدوني بعد أن أخذ صور ووقع أهلها في الأسر فإن ذلك لم يخفهم، وكان أهل غزة، الناس الوحيدين في سوريا الطبيعية الذين تجرؤوا على الوقوف أمامه، وسخروا كل جهودهم في مقاومة الاسكندر، ويتحدث أريانوس الذي عاش في الفترة مابين (١٧٥ــ ٩٥ م) والذي كتب تاريخ حملات الاسكندر الكبير فيقول «عندما وصل الاسكندر المكدوني مدينة غزة عسكر في اليوم الأول

قبالة جزء من السور اعتقد أنه سهل المنال، وفرض الحصار على الرغم من أن المهندسين العسكريين لديه قالوا إنه من الصعب احتلال المدينة من ذلك المكان، فلقد ظن الاسكندر أن الإنجازات العسكرية الكبيرة التي حققها في حملته ضد الفرس تسمح له باحتلال مدينة غزة دون عناء، وإن امتناعها عنه سيكون بمثابة ضربة لسمعته العسكرية في اليونان وغيرها من البلاد الشرقية، لقد التف أهل غزة حول باتيس حاكم المدينة وكان على الاسكندر أن يبني تلاً يساوي ارتفاع المدينة ليتمكن من السيطرة عليها، وعلى الرغم من أن المدينة سقطت في النهاية بيد الاسكندر، إلا أن رجالها تجمعوا وظلوا يقاومون حتى ماتوا عن بكرة أبيهم، وقام الاسكندر بعد ذلك ببيع أطفالهم ونسائهم في أسواق العبيد، على حد قول الرواية التاريخية، وأسكن البدو بالمدينة الذين جلبهم إليها وجعلها مدينة محصنة للحرب. لقد استمر حصار المدينة واستمرت مقاومتها نحو عام تقريباً أبدى فيها المقاومون ضروباً من البطولة تفصيلها لا مجال له هنا.

يعود ريفل الأستاذ السويسري للقول «إنه أسعده الحظ أن يعيش ويعمل في غزة بعض السنوات قبل وبعد عام ١٩٦٧ مع اللاجئين الفلسطينيين»، حيث أصبحت غزة مكانه المفضل وأصبح أهل غزة الأقرب إلى قلبه.لماذا هو لا يعرف؟ كما قال، ولكن ما يعرفه أن غزة تقاوم.

المقاومة عند شعب فلسطين ضد الغزو الإفرنجي الصليبي:

تعرضت فلسطين، في غفوة من العرب المسلمين وتفرق كلمتهم، وغيرها من البلاد العربية، إلى غزوة إفرنجية باسم الحملات الصليبية بادىء الأمر، إلا أن المقاومة الباسلة التي أبداها العرب المسلمون،

وخاصة أهل فلسطين من الفلاحين توجت بانتصار حطين الحاسم الذي أكد للإفرنج أن لا مجال إلى الاستقرار في فلسطين والشرق العربي عموماً، كما اقتنع الإفرنج، على حد قول بعض المؤرخين، «إن الشرق شرق وإن الغرب غرب».

تلت معركة حطين معارك كثيرة مع الإفرنج أهمها في العهد الأيوبي معركة تحرير القدس عام ١١٨٧م، أي بعد معركة حطين بنحو ثلاثة أشهر تقريباً، ومعركة عكا في العهد المملوكي التي أنهت الوجود الإفرنجي نهائياً من فلسطين، ومن جهة أخرى كانت معركة عين جالوت ضد الغزو المغولي المدمر الذي تشير بعض المراجع التاريخية أنه لولا مساندة أهل فلسطين للجيوش المصرية الإسلامية لما تحقق النصر في «عين جالوت».

لقد جاء الإفرنج إلى فلسطين (الأرض المقدسة) تحت ستار الدين لتأمين طريق الحج المسيحي على حد قولهم، وحقيقة الأمر أنهم جاؤوا طامعين في خيرات الشرق وأرضه، جاؤوا للاستقرار وتأسيس الممالك والإمارات والقلاع، إلا أنهم أجبروا على الرحيل وعادت الأرض لأصحابها، فقد جاؤوا من أجل السيطرة على فلسطين.

مقاومة شعب فلسطين إبان الحكم العثماني:

انتقلت السيادة السياسية على فلسطين والعالم العربي عام ١٥١٦م إلى الدولة العثمانية بعد أن هزم السلطان سليم العثماني قانصوة الغوري في معركة مرج دابق شمال حلب، وحكمت تلك الدولة الشعوب العربية باسم الإسلام، إلا أن تلك الشعوب عانت كثيراً من جور الولاة العثمانيين وبطشهم ونزاعاتهم الإقليمية، إضافة إلى النزاعات الدولية مثل النزاع الدولي بين العثمانيين والفرنسيين إبان الحملة الإفرنسية على مصر وبلاد الشام بقيادة نابليون بونابرت، ثم النزاع بين الأتراك

العثمانيين ووالي مصر محمد علي باشا، ومن بين تلك الشعوب بالطبع شعب فلسطين، ومن الحوادث الهامة في هذه الفترة حصار نابليون لعكا، لقد دافعت عكا عن نفسها وعن فلسطين، ووقفت أمام نابليون الذي لم يتمكن من احتلالها، ورغم الحصار الذي فرضه على عكا، إلا أنه لم يتمكن من أخذها، وكان للدور الذي قام به الفلسطينيون، داخل الحصار وخارجه، أثر بارز في إفشال الحملة الفرنسية. لقد جاء نابليون إلى بلاد الشام عام ١٧٩٩م، لتنفيذ مخططه، كما يعرف الجميع، للسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية فاحتل العريش بعد حصار دام ثمانية أيام، ومن هناك أرسل منشوراً إلى أهالي نواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله على ماورد في المنشور المذكور؟!! وقال لهم إنما جاء ليخلصهم من المماليك والجزار و لم تفتح غزة له أبوابها وهي بوابة بلاد الشام كما ذكرنا، إلا بعد أن قطع على نفسه المواعيد والمواثيق بأن يحافظ على أرواح الناس وأموالهم ودينهم، ولكنه حنث بذلك الوعد وأخذ الناس بالقوة والعنف فانقلبوا عليه هم وسائر شعب فلسطين، وهذا ما جعله يسفك الدماء ويدمر العمران أثناء انسحابه مخذولاً عام ١٧٩٩ عائداً إلى مصر بعد فشله في حصار عكا الذي ألحنا إليه.

بعد أن تحررت فلسطين من سيطرة الإفرنسيين، عادت إلى الحكم العثماني وعادت إلى المقاومة بسبب جور الولاة وبطشهم، وكثرت شكاوى الناس منهم، فقام أهلها بثورات ضدهم منها: «ثورة غزة» على والي صيدا عبد الله باشا عام ١٨٣٠م حيث كانت آنذاك تابعة لولاية صيدا التي كان يليها عبد الله باشا، وكانت تتبع له العريش وغزة والقدس وعكا ونابلس وجنين، ونظراً لجور عبد الله باشا كان الناس يلقبونه «عبد الله باشا الجزار» تشبيهاً له بسلفه أحمد باشا الجزار، أي أنه ذهب جزار وجاء جزار بالنسبة إليهم، فقد تحرر أهل

غزة واتحدوا مع القبائل المجاورة وطردوا مأمور الجمارك وغيره وأعلنوا العصيان بقيادة «مصطفى الكاشف» أحد زعمائهم فتهددهم عبد الله باشا إلا أنهم لم يذعنوا، فراسلوا محمد علي باشا لإنقاذهم، فجاء إبراهيم باشا بحملته على بلاد الشام قبل أن يتمكن عبد الله باشا من اتخاذ أية إجراءات عسكرية ضدهم. وعندما بدأ عسكر محمد علي بجمع سلاح السكان وفرض الضرائب الباهظة وإخضاع السكان للخدمة العسكرية الإجبارية، ثار الناس من جديد وكان في طليعتهم أهل فلسطين وظلوا ثائرين حتى تخلصوا منهم وعادت فلسطين إلى حظيرة الدولة العثمانية من جديد.

وعندما ظهرت الحركات القومية في البلاد العربية شارك أهل فلسطين مع أشقائهم العرب في التخلص من الحكم التركي العثماني مؤيدين إقامة الدولة العربية المستقلة. إلا أنهم وللأسف وقعوا ضحية مؤامرة بريطانية قذرة، فكانت اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦، ووعد بلفور ١٩١٧، واتفاقية فيصل وايزمن ١٩١٩، وبموجب اتفاقية سان ريمو ١٩٢٣ خضعت فلسطين للانتداب البريطاني وظلت كذلك حتى عام ١٩٤٨.

مقاومة شعب فلسطين للانتداب البريطاني:

عبر العرب الفلسطينيون، منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدام الجنود البريطانيين أرض فلسطين عن مقاومتهم للاحتلال، فقد ساروا في مظاهرتين كبيرتين ضد ذلك الاحتلال إحداهما في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨، والثانية في ٢٧ فبراير شباط عام ١٩٢٠، وقد شارك في تلك المظاهرة الأخيرة ما يزيد عن أربعين ألف عربي فلسطيني. تلا ذلك إضراب عام، وتألفت جمعية سرية عربية تحت اسم «الفدائية» لممارسة العمل المسلح، وقد شنت تلك الجمعية هجومين مسلحين على

مستعمرتين إسرائيليتين أحدهما في آذار/ مارس ١٩٢٠، وجاءت بعد ذلك اشتباكات يافا وضواحيها في أيار/ مايو عام ١٩٢١.

ثورة البراق ١٩٢٩

عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه من التأزم بسبب تحدي اليهود للفلسطينيين العرب، فقد حدث أن اليهود جاؤوا في جماعات إلى الحائط الغربي للمسجد الأقصى في مناسبة تعرف لديهم بتدمير الهيكل، على حد زعمهم، متحدّين بذلك مشاعر العرب المسلمين،وأقاموا احتفالاتهم ورفعوا أعلامهم وأقاموا صلواتهم. فخرج العرب في اليوم التالي للتصدي لهم واشتبكوا معهم، فانفجر الوضع وامتدت الاشتباكات إلى يافا وصفد والقدس والخليل وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية، و لم تتمكن سلطات الانتداب البريطاني من إخماد تلك الثورة إلا بعد أن أزيلت لها إمدادات من الجنود من مصر والأردن ومالطة، بلغت على حد قول بعض المصادر خمسة آلاف جندي و ٦ قطع بحرية ومئة وعشرين طائرة.

لم يهدأ الفلسطينيون طويلاً، و لم يسكتوا عما لحق بهم في ثورة البراق، وبسبب زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين بدعم ومؤازرة سلطات الانتداب البريطاني، تنادت الفعاليات الفلسطينية إلى عقد مؤتمر لها في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٣ رأسه السيد موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية الفلسطينية آنذاك، وتركزت أعمال المؤتمر على موضوعين أساسيين أولهما: الموقف من التعامل مع المندوب السامي البريطاني، وبالتالي مع الانتداب وسياسته المحابية لليهود. وثانيهما: مشكلة الأراضي التي كان البريطانيون يسهلون انتقالها إلى اليهود خاصة من املاك الدولة واملاك الاسر الارستقراطية، غير الفلسطينية، والتي كانت تقيم في بيروت أو دمشق وقد طرحت خلال

المؤتمر أفكار كثيرة منها: اعلان الاضراب العام ومقاطعة الادارة البريطانية. وتلا ذلك اجتماع آخر في يافا للاتفاق على موقف موحد في تنفيذ الأفكار التي طرحت في الاجتماع الأول، ثم نظمت مظاهرة ضخمة في يافا في ٢٧ تشرين أول /أكتوبر ١٩٣٣ تأييداً لقرارات اللجنة التنفيذية، لكن البوليس تصدى لها بالرصاص وقتل فيها أحد عشر مواطناً فلسطينياً وجرح العشرات ومن بينهم رئيس اللجنة التنفيذية نفسه حيث شج رأسه وتوفي بعد سنة متأثراً بجراحه، ومات بموته اللجنة التنفيذية.

حركة عز الدين القسام:

نزح الشيخ عز الدين القسام من بلدة جبلة السورية إلى فلسطين وهناك ساءته أحوال العرب ولمس جور البريطانيين وتعديات اليهود، فدعا إلى مقاومة الانتداب البريطاني، فتجمع حوله عدد من الرجال الوطنيين. اتخذ الشيخ ورجاله الابطال جبال يعبد مركزا لهم، وعندما وصلت اخبارهم إلى السلطات البريطانية في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر ١٩٣٥)، وكان الشيخ القسام مع خمسة وعشرين مناضل من رجاله، حاصرتهم تلك القوات أي القوات البريطانية بقوة بلغ تعدادها نحو ٥٠٠ جندي ولكن الشيخ رفض الاستسلام، عندما طلب منه ذلك، فكانت هناك معركة ضاريه استشهد فيها الشيخ وأربعة من رفاقه الشجعان. لقد رفع الشيخ شعار «موتوا شهداء» ذلك الشعار الذي ظل حيا في ذكر أبناء فلسطين حتى يومنا هذا.

ثورة ١٩٣٦:

كانت نهاية حركة الشيخ القسام المأساوية السبب المباشر لثورة عام ١٩٣٦. كما كان للثورة السوريه ضد الانتداب الافرنسي انعكاساتها

على فلسطين. انفجرت الثورة بفلسطين في ١٤ نيسان/فبراير ١٩٣٦ وقد بدأت بحادث بسيط عند بلدة عَنَبْتا، وما لبثت الاحداث أن امتدت إلى حيفا ويافا ونابلس وغيرها من المدن الفلسطينية، اعلن على اثرها الاضراب العام الذي بدأ من ٢١ نيسان /ابريل حتى تشرين أول اكتوبر من العام نفسه، وتقرر العصيان المدني والتوقف عن دفع الضرائب، فأعلن المندوب السامي البريطاني تطبيق قانون الطوارىء لسنة ١٩٣٦، فقامت بريطانيا كعادتها بمحاولة لاجهاض الثورة فأعلن وزير المستعمرات البريطاني في ١٩ أيار من العام نفسه أنه سيرسل لجنة ملكية لتقصي الحقائق، والنظر في اسباب الثورة والمظالم التي يدعيها كل طرف على حد تعبيره، واضاف بأن اللجنة لن تستطيع السفر إلا بعد أن «يستتب النظام»، وبسبب تدخل ملوك العرب ورؤسائهم في ذلك الوقت وضغط منهم، أعلن الفلسطينيون بلسان اللجنة العربية العليا في ١٠ تشرين أول استجابتهم للوساطة العربية وايقاف الاضراب، وياليتهم ما فعلوا، كما أعلن السيد فوزي القاوقجي بيانا طلب فيه من جميع المجاهدين وقف العمليات العسكرية.

ودعت جمعية العمال العرب في يافا العمال إلى العودة إلى أعمالهم وهكذا وقع الفلسطينيون واخوانهم من العرب الذين كانوا يشاركونهم الثورة، وخاصة من سوريا ولبنان والأردن، في الشرك الذي نصبه لهم البريطانيون الذين عرفهم التاريخ بانهم سيد من يتقن فن الدسائس ونصب الاشراك، وحز في نفوسهم أن هذه المؤامرة انطلت على الملوك والرؤساء. وانتهت بذلك أول ثورة في تاريخ العرب الحديث، قبل الانتفاضة وانتهى معها اطول اضراب كذلك، وطبقا للاحصاءات البريطانية كانت حصيلة تلك الثورة ١٦٣ شهيدا و٨٠٣ جريحا واعتقال ٩٩٦ ثائرا كما تم نسف الكثير من المنازل، إن الخوف اليوم

أن تتكرر الاخطاء التي ارتكبت في ثورة عام ١٩٣٦، لقد كان شرط السلطات البريطانية الاستعمارية آنذاك ايقاف الثورة حتى تتمكن من ارسال لجان التحقيق، واليوم تطالب الولايات المتحدة واسرائيل ايقاف الانتفاضة (أعمال العنف على حد تعبيرهم) للتمكن من الدخول في مفاوضات سليمة بهدوء؟!! فهل يلدغ المؤمن حجر واحد مرتين؟!!.

قرار تقسيم فلسطين
٢٩ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٤٧

كان لتقسيم القارة الهندية إلى قسمين دولة هندوسية واخرى اسلامية اثره البالغ على تقسيم فلسطين فقد كانت مجريات الحوادث في فلسطين وتصوير البريطانيين لها بأنها نزاع بين العرب الفلسطينيين واليهود فمرى اقتراح تقسم فلسطين وعرض على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، فأقرتـهأي أقرت تقسيم فلسطين إلى دولتين بينهما اتحاد اقتصادي وذلك في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ وسارعت بريطانيا إلى الاعلان أنها ستنهي انتدابها على فلسطين في ١٥ أيار عام ١٩٤٨.وفي هذا التاريخ أعلن الاسرائيليون إقامة دولتهم، في حين رفض العرب قرار التقسيم، وأعلنت والحرب، فدخلت الجيوش العربية وأهمها بالطبع الجيش المصري والجيش الاردني والجيش السوري والجيش العراقي، كما اشتركت بعض الوحدات من الجيش اللبناني، وبعد شهر من دخول تلك الجيوش أعلنت الهدنة، وتلاحقت الاحداث ووقعت اتفاقية الهدنة الدائمة برودس، كانت الصورة بعد توقيع رودس في فلسطين: قطاع غزة بإشراف القوات المصرية، الضفة الغربية بإشراف القوات الاردنية، ومنطقة الحمة بإشراف القوات السورية.

حكومة عموم فلسطين:

شكلت الجامعة العربية في شهر تموز /يوليو عام ١٩٤٨إدارة مؤقتة لفلسطين وذلك لتسيير شؤون الأقسام التي تحتلها الجيوش العربية، وظل هذا القرار حبراً على ورق، وفي الخامس من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٨ انعقدت اللجنة العربية العليا اجتماعاً في غزة بزعامة الحاج أمين الحسيني أقرت فيه إقامة حكومة فلسطينية تحت اسم «حكومة عموم فلسطين» برئاسة أحمد حلمي وتشكيل مجلس وطني برئاسة الحاج أمين الحسيني، كما اعلن المجلس استقلال فلسطين استقلالاً تاماً، واعترفت دول الجامعة العربية بتلك الحكومة باستثناء حكومة الأردن، وقد دعت الجامعة رئيس حكومة عموم فلسطين لحضور مجلس الجامعه في ٣تشرين أول اكتوبر ١٩٤٨. كما اصدرت هذه الحكومة التي اتخذت من القاهرة مقراً لها جوازات سفر باسم حكومة فلسطين استعملها أهل غزة حتى استبدلت بوثائق السفر التي أصدرتها الحكومة المصرية. وفي خطوة معارضة لمؤتمر غزه صدر في عمان الشهر نفسه بيان يرفض فيه أن تفرض على عرب فلسطين من متنرعمي فلسطين سابقاً (آنذاك) مشاريع لا يرغبونها، وفي ذلك بالطبع إشارة إلى الحاج أمين الحسيني ودلالة على عدم رضا حكومة الأردن عن إعلان حكومة عموم فلسطين، وفي كانون الثاني /يناير ١٩٤٨ عقد مؤتمر أريحا الشهير بدعم من الأردن حيث أعلن توحيد فلسطين وشرق الأردن في دولة واحدة، إلا أن الجامعة العربية عارضت ذلك الأعلان وبادرت إلى فصل الأردن من الجامعة العربية، إلا أنها عادت وتراجعت عن ذلك القرار بعد شهر واحد.

المقاومة عند شعب فلسطين من عام ٤٨ـ١٩٦٧

بعد توقيع اتفاقية الهدنة برودس وضم الضفة الغربية إلى الأردن بقي قطاع غزة الذي تشرف عليه القوات المصرية هو الجزء الفلسطيني الرئيس الذي يحمل اسم فلسطين، والذي كان يسكنه قرابة أربعمائة ألف نسمة من الفلسطينيين: مواطنين ولاجئين، أصبح القطاع هو الخطر الرئيس الذي تنطلق منه الأعمال المعادية إلى اسرائيل، حيث كان كثير من الفلسطينيين الذين نزحوا إلى غزة، كانوا يتطلعون إلى قراهم وأراضيهم عبر الحدود وهم يتألمون لفقدان البلد ويتضورون جوعاً، وعلى الرغم من قيام مؤسسات الأمم المتحدة بإغاثة اللاجئين والمواطنين لأن أهل غزة وخانيوس وغيرها من القرى فقدوا أراضيهم الزراعية مصدر أرزاقهم فأصبح الجميع بحاجة إلى إغاثة.

عندما أفاق الناس من هول الفاجعة أخذوا يطالبون بالسلاح والتجنيد والتدريب على السلاح في المعسكرات والمدارس على الرغم من أن الجميع كان لا يزال يسكن الخيام، وكثيراً ما كانت الخيام مهترئة تقتلعها الرياح خاصة في فصل الشتاء وينقل الناس إلى الجوامع والمدارس والمستشفيات لايوائهم، إنها أوضاع بائسة وبالغة التعقيد، وكلما كانت الأمور تزداد سوءاً وتعقيداً كانت الأصوات ترتفع مطالبة بالسلاح والتجنيد والتحرير، فظهرت «حركة الفدائيين»، وكان التفكير جاداً في إيجاد جيش فلسطيني وبعث كيان فلسطيني تحت ضغط مجموعات الشباب التي أخذت تكون الجمعيات والنقابات مطالبة بتحرير فلسطين فيمكن القول إن الحركة الوطنية في قطاع غزة لم تكن مقصورة على فريق دون آخر. فعلى الرغم من وجود التجمعات السياسية إلا أنها لم تكن قوية بدرجة كافية، وبالتالي لم تكن هناك حساسيات بين الناس بسبب انتماءاتهم السياسية فكانت هناك جمعية التوحيد بزعامة ظافر الشوا، ونقابة المعلمين (آب ١٩٥٤) وجمعية

الموظفين (١٩٥٠)، وشباب الثأر من حركة القوميين العرب، رابطة الطلبة الخريجين والحزب الشيوعي.

في هذه الفترة تكثفت أعمال المقاومة ضد العدو الاسرائيلي عبر الحدود ، رغم منع السلطات المصرية لذلك خوفاً من الاعتداءات الاسرائيلية، إلا انها استمرت رغم منع السلطات المصرية لها، وكان طبيعياً أن تقوم اسرائيل باعتداءات على قطاع غزة وكانت تلك الاعتداءات بمثابة عقوبات جماعية لجميع المدنيين في مناطق تجمعهاتهم. من تلك الغارات نذكر:

غارة شباط فبراير ١٩٥٥

اجتازت في ليلة من ليالي شباط /فبراير ١٩٥٥/ حدود قطاع غزة سريتان اسرائيليتان وهاجمت موقعا بالقرب من محطة قطار سكة الحديد بغزة ونسفت منزلاً وأربعة أكواخ ومبنى مضخة المياه وقتلت ١٤ جندياً. وفي الوقت نفسه رابطت مجموعة من الجنود الاسرائيليين لحماية المغيرين على بعد ستة كيلومترات جنوب غزة، ونصبت كميناً لسيارة نجدة من المتطوعين الفلسطينيين من عناصر الجيش الفلسطيني وقتلت ٢٢ جندياً وضابطاً منهم. اهتز القطاع من أوله إلى آخره بسبب ما خلفته هذه الغارة من شهداء ودمار فقامت المظاهرات وحرق الناس المستودعات التموينية التي كانوا يستلمون منها قوتهم اليومي مطالبين بالتجنيد لتحرير الوطن، وهتفوا باسقاط مشروع سيناء وحكومة القاهرة، ولم تستطع السلطات إخماد تلك المظاهرات العارمة إلا بعد أن استخدمت جنود الهجانة من سلاح الحدود وكانوا مشهورين بالبطش بالناس وسقط العديد من القتلى في غزة وخانيوس ورفح. وبعد هدوء الحالة نسبياً عمدت السلطات العسكرية المصرية إلى اعتقال الشباب الذي اعتقدت أنهم وراء أعمال المظاهرات فاعتقلت قسماً أرسلته إلى

سجون مصر العسكرية ومنها سجن قنا، ومنهم من زج في سجون القطاع وكان الكاتب من أولئك الذين اعتقلوا في قطاع غزة، ثم تشكلت محكمة مخصوصة لمحاكمتهم فأخذت تحاكم السجناء مجموعة مجموعة. فحاكمت مجموعة غزة ثم مجموعة رفح وجاء دور مجموعة خانيونس التي شهدت أعنف الاشتباكات وامتدت المحاكمات عدة أشهر وجاءت الظروف لصالحهم، إذ أن العدو الصهيوني قام بغارة جديدة على خانيونس في ٣١ آب ١٩٥٥ ونسف مركز البوليس وقتل العديد من المواطنين (٢٨ قتيلاً و٢٩ جريحاً) ونظراً لأن موعد النطق بالحكم على المعتقلين صادف اليوم التالي لهذه الغارة، ونظراً لتوتر الوضع في القطاع بسبب الغارة ووصول مئات البرقيات إلى الحاكم الاداري لقطاع غزة طالبه اطلاق سراحهم قررت المحكمة المخصوصة إيقاف جميع التهم المنسوبة إليهم وأخلت سبيلهم.

اشتباك آب ١٩٥٥

كان لغارة شباط من العام نفسه التي ذكرناها سابقاً، أثر بالغ على نفوس الشباب بالقطاع فاندفعوا للتدريب والتطوع في حركة الفدائيين الفلسطينين التي أشرنا إليها بقيادة الضابط المصري مصطفى حافظ، وبلغ عدد المتطوعين قرابة ٧٠٠ فدائي، نفذت تلك الحركة أول عملية فدائية ليلة ٢٦/٢٥آب ١٩٥٥ داخل اسرائيل حينما هاجمت سيارة جيب عسكرية قرب مستوطنة «بارمردخاي» ثم هاجمت موقعاً اسرائيلياً قرب متبعمرة «كيسوتيم» مما أدى إلى مقتل جندي وجرح عدد آخرين، وفي ٢٨ آب من نفس العام وقع اشتباك مسلح عند تل المنطار شرقي غزة لم يتوقف إلا بعد اتصال مباشر بين يوسف تكواع الاسرائيلي قائد المنطقة الجنوبية ويوسف العجرودي الحاكم العام

لقطاع غزة. لقد كان هذا الاشتباك بمثابة تصعيد لأعمال المقاومة في قطاع غزة ضد العدو الصهيوني الرابض على حدود المدنة.

الغارة الاسرائيلية على خانيونس آب ١٩٥٥

جاء رد الفعل الاسرائيلي سريعاً على اشتباك ٢٨ آب ١٩٥٥، أي بعد أيام فقط، فقد قام بغارة على مدينة خانيونس مركز تواجد الجيش الفلسطيني يوم ٣١ آب ١٩٥٥ ولعل ذلك جاء رداً على تصعيد العمليات الفدائية الفلسطينية، حيث قامت وحدة مدرعة بالتوغل مسافة كيلومترات تقريباً داخل قطاع غزة أمام مدينة خانيونس، وصلت إلى مركز البوليس (سراي الحكومة) الذي كان عبارة عن قلعة من القلاع التي بناها الانجليز لدوائر الحكومة إبان الانتداب البريطاني، وذلك إبان ثورة عام ١٩٣٦ نزولاً عند مشورة «تيجارب». وعندما لم تستطع اقتحامه عمدت إلى نسفه بمن فيه من المدافعين والمساجين وغيرهم فبلغ عدد القتلى ٣٦ وعدد الجرحى قرابة ١٣ جندياً، هذا إلى جانب عدد من المدنيين من قرى عبسان وبني سهيلا، كما تضرر بناء مشفى الرحمة وبعض المساكن المجاورة، فقد الفلسطينيون في هذه الغارة عدداً من شبابهم الوطنيين كما فقدوا عدداً من أفراد الشرطة الوطنيين الذين كانوا يرفضون في كثير من الأحيان أوامر الحكومة في قمع المظاهرات باطلاق الرصاص أو الضرب، فقد رد أحدهم على رئيسه الضابط المصري كيف تأمرني بضرب هؤلاء الناس؟ ومنهم من يكون ابني أو أخي أو أختي؟ إنني لن أفعل وإذا رغبت فهذه البدلة والعمرة وأنا بغنى عن الوظيفة، فرد الضابط المصري الشاب: معك كل الحق فهؤلاء الطلاب يطلبون التجنيد لمحاربة عدوهم الذي سلب أرضهم وحياتهم وهذا هو عمل وطني مشرف ولكنها الأوامر فماذا نفعل؟! إنها أيام بالغة الحلكة من طرف، وبالغة الاشراق من طرف آخر، ويتذكر

الكاتب يومها كيف كان هو ووالده في طريقهم إلى غزة لسماع النطق بالحكم، حكم المحكمة المخصوصة، التي كانت تحاكمه ورفاقه والتي سبقت الإشارة لها، وكيف أن أناساً قالوا: يهود يهود!! وكان الناس لايزالون يتمثلون أحداث الأمس المفجعة وهم عزل من السلاح ونزل من الحافلة للهرب، كما يفعل سائر الناس فتملكه الضحك وهو لايعرف لماذا؟ ربما للمهازل التي تتم أمامه! ويذكر أن والده المرحوم نهره وقال له: أهذا وقت الضحك؟ وهم بضربه بعصاه (باكوره) الذي يحملها دائماً ربما رمزاً للوجاهة. فقد كان عمدة عائلته وعيناً من أعيان البلد، لقد رأى الباحث بعينه كيف خرجت النساء حافيات الأقدام، عاريات الرؤوس، مشعثات الشعر، وهذا أمر منافٍ للعادات والتقاليد في الأيام العادية ولاسيما وأن خانيونس تعتبر من المدن الفلسطينية المحافظة، لقد سارع الرجال لخلع عبيهم ومعاطفهم وإسدالها على النساء.

عندما هدأت الأمور نسبياً رجعت مع والدي إلى بيت لنا كبير وقريب من مركز البوليس المنسوف، وهناك قابلنا الحاكم الاداري لخانيونس وكان يومها «محمد الغزالي» فالتفت إلى والدي وقال: عجبي يا ناس ليه الناس هربوا؟! فرد عليه والدي وكان صريحاً في أقواله بوجه عام، لقد هرب الناس لأن جيشكم هرب، فرد الحاكم العسكري أيه الكلام ده يا حاج؟! فأجابه الوالد لقد رأيت بأم عيني الضابط (فلان)، لم أعد أذكر اسمه، يركب سيارة الجيب ويلحق به العسكر باتجاه شاطىء البحر، وبالفعل وجد ذلك الضابط مع عسكره على شاطىء البحر بعد أن أجريت التحريات اللازمة.

احتلال قطاع غزة (٢ تشرين الثاني /٧ نوفمبر١٩٥٦ إلى آذار/مارس ١٩٥٧): تطورت الأحداث بسرعة في المنطقة العربية في تلك الفترة،

فكانت صفقة السلاح التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا، وهذه أول مرة يتجرأ حاكم من بلدان العالم الثالث على عقد مثل تلك الصفقة، ثم جاء تأميم قناة السويس، وكانت تلك أحداث وطنية أثرت تأثيراً بالغاً في نفوس الجماهير العربية.

و بسبب تأميم قناة السويس قامت بريطانيا وفرنسا واسرائيل بالعدوان الثلاثي على مصر. لقد تجمع أصحاب المصالح الاستعمارية والعدوانية لضرب مصر عبد الناصر من أجل اركاعها، ولكن الجماهير بحسها السليم بادرت للالتفاف حول مصر وافشلت المخططات العدوانية واجبرت المعتدين على الانسحاب من مصر وقطاع غزة.

كان دور العدو الاسرائيلي في العدوان على مصر عام ١٩٥٦ أخذ قطاع غزة وسيناء بعد أن تقضي القوات البريطانية والافرنسية على القوات المصرية، وبالطبع وجد هذا الدور هوى في نفس العدو الاسرائيلي كيف لا وغزة مصدر قلق دائم له، وكانت بمثابة الشوكة في خاصرته، وكان يسعى لاخماد روح المقاومة التي تنطلق منها، لقد عامل العدو الصهيوني سكان قطاع غزة معاملة لم يعرف التاريخ معاملة هي أكثر قسوة منها فهي أكثر قسوة من معاملة اتيلا لأعدائه وأكثر قسوة من معاملة هولاكو وتيمورلنك وهتلر وغيره من سفاحي التاريخ. لم يفرق العدو الصهيوني بين مدني وعسكري، بين طفل وشيخ وامرأة، لقد جمع الناس في الساحات العامة وساحات المدارس وأطلق عليهم الرصاص دونما تحقيق أو حتى سؤال، إنها الهمجية بأم عينيها، فلم يتحدث التاريخ عن مجازر بشعة كتلك المجازر التي ارتكبها الجنود الصهاينة، كل ذلك من أجل القضاء على روح المقاومة التي تتحقق بقتل الناس جميعا شباباً وشيباً واطفالاً ونساءً، ويعتقد الباحث مما سمعه وعاشه أنه لم تبق عائلة بقطاع غزة إلا ونكبت بعزيز، فهل توصل العدو إلى أهدافه عن طريق تلك المجازر؟ لقد كان رد، قطاع غزة مزيدا

مـن المقاومـة، فتـألفت عـدة جبهـات ومنظمـات ومنظمـات لمقاومـة الاحتـلال الصهيونـي منهـا «جبهـة مقاومـة الاستعمار والصهاينـة في قطـاع غـزة» وكـانت تضـم كافـة فئـات الشعب وأصـدرت نشـرة تحـت عنـوان «الحركـة الوطنيـة» وكـانت تـوزع سراً، كـانت تلـك النشـرة تعمـل علـى تطمين النـاس وشـد عزائمهـم بقـرب زوال كـابوس الاحتـلال، واذكـاء روح المقاومـة في صفوفهـم وعـدم التعـامل مـع العـدو ورفـض التعـامل بالليرة الاسـرائيلية وعـدم ارسـال أولادهـم إلى المـدارس، ونجحـت تلـك المقاومـة وكـادت تتطـور إلى كفـاح مسـلح، لقـد اشـترك الفلسـطينيون بكافـة توجهـاتهم بالنضـال ضـد الاحتـلال الاسـرائيلي عـام ١٩٥٦ (تمامـاً كمـا يحـدث اليـوم بالانتفاضـة)، تـابع الفلسـطينيون نضـالهم بعـد انسـحاب القـوات الاسـرائيلية. وكـانت غـزة المدرسـة الـتي تعلـم فيهـا الثـوار مبـادىء الثـورة والنضـال.

في الضفـة الغربيـة تعـرض الفلسـطينيون أيضـاً إلى الاعتـداءات الصهيونيـة بعـد عـام ١٩٤٨، وإن كـانوا قـد اصبحـوا أردنيـين مـن وجهـة النظـر الدوليـة، فقـد أوقـع الصهاينـة عـدة مجـازر بسـكان الضفـة الغربيـة كمجـزرة قبيـة والسـموع وكفـر قاسـم وغيرهـا، كمـا كـانوا يشـاركون اخوانهـم في قطاع غزة المطالبـة بـالتجنيد مـن أجـل العـودة والتحريـر.

قيـام منظمـة التحريـر الفلسـطينية والعمـل الفدائـي:

عندمـا تـأكد للعـرب أن لامنـاص مـن وضـع النضـال الفلسـطيني في اطـار كيـان يمكـن التحـاور معـه، بعـد أن فـرض الشـعب الفلسـطيني نفسـه علـى السـاحة العربيـة والدوليـة فكـانت منظمـة التحريـر الفلسـطينية، وكلـف المرحـوم أحمـد الشـقيري بـالاعداد إلى مؤتمـر وطـني وانتخـاب لجنـة تنفيذيـة، فكـان المؤتمـر الفلسـطيني الأول بعـد عـدوان ١٩٥٦، وفي ظـل التوجيهـات الجديـدة وذلـك في ٢٨ أيـار /مـايو ١٩٦٤ كـان هـذا علـى الصعيـد الرسمـي

العربي، إلا أنـه مـن جـانب آخـر كـان هنـاك الحركـات الفدائيـة الـتي كـانت تنظيماتهـا في غايـة السـرية. وكـانت المفاجـأة الكبـيرة وهــي اعــلان الثـورة الفلسـطينية المسـلحة في الشــهر الأول مـن عـام ١٩٦٥ مــن أجــل تحريـر فلسـطين، وتتـالى بعـد ذلـك ظهـور الحركـات والمنظمـات المسـلحة الـتي تصـدت للكفـاح المسـلح اذكـر منهـا علـى سـبيل المثـال لا الحصـر: حركـة التحريـر الوطـني (فتـح) ومـن قادتهـا ياسـر عرفـات وخليـل الوزيـر وصــلاح خلـف وغـيرهم، وحركـة القومـيين العـرب ومنهـا شـباب الثـأر والعـودة الـتي انقســمت بعـد تبينهـا الخـط الماركســي في نضالها إلى الجبهـة الشعبية بزعامــة الدكتــور جــورج حبــش، والجبهــة الديمقراطيـة بزعامــة نــايف حواتمــة والجبهة الشـعبية القيـادة العامـة بزعامـة احمـد جـبريل وجبهـة النضـال الشـعبي بزعامـة الدكتـور سمـير غوشـه ومنهـا أيضـاً طلائـع حـرب التحريـر الشـعبية الصاعقـة وجبهـة تحريـر فلسـطين وقـوات التحريـر الشـعبية... الخ.

لقـد كـان ظهـور هــذه المنظمـات متباينـاً تاريخيـاً فبعضهـا ظهـر بعـد العـدوان الاسـرائيلي عـام ١٩٦٧ هـذا إلى جــانب النضــال الفكـري الــذي قــامت بــه كثـير مــن المنظمـات الــتي لازال بعضهــا حيـا علـى السـاحة الفلسـطينية.

تطـور العمـل الفدائـي بعـد نكسـة حزيـران الــتي أدت إلى احتــلال جميـع فلسـطين وســيناء والجــولان مــن قبــل الاســرائيلين، وحمــل عبــيء اعــادة الكرامـة العربيـة واعـادة الثقـة إلى الجماهـير العربيـة بعـد أن اصابهـا الاحبــاط نتيجـة نكســة حزيــران، وتمكنـت المنظمـات الفدائيـة مــن الدخــول إلى منظمــة التحريـر الفلسـطينية، فوحــد بذلـك العمــل السياســي والعمــل العســكري، إلا أن النضــال المسـلح الفلسـطيني أصيـب بضربتـين قاسـيتين أحداهمـا عــام ١٩٧٠ في الأردن والثانيـة عــام ١٩٨٢ في لبنـــان، اثـــرت على مسيرته النضاليـة وهـو لايـزال يعـاني منهـا.

الانتفاضة مثال حي على روح المقاومة عند شعب فلسطين

لم تتوفر لدينا بعد أدبيات وافرة عن الانتفاضة كي ننهل منها عند كتابة مثل هذه البحوث إلا مانشر عنها في وسائل الاعلام الاجنبية والعربية وما تسرب عنها من الأرض المحتلة، فمن خلال هذين المنهلين عرفنا أن جميع القوى الفلسطنينة تشترك في الانتفاضة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، هذا ما ساعد على التفاف الشعب بكل فئاته حولها. ومن الملاحظ أن عنصر الشباب بارز، كما يظهر أن هذه الانتفاضة لارجعة فيها، فيبدو أن القائمين بها مصممون على المثابرة والنضال حتى تتحقق أماني شعبنا العربي الفلسطيني في التحرير والعودة وإقامة الدولة المستقلة فوق التراب الوطني.

لقد استطاع الشعب الفلسطيني، بسبب انتفاضته في الأرض المحتلة، استطاع أن ينتزع اعجاب الصديق والعدو واستطاع أن يكشف زيف الديمقراطية الاسرائيلية. أمام العالم كله الذي يقف اليوم بإجلال واحترام مقدراً نضالات أطفال وشباب الشعب، أطفال الحجارة وشبابها، الرجال والنساء شيباً وشباباً فالكل مشارك دون استثناء اليوم والانتفاضة تشمل فلسطين كلها ففلسطين اليوم كلها تقاوم وتناضل من أجل استعادة حريتها.

مهما تحدثنا عن الانتفاضة فلن نستطيع اعطاءها حقها لأننا نجهل الكثير عن بطولاتها كما اسلفنا إلا أنه ظهر حتى الآن أمران هامان فرضتهما الانتفاضة هما:

١ ـ فك الارتباط الاداري والقانوني بين الضفة الغربية والاردن وقد مهد هذا الأمر لمنظمة التحرير الفلسطينية للتحدث باسم أهل الضفة والقطاع وإدارة النضال في الأرض المحتلة.

٢ ـ اعلان الدولة الفلسطينية المستقلة انسجاماً مع اماني شعبنا الوطنية وتحقيقاً لأهداف ثورته المسلحة.

بناء على ما استعرضناه سابقاً من محطات نضالية فلسطينية، وهي بالطبع قليلة بالنسبة للمحطات النضالية التي صنعها ذلك الشعب العملاق، نستطيع أن نخلص إلى أن روح المقاومة تاريخية متجذرة متأصلة فيه، وقد رأينا ما أن يقوم احتلال أو انتداب إلا وتقوم فلسطين لتثأر لكرامتها مطالبة بحريتها، فثورات ١٩٢٠، ١٩٢٩، ١٩٣٦، ١٩٤٧ و١٩٦٥ وغيرها أنها محطات تاريخية أثبت فيها الشعب العربي الفلسطيني قدرته على المقاومة المستمرة في سبيل الأرض والهوية والحرية، وهو اليوم يستلهم من تراثه النضالي الحضاري في حطين وعين جالوت وثورة عام ١٩٣٦ وغيرها القدرة على مواصلة الانتفاضة التي هي محطة تاريخية من نوع جديد بوسائلها وحركيتها وعناصرها، ونحن مطالبون اليوم بدعم هذه الانتفاضة بكل الوسائل بالمال، وبالقلم، وباللسان، وبكل وسيلة تفيد حركة النضال الذي بدأه الأهل بالوطن المحتل. ونحن لا شك متفائلون ومبعث تفاؤلنا ما يجري بالارض المحتلة ونشاهده كل يوم على شاشات الأجهزة التلفزيونية، ونقرأه في الكتب وصفحات الصحف، تضامناً وتصميماً ومحبة في حركة كل شباب وامرأة وطفل.

إن درب النضال طويل ولا زالت أمامها عقبات لابد من التغلب عليها. فالعدو الذي نحارب، عدو من نوع آخر من الأعداء، فإذا فقد خنادقه في فلسطين سيفقدها إلى الأبد وفي كل مكان، لذلك نقول إن درب النضال طويل ولابد من مزيد من التلاحم والقوة لدحره، وليعلم الجميع إن إعلان الدولة الفلسطينية، إنما هو نقلة نوعية في تاريخ النضال الفلسطيني، تحتاج إلى مزيد من النضال لحمايتها وأقامتها فوق أرضها المحررة حتى لاتتكرر مأساة حكومة عموم فلسطين ، أم أن الأمر تغير بعد توقيع اتفاق غزة ـ أريحا أو لا؟! لا أعتقد ذلك.

المصادر والمراجع التي رجع إليها الباحث

أولاً المصــادر:

١) ابـن الأثـير: الكـامل في التـاريخ، خاصـة الجزأيـن العاشـر والحـادي عشـر، بـدون تـاريخ ودون مكـان للنشـر.

٢) ابـن شـداد بهـاء الديـن: الأعـلاف الخطيرة في أمـراء الشـام والجزيـرة. تحقيـق يحيـى زكريـا عبـارة وزارة الثقافـة. دمشــق ١٩٩١.

٣) : النـوادر السـلطانية والمحاسـن اليوسـفية (سـيرة صـلاح الديـن) اختـار النصـوص وقـدم لهـا محمـد درويـش وزارة الثقافـة دمشـق١٩٧٩.

٤) ابـن العديـم الصـاحب: بغيـة الطلـب في تـاريخ حلـب، أحـد عشـر جـزءاً، تحقيـق الدكتـور كمـال الديـن سـهيل زكـار دمشـق ١٩٨٨.

٥) : زبـدة الحلـب مـن تـاريخ حلـب، ثلاثـة أجـزاء، عـني بنشـره وتحقيقـه ووضـع فهارسـه سـامي الدهـان. مطبوعـات المعهـد الافرنسـي بدمشـق للدراسـات العربيـة ١٩٥١، ١٩٥٤، ١٩٦٨.

٦) ابـن القلانسـي أبـو يعلـي: ذيـل تـاريخ دمشـق، مطبعـة الآبـاء اليسـوعيين، بـيروت حمـزة ١٩٠٨.

٧) أبـو المحاسـن ابـن تعـزي: النجـوم الزاهـرة في ملـوك مصـر والقـاهرة، جــ٦، القـاهرة ١٩٣٦.

٨) الأصفهـاني عمـاد الديـن: تـاريخ دولـة آل سـلجوق، دار الآفـاق الجديـدة، بـردى الأتابكي. بيروت ١٩٨٠. محمد بن محمد بن حامد.

٩) المقريزي تقي الدين أحمد: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١ طبعة بولاق ١٢٧٠هـ وجـ٢ مطبعة النيل ١٣٢٤هـ.

١٠) : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٤ جـ١ /ق١/.

١١) الدوداري أبو بكربن: كنزالدرر وجامع الغرر جـ٦ (الدرة المضيئة في عبدالله بن أيبك: أخبار الدولة الفاطمية) القاهرة ١٩٦١ تحقيق صلاح الدين المنجّد.

١٢) : كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب) تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢.

المراجع

١ ـ الدباغ مصطفى مراد: الديار اليافية ٤/٢، دار الطليعة بيروت ١٩٧٢/٤.

٢ ـ سكيك ابراهيم خليل: غزة عبر التاريخ (تحت الانتداب البريطاني)، الجزء الرابع.

٣ ـ الموسوعة الفلسطينية: إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية ١٩٨٤.

٤ ـ ملف الخليج، ملف أصدرته جريدة الخليج بالشارقة بمناسبة مرور ٤٠ عاماً لاغتصاب فلسطين.

٥ ـ كيالي عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، بيروت ١٩٧٣.

٦ ـ بوصيير صالح مسعود: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن بيروت ١٩٦٨.

٧ ـ علوش ناجي: الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٩٨٢ ١٩٤٨ بيروت ١٩٧٤.

٨ ـ دروزة محمد عزة: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، بيروت ١٩٥٩.

9 - Ryffel H, the spirit of pesistance in Ancient Gaza, An Interprctotion of some classical texts in SHAP II 1987.

وقائع الندوة العالمية للآثار الفلسطينية



... من حق فلسطين علينا، أن نبرز تراثها وحضارتها وجهاد شعبها ونضالاته.

في هذا الكتاب نقدم بعض المقالات والابحاث التي تعالج قضايا حضارية وتراثية ونضالية تتعلق بفلسطين وارضها وشعبها بهدف تاصيل الانتماء الوطني والقومي لها. كيف لا وقد قدمت فلسطين الى الحضارة العربية الاسلامية والى الحضارة العالمية الكثير من الاسهامات التي نجدها مسجلة باسمها في المصادر والمراجع. ولا شك أن هذا الابداع الحضاري المستمر هو الذي جعل الشعب العربي كله والفلسطيني بشكل خاص، يرتبط اكثر فاكثر بارضه، ارض النبوات والحضارات..

